

الدراسة الفائزة بجائزة مؤسسة الجمهورية

مقدمـــة

" وما كنت أحسب أمر الناس صار إلى هذا "

أبو الأسود الدؤلى

يصاب الناظر المتأمل لأحوالنا بهزة عنيفة مخيفة ، تركن بـه إلى الاستسلام أحيانـاً وإلى الثورة حيناً . . وعادة ما يعود المرء للتباكى على " طلل درس" ، ويا ليت البكاء يفيد ، ذلك أن الخطر الأكبر الذى يواجهنا ليس فقط فى فساد الواقع على مستويات عدة ، وإنما الخطر الحقيقى فى انعدام أى مشروع فكرى صادق يتلمس أسباب النهوض فى هذا المجتمع الإسلامي الذى استسلم تماماً إلى نمط حياة لا يناسبنا ولا يمثلنا ولا يستلهم تاريخنا وتراثنا ولا عقيدتنا الحضارية العظيمة ودخلنا فى دائرة مفرغة مغلقة من البحث عن حلول ؛ نهتدى لها لكى نتركها على الفور ، ولا أحد يتحمس لتنفيذ ما أتعب الباحثون نفوسهم فى الوصول إليه . . . . .

ويدخل موضوع " اللغة " ضمن هذا المنظور الكبير أى علاقة اللغة بالأمة ، وترتيب أهمية اللغة كقضية ضمن قضايا مثل الإصلاح السياسي والاقتصادي وإصلاح المستشفيات والطرق والتعليم . . . . . . إلـــخ .

فهل إصلاح وضعية اللغة فى المجتمع لها أهمية حقيقية ؟

من هذا المنطلق درسنا موضوع " اللغة العربية وكيف ننهض بها نطقاً وكتابة " . . . وهو موضوع طُرِحَ وبحث من زوايا عديدة وعبر سنوات طويلة .

ولقد وقف رجال الجامعات والأزهر والمجامع حُرَّاساً للغة ، يدفعون عنها الضرر ، بقدر ما أتوا ، ورغم كل هذا مازالت اللغة تحتاج إلى كل الغيورين عليها .

واللغة العربية ليست مجرد وسيلة تخاطب بين الشعوب فى حيز جغرافى ومن هنا تنبع أهمية الموضوع ، فالعربية لغة الدين الذى أضاء سماء الجزيرة العربية ، المكونة من قبائل كثيرة تتحدث لساناً واحداً لكن فروقاً معروفة كانت قائمة بين اللهجات ، حيث عرفنا أن لغة قريش ارتفعت عن عنعنة تميم وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن وتضجع قيس ، وعجرفية ضبة وتلتلة بهراء " (الخصائص /باب اختلاف اللغات وكلها حجة) .

ولذلك فأثر العقيدة على اللغة شديد واضح ، ليس على اللغة فحسب ، بل على كافة علومها البيانية والنحوية والبلاغية ، فانتقلت الثورة العقيدية الإنسانية الكاسحة التى أشرقت بنور ربها على شبه جزيرة العرب ، وما هى إلا ستة عشر عاماً فقط بعد الهجرة حتى فتح العراق ، وفلسطين ، وسوريا ، ولبنان سنة ٦٢٨م ثم مصر وطرابلس والمغرب والجزائر

وتونس ومالطة حتى سنة ٨٧٠م ، ومع هذا المد العقيدى حدث المد اللغوي الذي كان عاملاً من عوامل التوحيد بين الداخلين فى هذه العقيدة [1] فإن قلنا إن الإسلام هو أعظم حدث فى تاريخ اللغة العربية ، لأصبنا الحقيقة ذاتها .

ولكن البحث يبدأ من واقعنا المهترىء ، وواقع اللغة الأكثر اهتراء ، ثم يبدأ بالحديث عن العربية بين لغات العالم ، فيذكر أشهر تقسيمات العائلات اللغوية ، ويدرس سبل انتقال اللغة إلى غير أصحابها ، ثم يتحدث عن شيء من تاريخ العربية ، بداية بما ذكره ابن سلام الجمحى فى طبقاته ، وتحليلاً لآراء العقاد والدكتور ولفنسون وغيرهما . . . .

ثم يتوقف البحث مع خصائص العربية سواء فى صفاتها الخاصة ، أو أساليبها النحوية والصرفية والدلالية أو تميزها بالإعراب ، وفى المبحث الثانى : - يتحدث البحث عن نشأة علوم اللغة وعلوم النحو والبديع والمعاني والدراسات القرآنية وغريب الحديث ، والمعاجم اللغوية ودور الخليل بن أحمد فى النهوض باللغة ، ودراسة " الخصائص " " لابن جنى" وعلاقته بمذهبه فى الاعتزال ، ثم عرض الدراسات اللغوية العربية على الدراسات الحديثة والمقارنة بينهما .

والمبحث الثالث :- عبارة عن محاولات للنهوض بالعربية من خلال :-

١- قضية اللهجات وسبل تخفيف حدتها .

٢- موقف المؤسسات العلمية والتعليمية من اللغة .

٣- الإعلام كأفضل وأيسر الحلول للنهوض بالعربية .

٤- تعريب العلوم ، وقراءة جديدة فى تعريب العلوم الطبية والهندسية .

ويناقش البحث أيضاً فى توصياته سبل جديدة لعلاج قضايا الكتابة العربية وينتهى بالمراجع والفهرست .

ولنتوقف قليلاً مع المراجع حيث نرى عدم وجود علاقة بين عدد المراجع وبين قيمة البحث ، بل لا يرى ارتباطاً وثيقاً بين قيمة وعظمة المراجع وبين البحث المنتَج ، فالعبرة فى الاستفادة من المراجع لخدمة الموضوع ، ومراعاة العمق فى هذا الطرح .

وقد استخدم الباحث كثيراً من المراجع القديمة ، كطبقات ابن سلام وكتاب سيبويه (أجزاء مصورة منه) وخصائص ابن جنى الذى نشره الدكتور عبده الراجحى فى نهاية مجلده " فقه اللغة فى الكتب العربية" والمزهر للسيوطى ومقدمة ابن خلدون ، و"أدب الفتوى" لأبى عثمان بن الصلاح بتحقيق د / رفعت عبد المطلب " ودلائل الإعجاز" فى طبقة مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠م

١- انظر د/ رضا محسن محمود- الموالیا- هيئة قصور الثقافة- مصر- ١٩٩٩م- صـ٦ .

و" المقابسات" لأبى حيان التوحيدى " ومقالات الإسلاميين" للأشعرى . . . . إلــخ .

ولم يتحرج الباحث من الإحالة للكتب الوسيطة ، حيث فشل فى العثور على كتب ورقية من " مراتب النحويين" و" العمدة" و" والفهرست" و" الإصابة" و" معجم الأدباء" وغيرها فاستفدنا من النصوص الواردة فى الكتب الحديثة .

ولم يحدث أن نزعت معنى من سياقه ، بل التزمت- بقدر طاقتى- الأمانة فى النقل ، ولجأ ت إلى الهوامش فى بعض الأحيان لذكر ما يتعلق بالمتن من أفكار جانبية.

وبالنسبة للمراجع الحديثة ، فقد وقفت منها وقفة المتعلم المتأمل لأسلوب البحث وتقسيمه ، وقد تعددت المراجع الحديثة حتى شملت معظم أقطار الوطن العربى (ليبيا وسوريا ولبنان ومصر والعراق . . . وغير ذلك)

وتعددت حتى شملت محاضرات ومناقشات وبرامج ، وكذلك حصلت على نسخ خطية من بحوث علماء مجمع اللغة بالقاهرة ؛ لم يتم نشرها بعد . . .

وحتى لا نطيل ، نقول فقط أن ما قرأته ولم أذكره فى مراجعى يقارب ما ذكرته

***

إن العمل البحثى عمل جاد ، بل شديد الجدية ، وإننا لا نزال يحدونا الأمل فى أن يكون للكلمة تأثير ما ، وفى النهاية يبقى الفضل لأهله : أستاذي الجليل الدكتور شوقى ضيف ، ومعلميَّ د . محمود فهمى حجازى ود. عبد الصبور شاهين والدكتور عبده الراجحى وغيرهم كثيرٌ كثير

ربنا تقبل منَّا عملنا هذا تقبلاً حسناً ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا .

مدخـــــــل :

١ - ما أحسب أمر الناس صار إلى هذا !!

أبو الأسود الدؤلى (ت ٦٩هجرية)

٢- " ثم وإن كنا فى زمان هو على ما هو عليه من إحالة الأمور عن جهاتها وتحويل الأشياء عن حالاتها ، ونقل النفوس عن طباعها ، ودهر ليس للفضل وأهله لديه إلاَّ الشر صرفاً ، والغيظ بحتاً ، وإلاَّ ما يدهش عقولهم ويسلبهم معقولهم ، حتى صار أعجز الناس رأياً عند الجميع ، من كانت له همة فى أن يستفيد علماً أو يزداد فهماً ، أو يكسب فضلاً " .

عبد القادر الجرجانى

المتوفى عام ٤٧١هـ

(بتصرف يسير من دلائل الإعجاز)

٣- قال محمد بن جرير الطبرى :

حدثنا وكيع عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين أنها كانت تنشد بيت لبيد :

ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم **** وبقيت فى خلفٍ كجلد الأجرب

ثم تقول : رحم الله لبيداً . فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ؟!

قال عروة : رحم الله عائشة ! فكيف لو أدركت من نحن بين ظهرانيهم ؟!

قال هشام : رحم الله أبى ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ؟!

قال الطبرى : رحم الله هشاماً ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ؟!

" من الأغاني "

القسم الأول

المبحث الأول :-

" فى واقعـــنا وواقـــع اللغـــــة "

تعتري الباحث هزة عنيفة حين ينظر إلى واقعنا الحالي ، تركن بـه إلى الاستسلام أحيانـاً ، وإلى الثورة حيناً ، أو للتباكى على أطلال الماضي ، فالعالم الإسلامي يمر بوعكة صحية ، أسلمت أهلـه إلى شبه شلل فكرى ، وإلى انقطاع تام عن أى محاولة نهضوية ، وإلى استسلامٍ خالص إلى نمط حياة لا يمثل أخلاقنا ولا تراثنا ولا عقيدتنا .

وليس الخطر الأكبر فى فساد الحاضر ، ولكن فى انعدام أى مشروع فكرى صادق للنهوض بالأمة الإسلامية من إغمائها الطويل ، فالأمر موكول — على أىِّ حالٍ — لجهود الحكومات ، تقرر ما تشاء حين تشاء ، واختفت جهود المفكرين والدعاة ، تلك التى امتدت منذ دعوة النبى ﷺ ، ومروراً بجهود حديثة للأفغاني ومحمد عبده ورفاعة والسنهورى وغيرهم فى كل قطرٍ إسلامي .

ولذا عاش العالم الإسلامي حياةً غربية كاملة ، انعدمت فيها- أو قاربت- القدوة الصادقة الطاهرة ، وانحدرت اهتماماتهم إلى الحضيض الأسفل . . . .

ولم نأخذ من الغرب أساس النهضة ، بل تلقفنا نتاج النهضة ، فلم يتساءل أحد كيف يُصنع الكمبيوتر أو المحمول أو السيارة أو . . . أو . . . وكان كل اهتمامنا فى اقتفاء أحدث ما فى الأسواق ، فصار هم الشباب الأعظم الشكل الخارجى وفى التسابق نحو التفاهات . . التفاهات ، وإن الألم لينهش كبد المرء حين يشاهد هذه الأمور ، وإننى فى حلٍ من ذكر أمثلة كلنا نراها .

وفى هذا الجو العام الملوث ، صار الحديث عن القيم المجردة حديثاً يقال بلغةٍ لا يجيدها إلاَّ أقل القليل . . عن معنى الانتماء المجرد للوطن بدينه وتاريخه وعاداته وثقافاته ومشاعره . . عن معنى العدل والخير والجمال والحق ، عن الشعر ورهافة الحس ومخاطبة الوجدان ، ولذلك لا يمكننا إلاَّ أن نعمل ، نعمل بجد واجتهاد صادقين ، ربما استطعنا إزالة هذا الصدأ الروحي الرهيب الذى علانا تماماً ، وغطى قلوبنا وعيوننا .

نعمل لتجديد مفهوم التربية بشكل عام ، لزرع قيمنا الإسلامية ، وانتمائنا الصادق لدينا ، ومن ثم للغتنا.

علاقة اللغة أكيدة فى هذا السباق الحضاري الرهيب ، فهناك علاقة أساسية بين الحضارة وبين سيادة اللغة ، كما أن هناك علاقة أكيدة بين انهيار معانى الانتماء للوطن وللقومية وللدين وبين إهمال التمسك باللغة .

- لقد مرت علينا حادثة لغوية بسيطة ، رأيت أن أجعلها مفتتحاً لهذا العمل وقد رواها المبرد فى الكامل ، ونقلها عنه شمس الدين النواجى فى " حلبة الكميت "
وفيها يقول المبرد : " كان أبو عثمان المازنى قد جاءه يهودى ، وسأله أن يقرئه كتاب سيبويه ، وبذل له مائة دينار ، فامتنع أبو عثمان من ذلك . قال المبرد : -
يا سبحان الله ترد مائة دينار مع فاقتك وحاجتك إلى درهمٍ واحد ! فقال : نعم يا أبا العباس . أعلم أن كتاب " سيبويه" يشتمل على ثلثمائة آية من كتاب الله ولا أرى أن أُمكن منها كافراً . فسكتُّ (أى المبرد راوى القصة) ثم مضت الأيام ، وجلس الواثق يوماً للشرب وحضر ندماؤه ، فغنت جارية : -

أظلوم أن مصابكم رجلاً * * * * أهدى السلام تحية ظلم .

فنصبت "رجلاً" ، ورأى الجالسون فيه الرفع باعتباره خبر إن ، فوقع النزاع حتى جاءوا بإمام علماء النحو فى زمانه أبى عثمان المازنى ، بعدما أمر الواثق بكتابٍ لولى البصرة بتسيير المازنى إليه مبجلاً معظماً . . وذكروا له البيت ، فقال : الصواب مع الجارية ، ولا يجوز فى " رجلاً " غير النصب ، لأن مصاب مصدر بمعنى الإصابة ، ، ورجلاً منصوب به والمعنى أن إصابتكم رجلاً أهدى السلام تحية ظلم . فظلم خبر إن . ففهم الواثق وعلم أنه الحق ، وأمر للمازنى بألف دينار وتحف وهدايا وذهبت له الجارية هدايا . (١)

وإن المرء ليعجب من كثير . يعجب من حرص اليهودي على معرفة لسان العرب .

ونعجب من قيم المازنى ، ونعجب من تقدير الخليفة الواثق للعلماء وحرصه على القراءة الصحيحة . وإن التأمل فى التراث ليعطينا أثمن الكنوز .

- العربية بين لغات العالم :--

قسم العلماء اللغات — فى أشهر التقسيمات إلى فصائل ثلاث :-

١- الفصيلة الهندية الأوربية بطوائفها الثمانى .
٢- الفصيلة السامية الحامية .
٣- الفصيلة الثالثة وتضم باقى اللغات .

١- شمس الدين النواحي — حلبة الكميت — سلسلة الذخائر — هيئة قصور الثقافة عام ١٩٩٨م صـ٦١ بتصرف يسير واختصار .

وقد جاء فى كتاب " الفلاكة — والبوهيمية فى الأدب القديم والحديث للأستاذ محمد لطفى جمعة فى طبعته الصادرة عن عالم الكتب عام ١٩٩٩/٩٨ م جاء ذكرٌ لهذه القصة ، ويبدوا أن الأستاذ لطفى جمعة قد نقلها من الذاكرة ، فهو يذكر استهانة المازنى بالمال وهو ما لم يحدث ، كما أنه يذكر أنهم طلبوه لإلقاء درس ولكن الطلب كان ليهودى يريد أن يتعلم كتاب سيبويه . . انظر الفلاكة صـ٢٢ .

وتنسب اللغات السامية الحامية إلى سام بن نوح ، وقد بدأت الدراسات الخاصة بها متأخرةً ، حين أخذ المستشرق الألمانى شولزير يدرس تاريخ الأمم الغابرة عام ١٧٨١ للميلاد .

ويرى بعض اللغويين أن الموطن الأصلى للساميين هو شبه الجزيرة العربية ، وإن كان هناك من يرونه فى بلاد ما بين النهرين . . ويرون أن اللغة قد انتقلت مع أصحابها عن طريق الهجرة أو التسلسل (١) .

- العربية لغة ابراهيم :-

واللغة العربية إذن هى إحدى اللغات السامية الجنوبية والتى تضم الحبشية والأكادية والأشورية والأجريتية والفينيقية والعبرية والأرامية إضافة إلى العربية الجنوبية (٢)

- نأمل أن نخرج من النقل والتلخيص إلى الحديث عن لغتنا العربية .

وقد أتيح للعربية ما لم يتح لغيرها من انغلاق وانعزال حفظ للغة كيانها وهيئتها ؛ حتى ظلت أقرب إلى السامية الأم — إذا فرض وجودها الحقيقي- وذلك أن اللغة- أية لغة — كائن متطور نامٍ قابل للزيادة والتطور مثلما هو قابل للموت ، ولذلك نجت العربية فى عهودها الأولى من الذوبان فى اللغات الأخرى وظلت النقوش القديمة شاهدة على قدم هذه اللغة ، رغم أنها ليست أقدم اللغات السامية ، حيث عثر نقوش عربية يرجع تاريخها إلى القرن السادس قبل الميلاد ، كتبت بأحد نوعين من الكتابة هما :-

- الكتابة العربية الجنوبية .

١- يتوسع الباحثون فى دراسة أسلوب انتقال اللغة مع أهلها من شبه الجزيرة إلى بلاد ما بين النهرين ، فيضعون نظريتين هما : نظرية الموجات Willen Theory والتى تقول أن القبائل السامية فى الجزيرة كانت قانعة بمسكنها ؛ لكنها اضطرت للهجرة بحثاً عن حياة أفضل . أما النظرية الثانية فهى نظرية التسلسل **Infiltration theory** حيث ترى أن الشعوب كانت تسلل من أطراف الجزيرة إلى بلاد ما بين النهرين .

- انظر د. محمود جاد الرب — اللغة العربية واللغات السامية — مصر — ١٩٩٢م — ص١٢-١٣ .

ويلاحظ أن اصطلاح" السامية " قد حظى بدعم وتأييد المتشرقين من اليهود حيث حاولوا إضفاء القداسة والعراقة على لغة التوراة ، فألقوا على شعبنا العربى كل أوزارهم التى ضجت منها البشرية .

- انظر د. بنت الشاطئ — لغتنا والحياة- دار المعارف — مصر —٠ ١٩٧١م .

٢- الكتب فى هذا المجال أكثر من أن تحصى ولنذكر مثلاً :-

أ- د. ابراهيم أنيس — الأصوات اللغوية- مطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة — ١٩٦١م .

ب- د. على عبد الواحد وافى — علم اللغة — دار نهضة مصر للطبع — القاهرة — ١٩٦٧م .

ج- د. محمود السعران — علم اللغة — دار المعارف — مصر — ١٩٦٢م .

ء - د. محمد حسين آل ياسين — الدراسات اللغوية عند العرب — منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت — ١٩٨٠م .

- **الكتابة الآرامية [1]**

وقد احتفظت العربية بظاهرة الإعراب – كظاهرة مميزة للكتابات السامية ، فى حين انقرضت هذه الظاهرة فى اللغات السامية الأخرى .

ورغم حداثة الآثار والنقوش العربية - مقارنةً باللغات السامية الأخرى – حيث نجد من الآثار الأكادية ما يرجع إلى القرن العشرين قبل الميلاد ، ومن آثار العبرية ما يعود إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ومن آثار الآرامية ما يعود إلى القرن التاسع ق.م وأما العربية البائدة فلا تتجاوز آثارها القرن الأول ق.م [2] .

رغم ذلك فقد تضافرت الجهود لإثبات أصالة العربية ، فعادوا بها لتكون لغة الخليل إبراهيم عليه السلام ، فلم يكن هناك ريب " بعد الحفريات والكشوف الأثرية أن عصر إبراهيم الخليل – وهو الألف الرابعة قبل العصر الحاضر أو القرن التاسع عشر قبل الميلاد – هو عصر عربى لغته هى السامية العربية الأُم " [3] وقد أطال العقاد فى معالجة نسبة العربية لإبراهيم عليه السلام ، ولكنه عاد فأكد أنها الحقيقة التاريخية ولكن عربية إبراهيم كما أشار العقاد فى كتابه " إبراهيم أبو الأنبياء " بيروت ١٩٦٧م ليست مثل عربيتنا وهذا شئ بداهى ، فالزمان ودورانه لابد وأن يباعد بين طبائع اللغة فى كل عصر من العصور .

وقد أشار ابن سلام الجمحى (ت ٢٣١ هـ) فى طبقاته إلى قول يونس بن حبيب – وقد كان من شيوخ البصرة فى النحو – يقول " أول من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه ، إسماعيل بن إبراهيم صلوات الله عليها " ثم يضيف بن سلام قائلاً :" أخبرنى مسمع بن عبد الملك أنه سمع محمد بن على * يقول : قال أبو عبد الله بن سلام : لا أدرى رفعه أم لا ، وأظنه قد رفعه : أول من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه إسماعيل بن إبراهيم صلوات الله عليهما " [4]

وقد تداول العرب هذه المسألة كثيراً ، فوضحوا أن عربية إسماعيل عليه السلام غير عربية القرآن

---

1. محمود جاد الرب- اللغة العربية واللغات السابقة- سابق- صـ٣٣ .
2. الرأى لدكتور ولفنسون فى " تاريخ اللغات السامية " نقلاً عن عبد الكريم الرعيص – ظاهرة الإعراب فى العربية – منشورات جمعية الدعوة الإسلامية- طرابلس ١٩٩٠م .
3. عبد العزيز بن عبد الله- التعريب ومستقبل العربية- القاهرة- ١٩٧٥م- صـ٩٨ .
4. محمد بن سلام الجمحى- طبقات فحول الشعراء- تحقيق محمود شاكر- مطبعة المدنى- صـ٩ وتعبير " رفعه" يعنى نسبه للنبى ﷺ واعتمدنا على طبعة سلسلة الذخائر- هيئة قصور الثقافة- ٢٠٠١م .

* محمد بن على بن الحسين بن أبى طالب أبو جعفر الباقى (٦٠- ١١٨هـ) .

الكريم ، وقد استند مشايخ العربية إلى أسانيد قرآنية حين لاموا" إسحاق بن يسار" وكان مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف الذى روى أشعاراً لرجالٍ ونساء لم يقولوا شعراً قط . ثم جاوز إلى عاد وثمود .

ثم يقول ابن سلام :" أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ومن أدَّاه منذ آلاف السنين " والله تعالى يقول :" فقطع دابر القوم الذين ظلموا " الأنعام ٤٥ أى لا بقية لهم .

وقال أيضاً :" وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى " النجم ٥٠-٥١

وتتعدد استشهادات ابن سلام ليقطع بين عربية إسماعيل وبين عربية القرآن الكريم .

وهو أمرٌ- لاشك- طبيعي ، فاللغة كائن متطور ، وربَّما وجدنا فى منطقة واحدة خلافاً يعيدنا إلى تعبير " أبى عمرو بن العلاء" الذى تناقله ابن جنى فى " الخصائص" — " ما لسان حمير وأقاصى اليمن اليوم بلساننا ، ولا عــربيتهم بعـربيتنا " [1] .فما بالنا بالسنوات الطوال وفعلها باللُّغة .

- <u>العربية وغيرها :-</u>

تنشأ اللغة نتيجة لحاجات اجتماعية وإنسانية ، حيث أنها بتعبير " ابن جنى " أصوات يعبر بها كل قومٍ عن أغراضهم ". فالدافع لتطور اللغة وثرائها وازدهارها دافع اجتماعى فى المقام الأول . فلولا احتياج الإنسان إلى التعبير ما نشأت اللغة ولا تضخم معجمها .

وكثيراً ما ترتبط اللغة بعوامل ازدهار من خارجها ، ذلك أن علاقة اللغة بالعوامل الاقتصادية والسياسية والثقافية علاقةٌ وثيقة فليس من باب المصادفة أن تكون الإنجليزية سيدة الموقف فى العالم ، بينما الفرنسية سيدة الذوق ، فهى أمور راجعة لطبائع البلدان المستخدمة للغات .

وقد أشار أستاذنا الدكتور شكرى عياد إلى حلول تتعلق بقضية علاقتنا بالغرب فأكد أن الرفض للغرب مستحيل مثل استحالة الذوبان فيه . فالأول فناء بالجوع والثاني فناء بالسيف [2]

تبدو من خلال هذه المفارقة قضية اللغة زاهيةً صارخة ، فنحن مهددون فى هذا العالم بالذوبان التام فى الآخر ، فى استعباد اللغات الغربية لنا وعلينا أن نفكر تفكيراً موضوعياً عميقاً حتى نصل إلى إرادتنا وهويتنا من خلال اللغة .

١- طبقات فحول الشعراء- سابق- صـ١١ .

٢- د. شكرى عياد — المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين — س عالم المعرفة — عدد١٧٧ .عام١٩٩٣

وربَّما طالت هذه المقدمة ؛ لكنها ضرورية للنظر فى طبائع العربية وخصائصها وأول خصائص العربية هى العراقة والقدم اللغوى :-

والدليل أنها احتفظت بأهم خصائص اللغات السامية كاحتفاظها بأصوات الحلق (العين- الحاء- الغين- الخاء- الهمزة- الهاء) وأصوات الأطباق (الصاد والضاد والطاء والظاء) كذلك تعتمد الساميات على الصوامت فى بناء الكلمات ، فكلمة كتب تحدد معنى عملية الكتابة ، وتأتى باقي المشتقات من إضافة السوابق واللواحق والحواشي .

كذلك تحتفظ العربية — كصفة مميزة للسامية — بتصنيف الصيغ من حيث النوع والعدد ، فى حين لا تفرق اللغات الأُخرى بين المذكر والمؤنث فى الصيغ المستعملة [١] .

وهذا ما يدل على عراقة اللغة ، بصرف النظر عن النقوش غير الموغلة فى القدم ، حتى أن نقش النمارة الشهير الذى وجد بمنطقة النمارة على الحدود بين الأردن وسوريا ويرجع إلى عام ٣٢٨ بعد الميلاد ، وهو أقدم نص بالكتابة العربية ، ـحسب رأى بعض الباحثين ـ وعثر عليه فى منطقة تقع جنوب دمشق بحوالى مائتى كيلو متر .

هذا النقش الذى يستند إليه البعض كدليل على وجود الكتابة العربية ، تشعر وكأنه لغة مختلفة تماماً وها مطلع النص :- " تى نفس أمرء القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج وملك الأسدين ونزار وملوكهم وهرب مذمج عكدى . . . إلـخ [٢] .

وكلمة تى تعنى هذا ونفس أى قبر وبر أى ابن وأسر أى حاز . . . الـخ .

والتأمل فى هذا النص الذى يعود إلى حوالى ثلاثمائة وخمسين عاماً قبل الهجرة النبوية الشريفة يشعر بمدى الاختلاف بين اللغة القرآنية وبين اللغة العربية ، وأيضاً يتأكد من وجود كتابة عربية سابقة على بعثة النبى ﷺ ، وهو ما يحاول لغويون كبار إنكاره مقللين من شأن الكتابة العربية قبل الإسلام [٣] وعلى أىَّ حال ، فقد كانت الكتابة العربية موجودة ويدلنا عليها المعلقات العشر ، وما اشتهر عن كتابتها وتعليقها بالكعبة ، حيث يشير الرافعى إلى أن " أول شعر عُلِّق فى الجاهلية شعر

١- د. محمود فهمى حجازى — مدخل إلى علم اللغة- الهيئة- مصر- ١٩٧٦م .

٢- النص عبارة عن خمسة أسطر منشورة بكتاب اللغة العربية واللغات السامية للدكتور محمود جاد الرب- صـ٣٧ .

٣- انظر د. ألكسندر ستيبتشفيتش- تاريخ الكتاب- ترجمة الدكتور محمد الأرناؤوط- جـ١- عدد١٦٩ من سلسلة عالم المعرفة- صـ٢٣٦ .

امرئ القيس ، علق فى ركن من أركان الكعبة " [1] . وذكره قبله بقرون ابن رشيق القيروانى فى" العمدة " وذكره البغدادى فى خزانته وابن عبد ربه فى عقده الفريد [2] .

حتى من أنكر مسألة التعليق بالكعبة لم ينكر مسألة الكتابة ذاتها ، حيث يروى عن جعفر النحاس أحد شارحى المعلقات أنه قال : " إن العرب كان أكثرها يجتمع بعكاظ ويتناشدون ؛ فاذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوها وأثبتوها فى خزانتي ، وأما قول من قال : إنها علقت فى الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواه " [3]. وإننا إذا تركنا المختلفين فى اختلافاتهم ، فأمامنا كتاب الله ، فانظر سورة القلم واقرأ فى البقرة قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجلٍ مسمى فاكتبوه " من الآية ٢٨٢ . وانظر لورود لفظ الكتابة فى القرآن الكريم ثم تأمل سيرة النبى وشيئاً من سيرة الإمام على وزيد وثابت ومعاوية وعثمان وسعد وطلحة وأبى بن كعب وغيرهم من كتبه القرآن الكريم . ثم انظر فى قول النبى ﷺ لأصحابه بمحو ما كتبوه من حديث فى بداية الدعوة خشية أن يختلط بالقرآن الكريم [4] كل هذا و غيره يدعم وجود الكتابة ، وذلك لأن أساتذة اللغة يرجحون قدم اللغة بوجود نقوش مكتوبة تدل عليها . وعلى أىَّ حال ، فلم تكن العرب أمة مغرمة بالكتابة ولا متعلقة بها مثل أمم أخرى .

ولذلك نذكر رأى جانبٍ آخر يرى أن أول نص شعرى هو المحدد لأقدمية اللغة ، وهو أمرٌ لا يستقيم مع ما ذكره الجاحظ عن أن عمر الشعر العربى لا يتجاوز الماتين قبل الإسلام ، فهل يصح أن تكون اللغة وليدةً متعثرة ويأتى شاعر مثل امرئ القيس ليبدأ معلقته بشطرٍ يقول :

ـ قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل-

ففى ست كلمات دعا صاحبين وأمرهما بالوقوف بما فيه من معنى التوقير والتقديس ثم أمرهم بالبكاء جماعة ، كأرق صور التوحد الوجدانى ثم ذكر السبب فأفاض بأنه " ذكرى " والذكرى للحبيب والديار ، ثم تجد التنقل الرشيق ، والتعبير عن عاطفةٍ تقطع الأكباد :-

" ففاضت دموع العين منى صبابةً   على النحر حتى بل دمعى محملى "

ونحن فى حلٍ من الاستمرار فى ضرب الأمثلة ، فهى بلا طائل لأن روعة الشعر الجاهلى غير

---

١. تاريخ آداب العرب- جـ٣- دار الكتاب العربى- بيروت- صـ١٨٤ .
٢. العمدة جـ٣ صـ٧٣ - والخزانة جـ١ صـ٨٩ - العقد الفريد جـ٦ صـ١١٨ .
٣. انظر مقدمة شرح المعلقات العشر- د.مفيد قميحة- دار الهلال- بيروت- عام ٩٤- صـ١٥ .
٤. راجع الإمام أبو زهرة- تاريخ المذاهب الإسلامية- دار الفكر العربى- مصر- صـ٢٣٦ .

خافيةٍ على أحدٍ . وهذا أصدق مثالٍ على أصالة هذه اللغة ، لأن الشعر أرقى مستوى لغوى- فى كل لغات العالم- ووصول الشعر العربى الجاهلى لهذه الدرجة من التمكن الفنى والقدرة على التخييل يُعد تأكيداً على نضوج هذه اللغة وثانى خصائص هذه اللغة العظيمة : أصالة المعنى اللغوى :- ذلك أننا مازلنا نستخدم نفس المفرد اللُّغوى بنفس معناه القديم وبنفس تواجده فى الماضى فالأسماء مثل (أب- أم- أخ- أخت- عين- أنف- رجل- شعر- يد- أذن- رأس- حصان- قمح- شعير . . . . الـــخ .

وآلاف الألفاظ والأفعال والحروف ظلت كما هى بنفس معناها ومبناها ، وقد يستعجب البعض ويتساءل : هل من الممكن مثلاً أن يتحول معنى اللفظ ، فيصير " أخ" هو الوالد- والأنف هى عضو الأبصار؟ وإننا نحيل السائل إلى معجم وبستر " Webster " فعلى سبيل المثال فى طبعته الثانية الصادرة عام ١٩٣٤م ضم المعجم حوالى ستمائة ألف كلمة ، وفى طبعته الثالثة الصادرة عام ١٩٦١م ضم حوالى أربعمائة وخمسين ألف كلمة ، حيث أسقط مائتين وخمسين ألف كلمة وأضاف مائة ألف ، نكتشف أن نصف الكلمات الإنجليزية اختفت بين عامي ١٩٣٤- ١٩٦١م [١] . ولنا إذن أن نشعر بالفخر ونحن ننظر فى شعرنا القديم وقرآننا العظيم وحديث المصطفى الكريم ؛ فنجد ألفاظاً سلسة عذبة مفهومة لمن كان يملك شيئاً من علم بالغة وصبرٍ على فقهها .

تنوع مخارج ألفاظها :-

والمعروف أن حروف اللغة العربية عددها تسعة وعشرون حرفاً كما ذكر سيبويه جاعلاً الهمزة حرفاً مستقلاً ، بينما يعدها المبرد ثمانية وعشرين . ولكن " سيبويه يجعلها خمسة وثلاثين حرفاً بحروفٍ هن فروع وهى " النون الخفيفة" والهمزة التى بين بين والألف التى تمال إمالة شديدة والشين التى كالجيم والصاد التى تكون كالزاى وألف التفخيم " [٢] .

ويكملها إلى اثنين وأربعين (لا تبين إلاَّ بالمشافهة)

ونعود إلى مخارج الألفاظ ، حيث قسمها سيبويه إلى ستة عشر مخرجاً تبدأ بأصوات الحلق وهى ثلاثة (الهمزة- الهاء- الألف) فى أقصى الحلق وأوسط الحلق مُخرجُ العين الحاء . وأدناها مخرجاً من الفم : العين والخاء ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف .

ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً ومما يليه من الحنك مخرج الكاف [٣] وقد اكتفينا بالسابق عملاً بمبدأ ألزم الباحث به نفسه وهو كراهية تكرار ما كرر آلاف المرات فى الكتب ولمن شاء العودة .

---

١. داود حلمى السيد- المعجم الانجليزى بين الماضى والحاضر- نقلاً عن ظاهرة الإعراب فى العربية- سابق- صــ٥٠

٢. سيبويه- الكتاب- باب الإدغام مطبوع ضمن كتاب د.مصطفى أبو الخير- علم اللغة- مصر- د.ت صــ٣٤١ .

٣. انظر التقسيم كاملاً فى " الكتاب" لـ سيبويه جـ٤ صــ٤٣٣ والمعروف أننا حين نختبر مخرج حرفٍ ما نضع قبله ألفاً فمثلاً مخرج الباء نقول " أب" ومخرج الجيم نقول أج وهكذا . . . .

وننتقل إلى الجهر والهمس ، والحرف المجهور هو : حرفٌ أشبع الاعتماد فى موضعه ، ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه والمهموس : حرف أُضعف الاعتماد فى موضعه حتى جرى النفس معه وهى الهاء والحاء والخاء والكاف والشين والسين والتاء والصاد والثاء والفاء . عشرة أحرف مهموسة والباقى مجهور .

وعلى هذا فاللغة العربية أوسع لغات العالم فى مخارج ألفاظها ، فسعة المدرج الصوتى من الشفتين إلى أقصى الحلق مع تنوع المخارج ميزة واضحة فى العربية . ولننقل مثالاً بسيطاً . . . ماذا إذا أردنا أن نكتب كلمة " إسحاق" هل نكتب (ISAAC) فتنطق وقتها إيزاك أم نكتبها (ISHAC) وتنطق إسهاك أو إيشاك لأن الحرفين (SH) ينطقان شيناً .

إن أصوات اللغة العربية يجعلها فخراً لنا وانظر لكلمات " أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازى ت ٣٢٢ يقول :" لغة العرب التامة الحروف ، الكاملة الألفاظ ، لم ينقصها شئ من الحروف فيشينها النقصان ولم يزد فيها شئ فتعيبها الزيادة "[١] .

ولذلك لاتجد حرفين يحلان محل حرف كما فى الإنجليزية ، ولا تجد حرفاً يكتب ولا ينطق . ولا تجد تغيراً فى أصواتها رغم ما يلاحظه علماء اللغة من عدم ثبات النظام الصوتى فى أى لغة .

العلاقة بين المعنى والمبنى :-

أيضاً تختص اللغة العربية بوضوح المناسبة بين قوة الحرف وقوة المعنى ، فمن الحروف الشديد كالهمزة والقاف والكاف والجيم والطاء والتاء والدال والباء ومنها الرخوة ومنها المنحرف ومنها اللينة والهاوى ، ومنها المطبقة كالصاد والضاد والطاء والظاء وباقى الحروف منفتحة . . .[٢] .
فكلمة خَضْمُ (فتحة فساكن) تختلف عن قَضْمُ فالخضم بالخاء الرخوة تعنى أكل الأشياء الرطبة والقضم للأشياء القوية لأن القاف من حروف الشدة . وهذا المثال ذكره صاحب الخصائص ذاكراً أن " مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث بابٌ واع ونهج مأموم " [٣] .
وانظر للفرق بين صعد وسعد والصد والسد . تجد الصاد من حروف الاستعلاء فاستعملت فى الصعود الحسى ، والسين من حروف الاستفال فاستعملت للدلالة على السعادة والإغلاق الهين .
وهو بابٌ واسعٌ لمن أراد بحثه ، كذلك تجد فى صوتيات اللغة تناغماً وتناسقاً وذوقاً رفيعاً .
فحروف العربية فى كلماتها تبتعد عن الغرابة والتنافر ، حتى لو وجد اللفظ فى معجم اللغة،

١- أبو حاتم الرازى- الزينة فى الكلمات الإسلامية العربية- تحقيق حسين الهمدانى- جـ١ القاهرة- ط ثانية عام ١٩٥٧م صـ٤٦ .
٢- الخصائص- سابق- صـ٤٣٦ .
٣- السابق- جـ٢- صـ١٥٢ .

تجده مهجوراً وذلك لأن أحسن الأبنية ما تجده مكوناً من حروف متباعدة فى المخرج ، ولذلك ذكر ابن جنى رفض استعمال بعض التراكيب لتقارب حروفه نحو (سص- طس- ظث) وكذلك نحو (تج- جق) . ولهذا استنبط العلماء علامات تكشف الدخيل من الكلمات غير العربية ، حيث لا تجتمع الصاد والجيم ولا الجيم والقاف ولا الطاء والجيم فى كلمة عربية وكذلك لا تقع زاى بعد دال ولا شين بعد لام ولا نون قبل راء فى كلمة عربية [١] . وأيضاً خلو الكلمة الرباعية والخماسية من حروف الذلاقة . . . إلــــــخ .

<u>- سعة الاشتقاق :-</u>

خاصية أخرى تضم لخصائص هذه اللغة الشريفة الغنية ، والاشتقاق مظهر من مظاهر غنى اللغة لاشك ، وقد لاحظ " نولدكه" ذلك وبالغ فى إظهاره حين يقول :" وليست اللغة العربية غنية بكلماتها فحسب ؛ بل بقواعد نحوها وصرفها أيضاً ، فجموع التكسير وأحياناً أسماء الأفعال كثيرة ، زائدة عن الحاجة " [٢] .

والاشتقاق وسيلة من وسائل تنمية اللغة ، تعنى توليد كلمة من أُخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة تركيب لها لتدل على زيادة مفيدة وهذا هو الاشتقاق الأصغر [٣] .

ولنضرب مثلاً واحداً يوضح لنا مدى غنى الاشتقاق ودوره فى تنمية المادة اللغوية ، الحروف (س- ج- د) وأهم الاشتقاقات كالتالى :-

فعل (١- ماضى سجد ٢- مضارع يسجد ٣- أمر اسجد)

الاسم (١- اسم فاعل ساجد ٢- اسم مفعول مسجود ٣- صفة مشبهة ٤- اسم التفضيل أسجد ٥- اسم زمان ٦- اسم مكان مسجد التصغير . . . . الــخ)

وانظر لقول الراجز :

هل تعرف الدار لأم الخزرج * منها فظلت اليوم كالمزرج [٤] .**

ومن الواضح أن اسلوب العربية فى الاشتقاق يقوم على أصولٍ ثابتة ، وقوالب وهيا كل . فاسم المفعول من الثلاثى يوزن على " مفعول" ومن غيره بزنة مضارعه مع فتح ما قبل آخره .

١- السيوطى- المزهر فى علوم اللغة- تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين- طبعة الحلبى د.ت- جـ١ صـــ٢٧٠ والمقصود بالكلمة الكلمة الأصلية وليس فعل به سوابق ولواحق فالنون تسبق الراء فى الأفعال المبدوءة بـ النون مثل نرى- نراقب . . الــخ .

٢- نولدكه نقلاً عن أحمد أمين- فجر الإسلام- طبعة مكتبة الأسرة- عام ٩٧- صـــ٥٤ .

٣- انظر رأى السيوطى فى المزهر جـ١ صـ٣٦٤ .

٤- المثال فى الخصائص ونقلناه عن د.عبده الراجحى فقه اللغة فى الكتب العربية- دار النهضة لبنان صـ١٠٦ والزرجون هى الخمر بالفارسية وقد اشتق منها الراجز .

وكذلك تجد من مميزات الاشتقاق فى العربية ما لم تجده فى غيرها ، فانظر مثلاً لكلمات مثل كتاب- مكتبة- مكتب- كاتب- حيث يقابلها فى الإنجليزية Writer- Bureau- Library- Book .

فلا توجد أى رابطة فى بنية هذه الكلمات فى الانجليزية .

وانظر مثلاً الكلمات الدالة على العلاقات الاجتماعية أخ – أخت Brother- Sister الابن والبنت Son- Daughter الـــخ . وموازين العربية نفسها أغنى وأكثر من موازين أى لغة فى العالم .

<u>وفرة المفردات وتضخم المعجم اللغوى</u> :-

كان اختلاف القبائل سبباً من أسباب تضخم المعجم اللغوى ، فقد اختلفت القبائل فى الظواهر اللغوية ، كما اختلفت فى التأنيث والتذكير والبنية والإعراب فعلى سبيل المثال قريش تفتح حرف المضارعة فتقول " نَستعين " وغيرها مثل قبيلة " أد" تكسرها فتقول " نِستعين" . وبعضهم يقول استحيت .

وبعضهم يقول :" استحييت" ، وبعضهم يقول " صاعقة" وآخرون يقولون " صاقعة "

وبعضهم يؤنث البقر والنخل وبعضهم يقول : هذا البقر هذا النحل [1] .

وقد ذكرا ابن جنى أن أحدهم جاء للرسول فقال له : يا نبئ الله فقال النبى لست نبىء الله ولكننى نبى الله "

وحينما نزل القرآن الكريم نزل بلهجة قريش ، ولذلك جاء فى البخارى أن عثمان دعا زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصى وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف .

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شئ من القرآن ؛ فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا ذلك [2] .

إذن فقد تضخمت اللغة حين جمع الجامعون الكلمات لكل القبائل ويعلق أحمد أمين " وفى التضخم ضرر كالهزال " صـ٢٤٥ .

١- انظر أحمد أمين- ضحى الاسلام- جـ٢- هية الكتاب- ١٩٩٨م- صـ٢٤٤:٢٤٣- بتصرف بسيط .

٢- الحديث بالبخاري- كتاب المناقب- جـ٢ تحقيق طه عبد الرءوف سعد — مكتبة الإيمان- مصر وتعبير" لسان" هو التعبير الإسلامي عن اللغة وعن اللهجة وأيضاً عن اللسان (عضو الكلام) فالقرآن الكريم لم يستخدم كلمة " لغة" مطلقاً ، بل عبر عنها بمصطلح اللسان . حيث ورد فى خمسة وعرين موضعاً ، فعلى سبيل المثال (وما أرسلنا من رسولٍ إلاَّ بلسان قومه) إبراهيم الآية ٤ . أو " ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم " الروم الآية ٢٢ . وحينما أراد الخالق الإرارة إلى لغة الطير استخدم تعبير " منطق الطير" ربَّما لأن اللغة ظاهرة إنسانية خاصة . ولمن أراد الإحصاء انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

وإن كان هناك من يعارض هذا الرأي ويفخر بوفرة المفردات العربية [1] فعلى أىّ حال ليس هناك لفظ هو نفسه لفظٌ آخر ، ولابد من فرقٍ . فالحلم غير الوقار والحظ غير النصيب كما سنبين بعد قليل ، ولهذه الكثرة فى الألفاظ ، اتبع الخليل بن أحمد أسلوباً رياضياً فى تدوير الحروف وكما يقول " يؤلفه على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ، وأنه ليس يعرف للعرب أكثر منه ، قال الليث [محدث الخليل] فجعلت أستفهمه وهو يصف لى " [2] . وقد قسم الخليل الحروف مجموعات (حلقية- لهوية- شجرية- أسلية- نطعية- لثوية- ذلقية- فوية- هوائية " [3] .

نعود لقضية المترادفات ، والحق أن العرب قد دققوا كثيراً فى اختيار اللفظ ، فمثلاً " السماء" هى كل ما أظل الإنسان " " الصعيد كل أرض مستوية " " الصرح كل بناء عالٍ " فإذا انتقلنا من الكليات إلى الجزيئات ، فقد أورد الثعالبى فى " فقه اللغة " أن طعام الضيف " القرى" وطعام الدعوة " المأدبة" وطعام الزائر التحفة وطعام العرس الوليمة ، طعام الولادة الخُرس ، طعام الختان العذيرة . . . . . الـــخ [4] .

ولهذا وصلت أصول العربية ٧٢٢٠ ومزيداتها ١٢٠٣٢ فى حين أن أصول اللغات السريانية والعبرية والحبشية والأكادية مجتمعة تبلغ ٤٩٥١ ومزيداتها ٨٦١٠ فهل هناك وفرة أكثر من هذا [5] .

بقى أن نشير إلى أن ابن خالويه قد جمع للأسد خمسمائة اسما وجمع الأصفهانى من أسماء الدواهى فوق أربعمائة اسم ، وذكر الأصمعى أنه يحفظ للحجر سبعين اسماً ، وروى عن المعرى أنه يحفظ الكلب سبعين اسماً .

وانظر لترتيب مراحل الحب" الهوى- العلاقة- الكلف- العشق- الشعف- الشغف- الجوى- التيم- التبل- التدليه ثم الهيوم [6] .

والواضح أن الاسم وصفاته كما أشار أبوعلى الفارسى لأسماء السيف انه لا يعرف له سوى هذا الاسم أما المهند والصارم والبتار والحسام وكذا و كذا فهى صفات [7] .

---

١. انظر المختار أحمد ديرى- دراسة فى النحو الكوفى- دار قتيبة- د.ت صـ٤٢ .
٢. الفهرست ٦٤- ٦٥ نقلاً عن الدراسات اللغوية عند العرب- سابق- صـــ٢٤٦ .
٣. السابق صـــ٢٤٧ .
٤. انظر فقه اللغة وسر العربية- صـــ١١ .
٥. الإحصاء السابق ورد بمجلة العربى الكويتية أغسطس ١٩٦٥م وننقله عن " ظاهرة الإعراب .
٦. فقه اللغة وسر العربية- نسخة خاصة مصورة من طبعة بيروت- صـ١٧١.
٧. المزهر- سابق- جـ١ صـــ٤٠٥ .

وهو ما يؤكده أبو هلال العسكرى فى " الفروق فى اللغة" حيث يفرق بين العلم والمعرفة ، وبين الحلم وهو الإمهال بتأخير العقاب، وبين الوقار وهو الهدوء . وبين النصيب الذى يكون فى المحبوب والمكروه ، أما الحظ ففى المحبوب . . . . [1] .

وننهى بقول الشافعى " لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً ، ولا نعلم أن يحيط بعلمه غير نبى ، ولكن لا يذهب منه شئٌ على عامتها .

وربما صادف المترجم من العربية للغة أخرى صعوبات نقص مفردات اللغة المنقول إليها وقد صادف أحد المترجمين للمجرية هذه المشكلة حين بحث عن اسم مجرى يعنى البارئ ، فلم يجد سوى معنى الخالق "**Teremteni**" وحتى فى الإنجليزية لا نجد سوى **CREATE** يمعنى يبدع- يخلق- يبرأ . . . . . " [2]

ونتوقف مع خاصيتين أخيرتين من خصائص اللغة العربية الأساسية .

<u>أولهما</u> :- <u>مرونة اللغة العربية فى تعاملها مع غيرها</u> :-

وقد سمحت اللغة العربية للغات الأخرى أن تساهم فى مفرداتها ، ولم تتوقف عند " الفارسية" فقط ، بل وجدت ألفاظ رومية وحبشية وسريانية . . . . إلــخ .

وقد أوردت المعاجم العربية ألفاظاً معربة ، وأبدع المعجميون فى تفصيل لغاتها الأصلية والتغيرات التى أصابتها ومعناها .

وربما كان ورود ألفاظاً غير عربية فى القرآن الكريم (أعلى مستوى بلاغى عربى مطلقاً) هو الذى فتح باب الاهتمام بالمعرب من الألفاظ ، فقد رأى لغويونا أن ألفاظاً مثل " قسورة" و" حوباً" و" ناشئة" وغير ذلك مقتبس من لغات أخرى ولنتوقف مع معجم " العين " للخليل (ت١٧٥ هـ) باعتباره أول معجم عربى عام ، حيث أورد ما يقارب ثلاثمائة لفظ غير عربى ، ذكرهما فى قسمين :-

قسم نص الخليل على أنه معرب أو دخيل أو أعجمى ، والقسم الثانى لم يشك فى أصله .

وفى القسم الأول استخدم الخليل لفظ " مُعرب " فى وصف خمس كلمات ، واكتفى بذلك فلم يزد عن قوله " صلج: صولجان : معرب " ، وكلمات " الباسور- الريباس- الشمختر- نرجس "

ونختار كلمة" الشمختر " لنرى أسلوب المعاجم العربية فى التعامل مع المفردات الأعجمية :

فقد جاء فى العين : " الشمختر " : معرب . قال" والأزد أمسى نخبهم شمختراً "

---

١. لمن شاء الاستزادة فعلية بكتاب الفروق " لأبى هلال العسكرى " .

٢. عن الفيصل- عدد ٣٠٠ صــ٦٤ .

وفى التكملة للصغانى قال: الشمختر معرب وذكر بيت الشعر .
وفى اللسان :" الشمختر: اللئيم" .
وفى القاموس المحيط :" الشمختر : كسفر جل : اللئيم المنحوس ، معرب شوم اختر أى منحوس الطالع" .
وفى معربات عبد الرشيد :" شمختر: معرب" (١) .
إذن فقد دنت الألفاظ المعربة من العربية ، فاستضافتها حيناً وأنست بها ، وفى أحيان أخرى لم يطل مكث المفردات فى العربية كثيراً ، وسنذكر ثلاثين لفظاً من الألفاظ الواردة فى معجم العين ؛ لنرى مدى احتياج لغتنا لغيرها :- " الريباس — الصَّرْم- الكوسج- فرانق- تميز — القبج- الخاميز- داشن- نرمق- جلسان- بربط- النيفق- البردج- بقم- هيا شراهياً- البردج- بقم- الجلاهق- الجوسق- القاقزة- الأبهل- الدهنج- الشلق- المريق- الشاقول- الششقلة- الكشوث- الجوم- رخد- دهل " (٢) .
ومعنى هذا أن الصراع الحضارى والتأثير المتبادل بين الحضارات قد أدخل ألفاظاً عديدة إلى اللغة ، استغنت عنها العربية عبر تاريخها ولم يبق منها سوى ألفاظ بسيطة .
وقد فسر" الصولى " هذا الأمر بما رواه عن على بن الصباح قال : سمعت الحسن بن رجاء يقول : ناظر فارسىٌ عربياً بين يدى خالد البرمكى ، فقال الفارسى : ما احتجنا إليكم قط فى عملٍ وتسمية ؛ ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا فى أعمالكم ولا لغتكم ، حتى طبيخكم وأشربتكم وما فيها على ما سمينا . فسكت عنه العرب ، فقال له البرمكى :- قل له : اصبر لنا نملك كما ملكتم ألف سنة، بعد ألف سنة كانت قبلها لا نحتاج إليكم ، ولا إلى شىء كان لكم (٣) .
يبقى أمامنا الإعراب كسمة أخيرة مميزة من سمات العربية ، لم تبق فى أى لغة من اللغات ، وسندرسها فى موضعها من البحث . وربما تجاوزنا عن بعض السمات البلاغية كالإيجاز لنتركها لموضع آخر .

١- انظر دراسة د/ مصطفى ابراهيم على- الألفاظ المعربة فى معجم العين- دار الوفاء- مصر- عام ١٩٨٨ صـ٣٩-٤٠ .
٢- السابق- صفحات متعددة .
٣- بتصرف يسير عن أحمد أمين- ضحى الإسلام- سابق جـ١- صـ١٩٢ .

المبحث الثانى

العربية :- تاريخٌ من النور

فكيف بنا الذين غطت الخطايا والذنوب قلوبنا ؟

الإمام مالك

يستطيع الباحث أن يربط – بثقةٍ ووعى – بين تقدم الدراسات اللغوية والأدبية وبين القرآن الكريم ، بل يستطيع أن يقرر أن ظهور علوم اللغة والبلاغة والبيان والبديع والمعانى جاءت نتيجة جهود علماء مسلمين ، استهدفوا تعظيم كتاب الله .

والسبب فى ذلك شدة الارتباط بين " الكتاب" و" الحديث " من جهة وبين علوم العربية ، ففقه الدين يحتاج إلى علم باللغة . فأول شروط الاجتهاد هو العلم بالعربية ، وحدده الغزالى فقال: " إنه القدر الذى يفهم به خطاب العرب ، وعاداتهم فى الاستعمال ، حتى يميز بين صريح الكلام وظاهره ومجمله وحقيقته ومجازه ، وعامه وخاصه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومطلقه ومقيده ، ونصه وفحواه ، ولحنه ومفهومه " أ.هـ [1] .

والمطلوب كما يشير الغزالى " أن يبلغ المرء درجة الاجتهاد " وسبب ذلك أن الأحكام التى يتصدى لها وعاؤها الأول هو العربية (القرآن الكريم) .

، ويربط الشاطبى فى " الموافقات" بين مستوى العلم بالعربية وبين مستوى فهم الشريعة ، ولذلك وجدنا سيدنا رسول الله ﷺ يقول " يأيها الناس ، إن الرب واحد ، وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنَّما اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى " [2] .

إن الأساس الأولى لفهم الإسلام هو الفهم بصادق الوعى للغتنا العربية ، وليس مطلوباً من كل مسلم أن يصير لغوياً ، ولكن القدر الذى يجعله فاهماً لأحكام دينه، فعلى سبيل المثال نهى النبي عليه الصلاة والسلام الملامسة والمنابذة ، ونهى عن بيع الحصاة ، وكما جاء فى الحديث " ولا تناجشوا" [3] .

فإذا تركنا البيع ، وانتقلنا إلى العبادات ، تجد فى" كتاب الحج " رجلاً يسأل جابر بن عبد الله :"أيشترك فى البَدَنة ما يشترك فى الجزور ؟

1- الغزالى عن الإمام محمد أبو زهرة- تاريخ المذاهب الفقهية- سابق- صـ٣٠٧.
2- الحديث نقلته عن أستاذى الدكتور مصطفى أبو الخير- مقدمة كتابه " محاضرات فى علم اللغة"- صـ٣ .
3- الملامسة أى اللمس وتفسيراته مختلفة فى مواضعها والمنابذة أى ترك السلعة لشاريها بمعنى إتمام البيعة ، والحصاة : أى تحديد السلعة بدفع حصاة نحوها وتفسيرات أخرى ، والنجس بيع الواحد على بيع أخيه ، وقد وردت الأحاديث فى صحيح مسلم بشرح النووى باب البيوع- المجلد الخامس من طبعة دار الفكر- لبنان- ١٩٩٥م- صـ١٢٥ وما بعدها وانظر كتاب الحج فى المجلد نفسه.

وتقول عائشة :" أهدى رسول الله ﷺ مرةً إلى البيت غنماً فقلدها ، واستكمال مسيرة ضرب الأمثلة إضاعة وقت بلا طائل ، ولذلك لم يختلف فقيه من الفقهاء فى اشتراط تعلم العربية؛بل انظر لتعبير أبى المعالى الجوينى " الاستقلال باللغة العربية " فكأنه يملك اللغة ويطوعها للسانه وعقله ، ولـــم نجد اختلافاً فى شرط اللغة ، بل زاد الشافعى فقال : " بصيراً باللغة ، بصيراً بالشعر " (١) .

إن اللغة هوية وذات وانتماء فى كل لغات الدنيا ، وفى العربية عقيدة ، لا يكتمل الإيمان مع الجهل باللغة الحاملة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وجهود الصحابة والمتفقهين وأهل الصوفية .

وليس معنى ذلك أن غير العرب من ناقصى الإيمان ، إنما المقصود حاجة المؤمن لمعرفة أحكام الشرع بلغته ، وكذلك تدبر القرآن الكريم وفهمه ، يقول الله تعالى : " فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون " (٥٨) سورة الدخان

ولم يكن اللسان العربى عائقاً عن تحصيل العلم ، ، بل يسجل" ابن خلدون " ملاحظة غريبة " أن حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم " (٢) . ويفسر ذلك أن العلوم حضرية ، وأن العرب أبعد الناس عنها .

وربما بالغ ابن خلدون فى نسبة العلم للعجم ، وقد ردَّه أستاذنا أحمد أمين فأشار أن سيبويه والفارسى إنما درسوا على الخليل ، وكذلك فإن أئمة الفقه منهم مالك والشافعى وهما عرب . . . الـــخ .

- فى نشأة علوم اللغة :-

لم يتوقف نظر المسلمين للقرآن الكريم على أنه كتاب بلاغة وعقيدة ، يتقرب به المسلم لربه فى صلواته ومناسباته ، بل امتدت نظرتهم للقرآن الكريم كأسلوب ربانى راقٍ لتنظيم كافة أمور حياتهم ، مهما زادت . وعلموا أن الطريق الوحيدة لنيل هذا المطلب هو فقه هذا الكتاب الكريم ، ولأن القرآن أداته اللغة ، فقد انطلق المسلمون باجتهادات فردية ، تواصلت حتى وصلت إلى منهج درس واع كما سنرى . وربَّما رصدنا اهتمام النبى ﷺ باللغة ، وقد ورد فى مراجع عديدة (٣) أن وفداً جاء النبى ﷺ يعلن إسلامه ، فلما قام خطيبهم بين يديه يتكلم لحن فى كلامه

١- انظر أبو عمرو عثمان بن الصلاح- أدب الفتوى- تحقيق د. رفعت عبد المطلب- هيئة الكتاب- ١٩٩٨م صـ٤٢ وللمحقق هوامش قيمة شاملة مكملة .

٢- ابن خلدون- المقدمة- مطبعة دار ابن خلدون- الاسكندرية- د.ت صـ٤٠١ .

٣- انظر مراتب النحويين صـ٥- لمع الأدلة ٩٦ والخصائص ٨/٢ ونحن ننقله عن الدراسات اللغوية عند العرب- سابق- صـ٣٦ .

، فاستفظعوا لحنه ، وظهر ذلك فى وجه النبى أيضاً وقال للوفد :" أرشدوا أخاكم فقد ضل" . ولا يخفى على السامع قسوة هذا اللفظ ، خاصة مع معناه الإيماني لدينا ؛فالضلال صفة للمارقين الخارجين من ربقة الدين ، وليس بعيداً رأفة النبى فى تعبير " أرشدوا" بل دعا النبى حساناً لقول الشعر :" قل وروح القدس معك " (تهذيب الآثار للطبرانى) ومما روى أيضاً فى "تهذيب الآثار" استنشاد النبى لأبى بكر بيت كعب بن مالك :-

زعمت سخينة أن ستَغْلِبُ ربَّها وليُغلبنَّ مُغالبُ الغَلاَّبِ [1].

وليس استناد الشعر فقط بل الوعي به وتصحيح معناه وهدفه ، وها هى أم المؤمنين سودة بنت زمعة تنشد " عَدِىٌّ وتيم تبتغى من تحالف " فغضبت عائشة وحفصة ، فعلم النبى ، فدخل عليهن وقال " يا ويلكن ، ليس فى عديكن وتيمكنَّ قيل هذا ، وإنما قيل هذا فى عدى تميم وتيم تميم " [2]

. ولذلك كان النبى يفخر بتربيته فى " بنى سعد" موطن الفصاحة البدوية . . .

وكذلك كانت الصحابة . . .بل ربما بالغ عمر بن الخطاب حين جاءته رسالة أبى موسى مبدوءة بقوله :" من أبو موسى إلى الخليفة عمر " فيرد عمر قائلاً :" أقسم عليك إلا ما قنعت كاتبك سوطاً . فلما جاء الكتاب إلى الكاتب وسأل عن خطئه ، أصلحه وأرسله إلى الخليفة عمر " انظر أضداد ابن الأنبارى صـ٢٢٤ .

لهذا ولغيره كانت ضرورة تقعيد العربية ، والبحث فى جعلها علماً .

الجهود الأولى ونشأة النقاط والعلامات :-

ربما كان " غريب القرآن" المنسوب لابن عباس هو فاتحة الجهود الإسلامية الهادفة لصيانة وتفسير كتاب الله ، ثم كان الجهد الثانى هو ضبط كتاب الله حيث تصدى " زياد ابن أبيه"- والى العراق- لهذا الأمر ؛ فكلف أبا الأسود الدؤلى أن يعمل على ضبط القرآن ، فاتخذ أبو الأسود كاتباً فطناً حاذقاً وقال له :" إذا رأيتنى قد فتحت فمى بالحرف ، فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، وإن ضممت

١- لبيت وما قبله منقول بتصرف من " دلائل الإعجاز" للجرجانى بتحقيق وتعليق/ العلامة العظيم الراحل محمود شاكر- هيئة الكتاب- سنة٢٠٠٠- صـ١٧ و" سخينة" طعام رخيص يؤكل أيام الشدة ، وهو اسمٌ لقريش تعير به (انظر تعليق المحقق صـ١٧) .

٢- السابق صـ٢٠ وسر غضب عائشة أن أباها أبو بكر من " تيم قريش" وغضبت حفصة لأن عمر من " عدى قريش" والبيتان لقيس بن معدان وهما :-

فخالف الله تهبط تلعة * * * من الأرض إلا أنت للذل عارف .

ألا من رأى العبدين أو ذكر له * * * عدى وتيم تبتغى من تخالف .

شفتى فانقط نقطة بين يدى الحرف ، وإن كسرت شفتى فاجعل النقطة من تحت الحرف ، فإن اتبعت شيئاً من ذلك غنة ، فاجعل مكان النقطة نقطتين (١) .

وربما تأكدت الحاجة لضبط مفردات القرآن الكريم ، بسبب استشهاد البعض من حفظة القرآن ووفاة البعض ، وذهاب كبار الصحابة ، ودخول غير العرب فى الدين ، على أىّ حال ، فقد أشاع تلاميذ أبى الأسود [نصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز ويحيى بن يعمر وعنبسة الفيل وميمون] أشاعوا هذا العمل الجليل ، بل طوره نصر بن عاصم حين ميز بين الحروف المعجمة والمهملة فيما عرف بـ" نقط الأعجام " ثم كانت جهود الخليل بن أحمد (ت١٧٥) فوضع العلامات بدل النقاط (٢) .

- نشأة النحو وأصالته العربية :-

الحديث عن نشأة النحو على يد أبى الأسود الدؤلى بإشارة من الأمام على بن ابى طالب قضية مطروقة مكررة ، لا طائل من ورائها ، ولكن الأهم من ذلك هو معرفة الواقع اللغوى الذى أجبر العرب على البحث فى وضع قواعد العربية ، والحق أن النحو العربى قد نشأ بسيطا خاليا مما ذكره البعض من تأثر بالمذاهب الفلسفية والمنطقية ، حتى لو استخدمت نفس الألفاظ ، فالحد النحوي يختلف عن الحد الفلسفى ، وقد فرق أبو حيان التوحيدى بين " النحو" و" المنطق" فأكد أن فوائد النحو مقصورة على عادة العرب بالقصد الأول ، قاصرة على عادة غيرهم بالقصد الثانى ، والنحو يرتب اللفظ ترتيباً يؤدى إلى الحق المعروف أو العادة الجارية " والخلاصة أن النحو منطق عربى والمنطق نحو عقلى (٣) .

وكذلك فالتعليل اللغوى يختلف عن التعليل الفلسفى ، ويرى الدكتور عبده الراجحى أن القرائن التاريخية لا ترجح فكرة تأثر النحو العربى بالمنطق الأرسطى ، حيث كان اللغويون- خاصة- يكرهون المنطق الأرسطى ويكرهون الاتصال به وينقل من كتاب " الصاحبى" قول مؤلفه " ابن فارس" : " زعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو ، وهذا كلام لا يعرج على مثله ، وإنما تشبه القوم آنفاً بأهل الإسلام ، فأخذوا من كتب علمائنا وغيروا بعض ألفاظه ، ونسبوا ذلك إلى قوم ذوى أسماء منكرة بتراجم بشعة لا يكاد لسان ذى دين ينطق بها (٤) .

---

١. انظر المحكم فى نقط المصاحف- أبو عمرو الدانى- تحقيق د. عزة حسن- دمشق- ١٩٦٠م- صـ٣ وأيضاً إنباه الرواه للقفطى جـ١ صـ٣ وأيضاً الدراسات اللغوية عند العرب صـ٥٤ .
٢. يجدر القول أن لغات مثل اليونانية والسريانية ولغة العبرانيين قد استخدمت النقاط والعلامات ، نتيجة لدوافع تشبه دوافعنا . انظر المحكم فى المصاحف- مقدمة المحقق صـ٢٩ .
٣. أبو حيان التوحيدى- المقابسات- هيئة الكتاب- مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠م صـ٦٥ .
٤. د. عبده الراجحى- فقه اللغة فى الكتب العربية- دار النهضة- لبنان- ١٩٧٢م- صـ١٧٤ .

هذا المنطق (١) . وهذه الآراء وغيرها منسوبة لأساتذةٍ كبار ، وقد حالف الصواب معظمها ، غير أن مراجعة الكتب القديمة ذاتها تقول غير ذلك ، ذلك أن الذى ترجم كتاب " المنطق" هو محمد بن عبد الله بن المقفع . وقد أثبت الأستاذ بول كراوس ذلك (٢) ومعنى ذلك أن الترجمة تمت بعد وفاة الخليل أما صحبة حنين بن إسحاق للخليل والتى أشار لها العلامة أحمد أمين فى الجزء الأول من " ضحى الإسلام" بقوله :" فذهب حنين إلى بلاد الروم ، وأجاد تعلم اليونانية ، ثم عاد إلى البصرة ، ولازم الخليل بن أحمد يأخذ عنه العربية " صـ٣٠٤ . والأستاذ أحمد أمين يبدأ فيحدد مولد حنين بعام ١٩٤هـ ونعود للجزء الثانى من ضحى الإسلام حيث يذكر بالحرف " فالخليل عاش من (١٠٠-١٧٥) صـ٢٧٠ فكيف إذن يولد حنين بعد وفاة الخليل بتسعة عشر عاماً ويتصاحبان ؟ على أىِّ حال فقد كان النحو علماً عربياً وليداً خالصاً ، وهذا ليس عن تعصب بقدر ما هو إحقاقٌ للحقّ ، وقد نشأ النحو عراقياً ، لأن أهل البادية لم يكونوا بحاجة إلى علم يعلمهم كيف ينطقون الكلمات ، فهم أهل الفصاحة والبراعة.

وسبب وضع النحو هو اللحن ، واللحن فى قراءة القرآن الكريم كان أخطر باعث على النظر فى اللغة ووضع قواعد لتصونها . وقد شاع اللحن- كما هو معروف- مع الفتوحات ، ودخول عناصر غير عربية فى الإسلام ، واللحن الذى نقصده هو الخطأ فى الوجه المتعارف عليه فى القراءة ، أى خطأ الإعراب واسم الفاعل منه لاحن ولحان . غير أن " اللحن" قد يطلق على " اللغة" وقد يطلق على اللهجة ، وقد يطلق على البلاغة فى الحديث ففى الاولى تقول "هذا الكلام ليس من لحنى ولا لحن قومى "أى لغتى ، واللحن أى اللهجة وجمعها لحون ومنها حديث النبى " اقرأوا القرآن بلحون العرب " وأيضاً الفطنة والبلاغة فى حديث النبى ﷺ :" لعلّ بعضكم ألحن بحجته من بعض " (٣) .

١- دى بور- تاريخ الفلسفة فى الإسلام- تعريب أبى ريدة- لجنة التأليف والترجمة شوقى ضيف- المدارس النحوية- دار المعارف بمصر- ١٩٦٨م صـ٣٠ . وأيضاً الجزء الأول من والنشر- القاهرة ١٩٣٨م صـ٣٨ وكذلك د. ضحى الإسلام صـ٣٠٤ .

٢- الكتور مهدى المخزومى- عبقرىّ من البصرة- وزارة الإعلام- العراق- ١٩٧٢م صـ٨٨ . وللدكتور المخزومى دراسة أخرى عن الخليل نال بها درجة الماجتير وصدرت عن دار الرائد عام ١٩٨٦م .

٣- عن مختار الصحاح- طبعة دار القرآن الكريم- بيروت عام ١٩٧٢م صـ٥٩٤ وأيضاً المعجم الوجيز مادة " لحن" . أما الحديث الشريف ، فقد جاء فى كتاب الشهادات باب " من أقام البنية بعد اليمن" من صحيح البخارى جـ٢ . وقد جاء فى كتاب المظالم باب " إثم من خاصم فى باطل وهو يعلمه" قول النبى : " إنما أنا بشرٌ وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحب أنه صدق فأقصى له بذلك . . . " إلخ الحديث الاول هو الدليل على أن اللحن قد يعنى البلاغة فى التعبير وهو ما لم أجده فى آراء اللغويين .

وقد فزع المسلمون من اللحن ، ونبهوا له ، وعاقبوا عليه ضرباً وعزلاً من العمل ، وربَّما كان اللحن فى القرآن الكريم أخطر من غيره ، وقد سمع أبو الأسود الدؤلى من يقرأ " إن الله بريءٌ من المشركين ورسوله " الأية (٣) التوبة بكسر لام " رسوله" فقال : حاشا لله أن يبرأ من رسوله ، ما كنت أحسب أن أمر الناس صار إلى هذا " [١]

ولا شك أن الاختلاط قد فعل فعله فى اللسان العربى، فبدأ أول زيغ فى الألسنة فى تسكين أواخر الكلم هرباً من الأعراب " [٢] .

ولكن نذكر مثالاً بسيطاً ورد فى " لمع الأدلة" صـ١٠٩ أن نقول مثلاً :- ما أحسن زيدٌ- وما أحسن زيداً- وما أحسن زيدٍ الأولى تعنى أن زيد لم يحسن والثانية تعجب من حسنه والثالثة سؤال عن أحسن ما فيه ولهذا ولغيره كان تقعيد اللغة ، حيث زاد اللحن وفشا مع بدايات العصر العباسى [١٣٢ هـ] فانتقل اللحن من العوام إلى الخاصة ، وتحتفظ كتب اللغة بموقف مشهور لابنة أبى الأسود الدؤلى التى قالت " ما أجمل السماء" بضم اللام ، قاصدةً فتحها ، والقصة فى " أخبار النحويين البصريين للسيرافى ،٠

ولأبى الأسود ينسب وضع قواعد اللغة العربية، وابن قتيبة يقول " أول من وضع العربية أبو الأسود " وابن حجر يرى " أول من نقط المصحف ووضع العربية أبو الأسود " [٣]. ، وقد نبه ابن سلام إلى خلاصة جهد أبى الأسود فى قوله :" وكان أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها ، أبو الأسود الدؤلى- وهو ظالم بن عمرو بن سفيان . . . . "

" وإنما قال ذلك حين اضطرب كلام العرب ، فغلبت السليقية ، ولم تكن نحوية ، فكان سراةُ الناس يلحنون ، ووجوه الناس ، فوضع باب الفاعل والمفعول به ، والمضاف وحروف الرفع والنصب والجر والجزم " [٤] .
ولا يكاد كتاب هام فى اللغة وإلاَّ ويذكر نسبة النحو إلى أبى الأسود [٥] .
على أن فضل الأمام على بن أبى طالب لا ينكر ، حيث نبه أبا الأسود ، ويقال أنه- أى الأمام- أخرج صحيفة كتب بها بعض ما كان الناس يلحنون به ، وقسم الكلمة إلى " اسم وفعل وحرف ، والاسم إلى : ظاهر ومضمر وتعاريف بعض الألفاظ مما يرفع أو ينصب أو يجر . . . .[٦]
وعلى أى حال فقد قامت البصرة بالجهد الجهيد فى تطوير النحو وتقعيده بل ربما تعقيده .

١- وردت القصة فى الفهرست صـ٦٦ ومراتب النحويين صـ٨ وننقلها عن الدراسات اللغوية عند العرب- سابق- صـ٣٧ .
٢- الدكتور على عبد الواحد وافى- فقه اللغة- نهضة مصر- القاهرة- د.ت- صـ١٣٢ وهناك من اللغويين من يرون فى التسكين لغة من لغات العرب المقبولة .
٣- أحمد أمين- ضحى الإسلام- جـ٢ ١- صـ٢٨٧ .
٤- الطبقات- صـ١٢ وقد سخر أحد الباحثين من تعبير " حروف الجر والرفع والنصب والجزم" ووضع تعبير" كذا" وحين عدنا للطبقات وجدنا خطأ النقل عند الباحث فى سنة وفاته التى كتبها ٢٣٢ هـ وكذلك فيما اقتبسهاالباحث فى كتابه " الدراسات اللغوية عند العرب" صـ٦٠ .
٥- انظر بن قتيبة فى الشعر والشعراء ٦١٥/٢ وطبقات النحويين والإصابة ومراتب النحويين ومعجم الأدباء إلا أن ابن النديم ينقل فى " الفهرست" عن ثعلب أن عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية " صـ٤٥ .
٦- عن الدراسات اللغوية عند العرب- سابق صـ٦٠ .

- نشأة العلوم الأخرى :-

" وَخَذِيَتْ القُرُومُ فَلَمْ تَمْلُكْ أَنْ تَصُوُلَ"

الجرجانى *

الغرض من الحديث عن نشأة العلوم المتعلقة باللغة العربية- سواء كانت لغويةً أو أدبية- هو مناقشة مدى إفادة العلوم الحديثة على العرب من المتغير العقيدى الذى بدل الأمة ، وغير أحوالها . . . . .

فالمتغير هو القرآن . . الكتاب المعجز البليغ ، وقد ناقشوا مظاهر هذا الإعجاز ، بل كتب الجرجانى كتابه كاملاً فى الرد على آراء المعتزلة فيما يتعلق بإعجاز القرآن الكريم ٠

ومراجعة آراء المعتزلة فى إعجاز القرآن يدل على الزخم الفكرى الرائع والحرية العظيمة التى أتاحها الإسلام لمعتنقيه حيث اختلفت المعتزلة فى نظم القرآن . هل هو معجز أم لا على ثلاثة أقاويل :-

الأول قالت به المعتزلة إلاَّ " النظام" وهشاماً وعباد بن سليمان : تأليف القرآن ونظمه معجزٌ محالٌ وقوعه منهم كاستحالة إحياء الموتى منهم وأنه علمٌ لرسول الله ﷺ . وقال " النظام " الآية والأعجوبة فى القرآن ما فيه من الإخبار عن العيوب ، فأمَّا التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد ، لولا أن الله منعهم بمنع وعجزٍ أحدثهما فيهم وقال الآخران: " لا تقول أن شيئاً من الأعراض يدل على الله سبحانه ولا نقول أن عرضاً يدل على نبوة النبى . . . . حيث زعما أن القرآن أعراض " (١) .

وهكذا نبدأ بربط علوم البلاغة الثلاثة [البيان- البديع- المعانى] بالقرآن الكريم ، وجاء الجاحظ فذكر آراءً ربما يفسرها علو مذهب المعتزلة على عهد المأمون ، وتلمذته فى الكلام على النظام- كما يذكر صاحب ضحى الاسلام (٢) .

فيقول فى المعانى :" المعانى مطروحة يعرفها العجمى والعربى والقروى والبدوى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك " (٣) .

- تعبير " خذيت القروم فلم تملك أن تصول" قاله الجرجانى فى معرض حديثه عن تحدى القرآن للكافرين بأن يأتوا بسورة من مثله ، ومعنى العبارة : عجزت التيران عن مضاجعة النوق" وهو تعبير ذكى فى مثل هذا الحال .

١- أبو الحسن الأشعرى- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين- تحقيق هلموت ريتر- سلسلة الذخائر- عدد٦١- صادر عن هيئة قصور الثقافة- مصر- صـ٢٢٥-٢٢٦ .

٢- جـ ١- صـ٤٠٥ .

٣- هذا الكلام موجود فى كتابى " الحيوان" و" البيان والتبيين" ولا يخفى فكر الجاحظ الموسوعي على القارئ مع بعض الانحياز إلى المعتزلة وانظر القصائد التى أوردها لبشر بن المعتمر وغيره فى " الحيوان" صـ٩٢ .

وأيضاً يكرر أن " المعانى القائمة فى صدور النـاس . . . . يحييهـا ذكرهم لهـا وإخبـارهم عنها " ويصل لتعريف " البيان" بأنه الدلالة الظاهرة على المعنى الخفى " وهو ما مدحه القرآن الكريم ، ويصل ليقول :" ثم اعلم- حفظك الله- أن حكم المعانى خلاف حكم الألفاظ ؛ لأن المعانى مبسوطة- إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية ، وأسماء المعانى مقصودة ومعدودة أ.هـ .

ولذلك ينصح القارئ باختيار المعنى بشروط ، يذكرها فى " رسالة المعلمين" قائلاً :" اختر من المعانى ما لم يكن مستوراً باللفظ المتعقد ، مغرقاً فى الإكثار والتكلف " .

ولذلك يذكر قول خطيب ، رأى الاسكندر ميتاً على سريره فقال :" الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس " [١] .

ويشن الشيخ عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ — حرباً على المعتزلة ويرد عليهم فى كتاب ضخم وهام ألا وهو " دلائل الإعجاز " . وقد نقل لنا الجرجانى آراء معارضيه فى سؤاله عمَّا أعجز فى القرآن :- " أعن دقة معانيه وحسنها وصحتها فى العقول ؟ أم عن ألفاظٍ مثل ألفاظه ؟ ويرد الجرجانى قائلاً :- أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيةٍ ومقاطعها ومجارى ألفاظها ومواقعها . . . . .

" وبهرهم أنهم تأملوه سورةً سورةً ، وعشراً عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا فى الجميع كلمة كلمة ينبوبها مكانها ، ولفظةً ينكر شأنها ، أو يرى أن يرىأن غيرها أصلح هناك أو أشبه ٠٠٠٠حتى خرست الألسن عن أن تدعى وتقول ،،،،،، و" خذيت القروم فلم تملك أن تصول " [٢] .

ورغم الخلاف الهائل الذى وقع بين النقاد فى تفضيل المعنى عن اللفظ أو اللفظ عن المعنى أو محاولات التوفيق ، فالقضية تبدو أبسط ، فلا فصل بين المعنى واللفظ . وإن رأى الجاحظ أن المعانى الملقاةٌ على قارعة الطريق ، فإن الجميع يرون الألفاظ على أرفف الألسنة- إن جاز التعبير- إنما هى ملكة فى التعبير عن معنى مقصود بلفظ مقصود ، بشكل مؤثر فى النفس ، وقد نبه ابن رشيق لهذا الترابط فى " العمدة" فقال أن اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم [٣] . وإذا دقق القارئ فى الأمر جيداً ، فإن غاية السامع هى المعنى الذى يطرب له ، ويؤثر فيه ، ويردده حوله الخاصة ، ذلك أن المعنى محمول باللفظ- فهو وعاؤه ورداؤه بلا انفصال ، ولذلك يتعجب

١- اعتمدت على كتاب " الحيوان" وفقرات من " كتاب فى جريدة" ٦ يناير عام ١٩٩٩م .

٢- دلائل الإعجاز- صـ٣٩ بتصرف يسير .

٣- العمدة جـ١ صـ٨٠ نقلاً عن عبد المتعال الصعيدى- البلاغة العالية- مكتبة الآداب- مصر- ط٢ ١٩٩١م صـ٣٠ .

المرء من رأى " ابن خلدون " فى نسبة صناعة النظم والنثر للألفاظ قائلاً " اعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى ، وإنما المعانى تبع لها وهى أصل "[١] .

وذلك رغم سعى المبدع للفكرة والمعنى ، وما اللفظ إلا وسيلة كالألوان للرسام .

فالنابغة حين ينشد :-

كِلِينى لِهمَ يا أميمة- نَاصبِ * * * وَليلٍ أُقاسيه بطئ الكواكبِ

تطاول حتى قلت ليس بمنقض * * * وليس الذى يرعى النجومَ بآيبِ

المعنى متكامل ومؤثر بلفظٍ بسيطٍ وتصويرٍ أخاذ فالنجوم تسير ولا تجد راعيها يعيدها ليأتى النهار . ورغم أن المعنى مطروق منذ " قفا نبك " .

وقول امرئ القيس :-

فيا لك من ليل كأن نجومه * * * بكل مغار الفتل شدت بيذبل

إذن فلا بد من إمعان الفكر وتنمية روح التذوق لدى السامع ، ثم تبسيط الألفاظ وتعميق المعانى .

ولهذا يبدى الجرجانى انبهاره بقوله تعالى :" وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .هود(٤٤) .

ثم يسأل قائلاً : هل ترى لفظةً منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت ، لأدت من الفصاحة ما تؤديه فى مكانها من الآية ؟

فيضرب مثلاً بلفظ " ابلعي" منفصلاً ومتصلاً ، ثم يقول " ومعلوم أن مبدأ العظمة فى أن نوديت الأرض ثم أمرت ، ثم كان بـ" يا" دون " أى" نحو " يا أيتها الأرض" ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال :" ابلعي الماء " ثم نداء الماء وأمرها بما يخصها ، ثم قيل :" وغيض" الماء فجاء الفعل فى صيغة " فُعِلَ " الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر . . . . " [٢] .

والبلاغة فى أصل معناها البلوغ والانتهاء ، يقول ابن فارس : بلغ : أصل واحد هو الوصول إلى الشيء " [٣] . ثم يعلق ابن فارس منتقلاً من المعنى الحقيقى للمجازى " ثم كانت عندهم لفظة البلاغة التى يمدح بها فصيح اللسان لأن يبلغ ما يريد " [٤] .

والبلاغة كما أرادها قدامة " أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه " [٥]

١- المقدمة- سابق- صـ٤٥ .

٢- دلائل الإعجاز- صـ٤٥-٤٦ باختصار .

٣- ٤ - ٥ راجع ادريس الناقورى : المصطلح النقدى فى " نقد الشعر"- المنشأة العامة للنشر والطبع- ليبيا- ط٢ عام ١٩٨٤م- صــ٧٤- ٨٩-٩٠ .

وقد توسع الجاحظ فى حديثه عن البلاغة ومن يراجع " البيان والتبيين" يرى آراء الفرس والروم والهنود فى البلاغة التى يرى الجاحظ أنها" أمرٌ خاص بالعرب مقصور عليهم ، وإن سواهم من شعوب الأرض كان يجهله جهلاً مطلقاً " جـ٣/ صــ٢١٢ .

ولذلك ، فقد أجهد العلماء العرب أنفسهم فى تحديد أحوال بلاغة اللفظ والمعنى ، حيث يذهب " السكاكى" إلى ارتباط البلاغة بخلو اللفظ من التعقيد وهو ان تكون الكلمة عربية أصيلة وسليمة من التنافر من الحروف وزاد الخطيب القزوينى ضرورة عدم مخالفتها القياس اللغوى .

فكرهت العرب ما روى عن أعرابى سئل عن ناقته فقال :" تركتها ترعى الهعخع " أول قول ابن جحدر :-

حلفت بما أرقلتْ حوله * * * همرجلة خلْقُها شيظمُ

وما شبرقت من تنوفية * * * بها من وحى الجن زيزيزمُ [1] .

وقد جاءت طول الكلمة سبيلاً لثقلها ، وقارن بين قوله تعالى " ليستخلفنهم فى الأرض " النور (٥٥) . أو " فسيكفيكهم الله " البقرة (١٣٧) . فلن تجد ثقلاً .

ونادراً ما فرق اللغويون العرب بين الفصاحة والبلاغة وهذا الأمر مبسوط فى " العمدة" و"الصناعتين " و " دلائل الإعجاز " و" التبيين . . الـخ .

حتى حكى عن ابن المقفع تعريفه للبلاغة أنها " تصوير الحق فى صورة الباطل وتصوير الباطل فى صورة الحق " ولعل هذا التعريف يقودنا لقول النبى ﷺ " إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة " حين وفد الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم فقال الأول :- يا رسول الله ، أنا سيد بن تميم والمطاع فيهم ، والمحبوب منهم ، آخذ لهم الحق ، وأمنعهم عن الظلم ، وهذا يعلم ذلك- يعنى عمراً بن الأهتم . فقال عمرو : أجل يا رسول الله ، إنه لمانع لحوزته ، مطاع فى عشيرته ، شديد العارضة فيهم .

فقال الزِّبرقان : أما والله لقد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدني شرفي فقال عمرو : أما لئن قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا ضيق العطن ، زمن المروءة ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، حديث الغنى . فتبين الكراهة فى وجه رسول الله لاختلاف قوله فقال : يا رسول الله رضيت فقلت أحسن ما علمت ،

١- راجع كتاب البلاغة العالية- سابق- صــ١١ .

وغضبت فقلت أقبح ما علمت . وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الثانية . فقال النبى : " إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة " [١] .

ويود المرء أن يكبح جماح نفسه أمام سيل القصص والأشعار والمواقف الدالة على اهتمام المسلمين بالبلاغة ، وسعيهم إلى نهضة اللغة ، لكننا أمام كنز من الروعة والإبهار الشديدين ، فانظر لتعلق أديبين بكتاب الله عز وجل ، ولطف الإشارة وروعة الفهم وسرعة البديهة حين امتدح المتنبى بعض أعداء صاحب مملكته ، فتواعده الأخير بالقتل فخرج هارباً فكتب له الملك ملاطفاً حتى ينال منه ، وكان كاتب الملك محباً للمتنبى ، ولكن لم يسعه إلا تنفيذ أوامر الملك ، فكتب له فى نهاية الرسالة " إن شاء الله تعالى " وشدد النون ، وقرأه الملك وختمه وأرسله ووصل الخطاب للمتنبى ، فجمع ماله وارتحل ، وسئل عن السبب ، فقال أشار الكاتب بتشديد النون إلى قوله تعالى " إنَّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين " [٢] .

فما أروع هذا الفهم وما أدق الإشارة ، وحين كان يتعلق الأمر بالقرآن الكريم تجد غيرة وحرصاً وخشية على كتاب الله ، حيث يعلل بعضهم رفع " الصابئون " فى قوله تعالى :" إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون " المائدة (٩٦) .

يعللون رفع " الصائبون" وهى معطوفة على اسم إن بوردها فى قوله بشر بن أبى خازم

وإلا فاعلموا أنَّا وأنتم **** بغاة ما بقينا فى شقاق [٣]

وقد اتهم الجرجانى المحتقرين للنحو الزاهدين له بالجهل ، وبنقص التبحر فى العلم حتى إذا علموا أن الفاعل يرفع لم يلزمهم أكثر من ذلك .

وإن كان هناك من يظن أن الإسلام قد أضعف الأدب ، وهذب هذا الخروج المنتظر من الأديب ، وطهر نفسه ، فلا تجد أمرء القيس يزور حُبلى فيلهيها عن رضيعها ولا ترى من أم عمر ثدياً مثل حق العاج رخصاً وما خالس الأعشى رب البيت ولا غافلة ولا اشتهر مثل قوله فى الخمر :-

لا يستفيقون منها وهى راهنة *** إلاَّ بهات وإن علوا وإن نهلوا

١- القصة وردت فى " زهر الألباب" للحصرى والقيروانى وفى العمدة جـ١ صـ١٦٥ وفى كشف الخفاء للعجلونى وفى كتب الصحيح " البخارى وأبى داود والترمذى ومالك وأحمد ونقلناها عن " البلاغة العالية" وفاكهة الصيف وأنيس الضيف" المنسوب لجلال الدين السيوطى- صادراً عن دار ابن سينا بتحقيق محمد إبراهيم سليم- عام ١٩٨٨م- صـ٤٦-٤٧ . ومانع لحوزته أى يحمى ما يملكه ، وشديد العارضة أى قوى البديهة . أما العطن فمعناه المناخ حول المورد وزمن أى واهن .

٢- نقلاً باختصار عن " حلبة الكميت" سابق- صـ٩٥ .

٣- دلائل الإعجاز صـ٣٢ ويرشدنا المحقق إلى سيبويه ٢٩٠/١ وإلى معانى القرآن للفراء ٣١١/١ .

- في نشأة علم البديع :-

"العلماء غرباء لكثرة الجهال "

ابن المعتز

وإن هناك من يظن ذلك ، فليقرأ ما ذكره الأصمعى من وصية الخنساء لأولادها الأربعة حين ذهبوا للقتال فى " القادسية" قائلة :- " يا بنى إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ،ووالله الذى لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو إمرأة واحدة . ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا غيرت نسبكم ، وقد ترون ما أعد الله للمسلمين من الثواب على حرب أعدائه الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (آل عمران ٢٠٠) فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، وحملت ناراً على أوراقها ، فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها . . .. " (١)

وعلى هذا تجد الأثر القرآنى فى البلاغة الجديدة واضحاً ظاهراً وإن طال بنا الحديث فى تعريف البلاغة ومدى ارتباطها بالقرآن الكريم فقد آن لنا أن نشير- فى عجالة شديدة- إلى نشأة علومها الثلاثة وأولها نشأة البديع وقد ظهر المصطلح فى القرآن والسنة وأقوال الصحابة وآراء النقاد ، حتى قصره الجاحظ على العرب " (٢) ولقد توقف الجاحظ أمام آيات القرآن الكريم ، كوقفته أمام قوله تعالى :- " إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً " النساء (١٥)

إذ قال إنها من باب المجاز ويرى فى قوله :- " أكالون للسحت " أنها تشبيه — سورة المائدة أية ٤٢ . ولهذا فقد نص ابن المعتز — مؤسس هذا العلم — على أن الجاحظ هو الذى سمى لون من ألوان البديع الخمسة بهذا الاسم " (٣).

وقد تصادف فى " مجاز القرآن " لأبى عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٨ هـ) والأصمعى المتوفى سنة ٢١١ هـ والمبرد المتوفى ٢٨٥ هـ وأبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ت ٢٩١ هـ) ولغيرهم اسهامات طيبة نبهت ابن المعتز لوضع كتاب " البديع" ، وهو كتيب لا يتجاوز المائة صفحة شاملة الفهارس والتعليقات والمقابلات والمراجع وخلافه وضعه خليفة عباسى ولى الخلافة يوماً وليلة ، ثم مات مقتولاً سنة ٢٩٦ هـ . هو الخليفة أبو العباس عبد الله بن المعتز .

١- الآية من سورة آل عمران رقم ٢٠٠ والخميس هو الجيش المكون من خمسة أقسام والقصة إختصرناها من " فاكهة الصيف" سابق- صـ٦٤-٦٥ .

٢- الرأى للجاحظ فى " البيان والتبيين" وقد عارض الدكتور شوقى ضيف مبرراً أن الجاحظ لم يكن جاداً كل الجد فى رأيه . انظر

البلاغة : تطور وتاريخ — دار المعارف — مصر- ١٩٦٥م صـ٥٦ .

٣- د/ عبد الرازق أبو زيد — علم البديع- المكتبة العلمية- عام ١٩٨٧م- صـ٢٥ .

ويهمنا فى هذا المقام أن تذكر غاية ابن المعتز من مؤلفه ، وهو الانتصار والانحياز إلى البلاغة العربية والبديع الوارد فى كتاب الله تعالى وفى حديث سيدنا رسول الله ﷺ وأحاديث الصحابة والأعراب و" أشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع " فقد عُرف حتى قال ابن المعتز " أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين بشىء من أبواب البديع " أما فضل ابن المعتز فليس إيجاد العلم إنما " جمع فنون البديع ، حيث لم يسبقه إليه أحد ، ثم إن وضوح الهدف كان شفيعاً لابن المعتز فى تقديمه كمؤسس لهذا العلم [٤] . وسنعرض لكتاب البديع لنوضح اعتماده على البلاغة العربية فى تأسيس علم عربى يفسر ويظهر جماليات القرآن الكريم ، وسنكتفى بالفنون الخمسة التى بدأ بها كتابه : الاستعارة- التجنس- المطابقة- رد أعجاز الكلام على ما تقدمها- المذهب الكلامى .

ويبدأ بتعريف الاستعارة بقوله :- " هى استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شئ قد عرف بها " ويضرب أمثلة قرآنية مثل " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة " الإسراء ٢٤ و " اشتعل الرأس شيباً " مريم آية ٤ وغيرها ثم يذكر عيوبها من خلال عدم استساغة الذوق لما ذكره .

ثم يأتى إلى التجنس فيسير على نفس الدرب ونفس الاستشهاد القرآنى وفى المطابقة يذكر قول النبى " إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع " ولكنه يستثنى المذهب الكلامى من الورود فى القرآن الكريم لنسبته إلى التكلف ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً [٢] .

١- كتاب " البديع" صدر لأول مرة عام ١٩٣٥م بتحقيق المستشرق الروسى كراتشقوفيكى فى سبع وسبعين صفحة ، سوى الهوامش والتعليقات التى جاءت بالانجليزية ، وما نقلناه نقلناه عن د. عبد الرازق أبو زيد- علم المعانى- صـ٣٦ وما بعدها . أما ابن المعتز فقد بويع بالخلافة سنة ٢٩٦هـ يوم خلع المقتدر وهو- كما يقول المنوفى- أشعر بنى هاشم على الاطلاق وله كتاب الزهر والرياض وكتاب مفاكهة الإخوان وكتاب الصيد والجوارح و" أشعار الملوك وطبقات الشعراء وديوان شعر . انظر ترجمته فى تاريخ بغداد ١٠/ ٩٥ وتاريخ ابن الأثير ١٤/٨ وانظر الاسحاقى المنوفى- أخبار الأول- صادر من هيئة قصور الثقافة عام ١٩٩٨م — صـ٩٧-٩٨ .

٢- علم المعانى- سابق- صـ٥٠ .

- فى علم المعانى -

ينسب للشيخ عبد القادر الجرجانى علم المعانى ، كما ينسب له علم البيان بكتابيه " دلائل الاعجاز" و" أسرار البلاغة" (١) وسنكتفى بالحديث عن المعانى فقط .

ويشير الشيخ محمود شاكر إلى ملاحظة دقيقة فى تحقيقه للكتاب قائلاً :-

" بدا لى أن عبد القاهر كان يريد أن يؤسس بكتابه هذا علماً جديداً . . . . لكنه . . " كان مشوباً بحمية جارفة لا تعرف الأناة فى التبويب والتقسيم والتصنيف " المقدمة .

والكتاب كما أورد المحقق يدور على رد هذين القولين :

الأول :" إن المعانى لا تتزايد وإنما تتزايد الألفاظ "

الثانى :" إن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلمات ولكن تظهر بالضم على طريقة مخصوصة"

وعلى هذا فالكتاب ينتصر للمعانى على الألفاظ ، وأهم ما سعى الجرجانى هو إثبات إعجاز القرآن الكريم ، حيث حذر المعتزلة من أن مذهبهم فى هذا الشأن " يفضى بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز ، ويبطل التحدى من حيث لا يشعر " ويبدأ الجرجانى بعد الحديث عن الشعر وموقف المصطفى ﷺ منه فى الحديث عن سبب تأليف الكتاب أن " تقر الأمور قرارها وتوضع الأشياء مواضعها" (٢) . وعلم المعانى أساسه اعتبار الفصاحة والبلاغة مصدرهما من النظم وليس من اللفظ . فلا صحة لاعتبار اللفظ فصيحاً أو متمكناً أو مقبولاً أو قلقاً أو نابياً أو مستكرهاً . وذلك أن اللفظ الواحد قد يكون مقبولاً ومكروهاً باختلاف الموضع ، ويضرب الجرجانى مثلاً بقول الصمة القشيرى :-

تلفَّتُ نحو الحيِّ حتى وجدتنى *** وجِعْتُ من الإصْغاءِ ليتاً وأخْدعاً

ويرى لفظ " أخدع" فى موضع حسن ويذكر بيت أبى تمام :-

يا دهر قوم من أخدعيك فقد *** أضججت هذا الأنام من خرقك

حيث يرى لفظ " أخدعيك" فيه ثقل على النفس (٣)

وينبه الجرجانى إلى معنى دقيق يفرق به بين " الحروف المنظومة" و" الكلم المنظوم" حيث أن نظم الحروف هو تواليها فى النطق ، فتذكر حسب وضعها ولا فضل لذاكرها فلو أن واضع اللغة ذكر " ربض" مكان " ضرب" ما أدى ذلك إلى فساد .

١- هو الشيخ الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى- الأديب النحوى الفقيه الشافعى والمتكلم الأشعرى المتوفى سنة ٤٧١ أو ٤٧٤ هـ كما يذكر الشيخ محمود شاكر فى مقدمة " دلائل الاعجاز" والذى إليه يعود الفضل فى وضع علمى البيان والمعانى من خلال كتابى " دلائل الاعجاز" و" أسرار البلاغة" .

٢- دلائل الاعجاز- صـ٣٤ .

٣- السابق صـ٤٦ وأخدع عرق فى العنق .

أما نظم الكلم ، فيقتفى فيه الناظم آثار المعنى .

فهو " نظم" ليس معناه ضم الشيء إلى غيره ، وإنما هو وسيلة لتأدية معنى (١)

فالجرجانى إذن ينتصر للمعاني بمبررات راسية راسخة مؤكدة محافظة على قيمة إعجاز كتاب الله تعالى أما مباحث هذا العلم فأهمها :- الخبر والإنشاء- الذكر والحذف- التقديم والتأخير- التعريف والتنكير- القصر- الفصل والوصل- الإيجاز والإطناب والمساواة . . . . الـخ .

وسنتجاوز عن كل ذلك ونتحدث عن الإيجاز وطبيعته فى العربية ونلمح لصور منه فى القرآن الكريم :- ذلك أن الإيجاز غاية بلاغية لها أهميتها ، وقد أوتى النبى ﷺ مجامع الكلم وكان مما اختص به النبى ، ويستطيع رجل قانون أن يعيد دراسة التشريع كاملاً من خلال تعبير مختصر مثل قول النبى " لا ضرر ولا ضرار " .

وانظر مثلاً لتعبير فقيه عاش مفلوكاً فقيراً ، عرفوا فضله فأطعموه أحسن طعام ، ولكن كان أجله أسبق ، فلما شعر بدنو الموت منه قال متحسراً :- " يا الله . . . حين عشنا متنا " .

أما إيجاز القرآن الكريم ، فبديع أخاذ ، انظر إلى قوله تعالى : " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " سورة الأعراف ١٩٩ .

فهذه الآية كما يشير القزوينى " جمعت مكارم الأخلاق ، وانطوى تحتها كل دقيق وجليل لأن قوله تعالى " خذ العفو " أمر بإصلاح قوة الشهوة ، فإن العفو ضد الجهل . وقوله تعالى " وأمر بالعرف" أى بالمعروف والجميل من الأفعال أما "وأعرض عن الجاهلين" أمر بإصلاح قوة الغضب . . . . .الـــخ . (٢) .

فهذا هو الإيجاز المبين الواضح وهو " التعبير عن المقصود بلفظ أقل منه بحيث لا يقصر عن تأديته ولا يخل ببيانه " (٣) والإيجاز نوعان [إيجاز القصر وإيجاز الحذف]

وقد لاحظ الشيخ عبد المتعال الصعيدى (٤) أن الإيجاز فى القرآن الكريم كان فيما يخاطب به العرب والأعراب [أى أهل اللغة والفصاحة] أما الإطناب ففى مخاطبة بنى اسرائيل وغيرهم . ويستشهد بقوله تعالى :" إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب

١- باختصار وتبسيط من السابق صـــ٤٩ .

٢- الإيضاح- الخطيب- ت محمد محيى الدين عبد الحميد- القاهرة- دزت صـــ١٨٤ .

٣- التعريف ورد فى البلاغة العالية- سابق- صـــ١١٧ .

٤- البلاغة العالية- سابق- صـــ١٢١ .

شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب " الحج (٧٣) .
ويشير إلى أن الآية مما خاطب به الخالق أهل مكة ، قاصداً أنهم المتلقى الأساسى لكتاب الله .
وذلك رغم أن صدر الآية مبدوء بـ " يا أيها الناس ضرب مثلٌ على أيِّ حال ، فقد سبق الصعيدى بقول صاحب " المثل السائر ":" إن الإيجاز للخواص والإطناب مشترك فيه الخاصة والعامة " ، حيث ذهب إلى أن فهم العامة ليس شرطاً معتبراً فى اختيار الكلام " [٢]
وإيجاز الحذف يشترط فيه- وفى غيره- ألا يخل بالمعنى ولا يبعد الفهم ، وأن توجد قرينة تعين المحذوف .
وقد يكون بحذف حرف مثل قوله تعالى : " قالوا تا الله تفتأ تذكر يوسف " سورة يوسف (٨٥) .
فالمراد " لا تفتأ" وقوله فى سورة ص الآية ٣٢ " حتى توارت بالحجاب " أى توارت الشمس .
وقد يحذف المضاف إليه وهو مثل قوله تعالى " وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر" الآية ١٤٢ الأعراف أي " عشر ليال" .
وقد يكون بحذف الصفة أو جواب القسم أو القسم نفسه أو بحذف لو وشرطها وهو كلمة حذف مفرد ، ويبقى الحذف الجملة مثل قوله تعالى :" وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك " الأنفال آية (٨) أى فتأس واصبر.
وأبلغ الحذف يكون بأكثر من جملة كقوله تعالى :" فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا " الإسراء (١٦) أى فأتياهم فأبلغاهم الرسالة فكذبوهما فدمرناهم . . . .
وعلى أى حال فإن قدامى البلاغيين ذكروا ذلك وأفاضوا فيه ، وقد طرح أحد الباحثين الموضوع فى رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الآداب بجامعة المنصورة ، ونال بها الدرجة ثم عاد ودرس الإيجاز فى الدكتوراه . إلا أن أحد المناقشين قد هدم أساس الرسالة حيث رأى أن الاطناب لا يقع فى القرآن [٣] .

١- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير- تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد- طبعة الحلبى — القاهرة- ١٩٣٩م- " نسخة مصورة عن الأصل"- صـ١٩٢ .

٢- الرسالتان مخطوطتان بكلية الآداب جامعة المنصورة ، للباحث الدكتور مختار عطية وقد رأى الدكتور / على أبو زيد أثناء المناقشة أن الإطناب وهو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة- لا يقع فى القرآن الكريم ، حيث لا يجب أن نقول أن قوله تعالى " قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً " مريم (٤) أى كبر عمره . لا يجب أن نقول أن هنا زيادة فإن الله تعالى نزه كتابه عن الزيادة . ويبدوا أن علاقة المناقش بعلوم البلاغة أقل مما يجب . وعلى أى حال . فقد منحوا الباحث امتيازاً فى الرسالتين .

الدراسات اللغوية فى القرآن الكريم

- تطور الدراسات اللغوية العربية-

فى إحدى قاعات كلية الآداب- جامعة المنصورة، نوقشت رسالة دكتوراه فى بدايات شهر سبتمبر ٢٠٠١م للباحث أسامة لطفى وعنوانها " الشعر والشعراء فى بلاط الرشيد" وبينما كان الدكتور زكريا عنانى يناقش الباحث ، طلب منه تلاوة بعض الأبيات التى استشهد بها فى البحث ، وفوجئ الحاضرون بتعليق الدكتور زكريا بأن كل قراءة الباحث خاطئة ، وقال له بالحرف لو قرأت بيتاً صحيحاً سأمنحك الدرجة التى تريدها . مع ملاحظة أن الباحث بعد ساعات سيكون مدرس أدب قديم . وملاحظة أهم أنه حصل على الامتياز رغم فشله فى القراءة ورغم فشله فى إثبات أن أى قصيدة من التى استشهد بها قد قيلت فى بلاط الرشيد- وهو موضوع بحثه- ولم أجد غير ابن المعتز يقول فى " البديع" :" العلماء غرباء لكثرة الجهال" . وقد رأيت ذات يوم الدكتور عبد الواحد علام يلقى ببحث من يده أثناء المناقشة ، وأقسم أنه لولا أقارب الباحث الفقراء الذين لا يريد أن " يكسر خاطرهم" ما منحوه الدرجة . وهى معايير لا تعيب الأساتذة المذكورة أسماؤهم ، ولكنها تشى بالوضع العام المخيف الذى تعيشه لغتنا الحبيبة ، كما تفضح الاعتبارات الواهية غير الموضوعية التى تحكم العمل الأكاديمى فى عالمنا العربى السعيد ، لولا قلة من خلصاء ومبدعين يعملون فى صمت واجتهاد .

وهذه المقدمة التالية ضرورية لمناقشة تطور الدراسات اللغوية عند العرب ، والنظر فى مبررات البحث لديهم ، والاعتبارات التى خضعوا لها .

- الدراسات القرآنية-

وأول ما نلحظه هو توارد التنبيه على الارتباط بين اللغة والقرآن الكريم ، ولا عجب . فإن جمع اللغة كانت تعتمد فى أساسها على القرآن الكريم ، حتى ان الراغب الأصفهانى يرى أن ألفاظ القرآن هى لب ا لكلام وزبدته وواسطته وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء فى أحكامهم وحكمهم [1] . ولو راجع الباحث مقدمات الكتب فى التفسير أو الفقه أو الأصول ، لوجد تأكيداً من صاحب الكتاب على ضرورة امتلاك أدوات الدرس وأولها العربية ، فالثعالبى — مثلاً- يشير إلى أهمية اللغة واصفها بأنها " خير اللغات والألسنة " وهو تعبير خطير وهام ومؤسس لعلم اللغة كله ، ويكمل الثعالبى

١- من مفردات الراغب- نقلاً عن أحمد أمين- ضحى الإسلام- جـ٢- سابق- صـ٢٥٥ .

" الإقبال على تفهمها- يعنى العربية- من الديانة . إذ هى أداة العلم ومفتاح التفقه فى الدين ، وسبب الإصلاح للمعاش والمعاد " [١]

وربما تكون فى حل من اقتباس باقى كلام الثعالبى ، إذ يطالعنا السيوطى فى " المزهر" بكلام أكثر ترتيباً وعلمية قائلاً :" ولا شك أن علم اللغة من الدين ، لأنه من فروض الكفايات ، وبه تعرف معانى ألفاظ القرآن والسنة " [٢]

إن الاهتمام الذى وضعه العلماء المسلمون للبحث اللغوى أرقى من كل اهتمام فى كافة لغات الدنيا ، فانظر تجد باحثاً يسافر من مكان إلى مكان ليبحث عن معنى مفردة ما ، وانظر لدراستهم لألفاظ القرآن وبحثهم عن مشتقات ألفاظه ، كقوله تعالى " هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج" حيث بحثوا- كما يقول أحمد أمين- عن معنى أجاج وقالوا : شديد الملوحة ، وقارنوا بينها وبين أجيج النار.. الــخ

وقد أضاف ابن خلدون لفظ " علم" للغة ، ربما بسبب اعتقاده كما يقول هو- أنه فى زمن صار كل شىء علماً ، فيصف حال أئمة اللسان وقد شمر كثير منهم لذلك " [٣] .

وربما كان أول من شمر- بتعبير ابن خلدون- هوابن عباس رضى الله عنه- إذ ينسب إليه تاليف كتاب " غريب القرآن" ولا تؤكد المصادر القديمة هذه النسبة [٤] .

وإن كان بروكلمان يذكر وجود نسخة منه فى مكتبة برلين قبل الحرب العالمية الثانية جـ٣٣/١ والشك فى نسبته لابن عباس كثير .

على اى حال فقد كان منهج ابن عباس فى الإجابة عن مفردات غريب القرآن هو الاستشهاد بالشعر العربى . وقد جمع الأستاذ الجليل / ابراهيم السامرائى إجابات ابن عباس على نافع بن الأزرق من خلال تحقيقه لمخطوطة حديثة النسخ ، وذلك ببغداد سنة ١٩٦٨م وضمت ما يقرب من مائتين وخمسين لفظة من القرآن الكريم ، فعلى سبيل المثال سئل ابن عباس عن معنى قول الله عز وجل " عن اليمين وعن الشمال عزين " المعارج (٢٧) قال: عزين: حلقُ الرفاق . قال السائل : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ،أما سمعت عبيد بن البرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون إليه حتى *** يكونوا حول منبره عزينا

١- من مقدمة فقه اللغة للثعالبى- صـ٢ نقلاً عن د.عبده الراجحى- فقه اللغة- سابق- صـ٢٥٥ .

٢- عن السابق- صـــ٣٥ .

٣- المقدمة- صـــ٤٠٤ .

٤- يذكر ابن النديم فى الفهرست أن أول كتاب ألف فى تفسير القرآن هو " تنوير المقباس من تفسير ابن عباس" والفرق بين التأليف فى التفسيروالغريب بعيد، وربما كان الكتاب من مرويات تلاميذه ، حيث نقل السيوطى فى " الإتقان " ١٢١/١ كثيراً من أقول ابن عباس فى غريب القرآن مروية عن ابن جرير بن المثنى .

قال نافع : يا ابن عباس : أخبرنى عن قول الله عز وجل " وابتغوا إليه الوسيلة" سورة المائدة (٣٥)
قال : الوسيلة : الحاجة . وذكر قول عنترة العبسى :

إن الرجال لهم إليك وسيلة *** إن يأخذوك تكحَّلى وتخضبى " [١]

وقد تلا هذا الكتاب المذكور لابن عباس المتوفى سنة ٦٨هـ كتاب بنفس العنوان ونفس المنهج لأبى سعيد أبان بن تغلب بن رباح البكرى وذكر ذلك ياقوت الحموى فى معجم الأدباء ومن بعدهما ألف كثيرون ذكروا فى" مراتب النحويين "وفى" تاريخ بغداد" وفى "إنباه الرواه "،حتى نصل لابن قتيبة لأنه أول ما وصلنا ، وقد نشر كتابه " غريب القرآن" محققاً سنة ١٩٥٨م للسيد أحمد صقر . ويبدو أن ابن قتيبة كان واعياً لكتابه حيث امتلك منهجاً علمياً وعقلياً واضحاً ، وقسم كتابه إلى ثلاثة أقسام :

الأول : لتأويل أسماء الله الحسنى وصفاته واشتقاقهما .
الثانى : لتفسير المفردات التى تكررت كثيراً فى القرآن .
الثالث : لتفسير الغريب .
وقد قسم" ابن قتيبة " الجزء الثالث حسب ترتيب الآيات بالمصحف الشريف ، فبدأ بفاتحة الكتاب وانتهى بسورة الناس ، غير أن شرحه قصير مختصر ، فيقول مثلاً :" حتى يأتيك اليقين" الحجر ٩٩ أى الموت " . وتعود أهمية كتاب ابن قتيبة فى دقة المنهج الذى اتبعه ، مما جعله مناراً لمن سار بعده فى هذا الدرب . [٢] . ومن الكتب الهامة التى تلت كتاب ابن قتيبة كان " معانى القرآن" للفراء وأسباب أهمية الكتاب عديدة ، أولها أن الفراء : أبا زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمى- أمير المؤمنين فى النحو- كما أطلقوا عليه ، وتلميذ الكسائى وأعظم علماء النحو الكوفى ، تعلم النحو فى مدرسة البصرة ، لكنها لم تشف غليله ، لأنها لم تكتمل ، فغادر إلى الكوفة وأسس مع الكسائى- على بن حمزة- مدرسة النحو الكوفى ، حيث كانت الكوفة مصدر الدوى الهائل الذى أشار له عمر بن الخطاب قائلاً : " إن لهم دوياً بالقرآن كدوىِّ النحل " .
ورغم ذلك كان لأهل العراق باعهم الطويل فى القياس كمصدر من مصادر المعرفة الدينية واللغوية ، حيث حاولوا تعويض بعدهم عن الحجاز وتعقد حياتهم وعظم المدينة لديهم ، فشاع الرأى بينهم ، كما شاع التزيد فى الحديث ، حتى أن العلامة أحمد أمين ينقل عن مالك تسميته الكوفة " دار الضرب"

---

١. سؤالات نافع بن الأزرق صـ٩ عن محمد حسين آل ياسين- الدرسات اللغوية عند العرب- سابق صـ١٤٨ .

٢. راجع- السابق — صـ١٥٣ .

يعنى دار سك العملة ، ولذلك يقول ابن شهاب "يخرج الحديث عندنا شبراً فيعود فى العراق ذراعاً " [١] .

ونعود للفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ حيث حمل العربية على الألفاظ والمعانى فاستحق التقدمة " أى أنه نظر إلى معنى اللفظ وجعل للمعنى اعتباراً فى الإعراب ، كأن تقول " مات زيدٌ " فلو كان الاعتبار للمعنى لقلنا " مات زيداً " لأنه لم يفعل الموت وإنما فُعِلَ به من قبل ربِّ العالمين . . . الـــخ . [٢]

ولذلك فكتاب " معانى القرآن " كتاب شرع حُمِّل نحواً وكتاب نحواً وكتاب نحو حُلى شرعاً .

يقول عنه " الزبيدى " لم يعمل قبله ولا بعده مثله ، ولم يتهيأ لأحد من الناس جميعاً أن يزيد عليه شيئاً .

ولا شك أن المبالغة تنال حظها فى كلام صاحب " طبقات النحويين واللغويين" ولكن ذلك لا يقلل من أهمية الكتاب ، ذلك أن سبب وضع " معانى القرآن" يبرز فيه الهدف الخالص لخدمة القرآن الكريم ، حيث كان عمر بن بكير من أصحاب الفراء ، كتب إليه قائلاً : إن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن شئ بعد الشيء من القرآن فلا يحضرنى فيه جواب ، فإن رأيت أن تجمع لى أصولاً ، أو تجعل فى ذلك كتاباً أرجع إليه فعلت . . . . " [٣] .

والكتاب دراسة لغوية نحوية لمفردات القرآن الكريم ، غير أنه لا تمر صفحة لا تجد فيها حديثاً عن النحو وذكر قاعدة من قواعده أو شاهد من شواهده وأصل من أصوله ، ورغم تتلمذ الفراء على على بن حمزة الكسائى فقد خالفه كثيراً حتى أن أبا الطيب اللغوى يذكر :" وكان الفراء يخالف على الكسائى فى كثير من مذاهبه ، فأما على مذاهب سيبويه ، فإنه يتعمد خلافه حتى ألقاب الإعراب وتسميته الحروف " [٤] .

ـ ومن أفضل جهود الفراء رؤيته للآيات القرآنية المختلف فى إعرابها ، حيث تجده ينكر ورود اللحن فى قراءات القرآن ، ويرفض أن يخالف الكتاب ، ويفسر إعراب قوله تعالى :" قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى " طه (٦٣) .

يبدأ الفراء فيذكر اختلافات القراء قائلاً :" قد اختلف فيه القراء ، فقال بعضهم : هو لحن ، ولكنَّا

١- ضحى الإسلام- حـ٢- سابق- صـ١٥٢.

٢- انظر إنباه الرواة للقفطى جـ٤ صـ٢ نقلاً عن دراسة فى النحو الكوفى- المختار ديرة- سابق- صـ٦٢ .

٣- راجع الفهرست لابن النديم صـ٩٩ وكذلك فى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى حـ١٤/١٥٠ حيث يذكر مؤلفه قول ابن بريدة " فأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لاملاء المعانى (يعنى كتاب الفراء) فلم نضبط عددهم "

٤- أبو الطيب اللغوى — مراتب النحويين-تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار النهضة مصر- ١٩٧٤- صـ١٤١ .

نمضى عليه لئلا نخالف الكتاب " وواضح أن اللحن الذى يشير إليه الفراء هو قوله تعالى :" إن هذان لساحران " حيث جعل القرآن اسم إن مرفوعاً ، فاللحن عند النحاة جاء نتيجة قياسهم المألوف على النادر ، ولكن" الفراء " تجنب الاستسهال والانزلاق إلى اتهام القارئ باللحن ، ذكر مبرراً بورود ذلك فى أرقى لغات العرب تلك الذى نزل بها القرآن الكريم ، فيروى عن عائشة أنها سئلت عن قوله فى " النساء" " لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنوتيهم أجراً عظيماً " النساء (١٦٢)

وعن قوله فى المائدة " إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون . . . . " المائدة (٦٩)

وعن قوله " إن هذان لساحران " فقالت [أى عائشة] : يا ابن أخى هذا خطأ من الكاتب ، وقرأ أبو عمرو " إن هذين لساحران" واحتج أنه بلغه عن بعض أصحاب محمد أنه قال : " إن فى المصحف لحناً وستقيمه العرب " أ . هـ (١) .

ورغم كل ذلك فإنه يخرجها من جهتين :-

- **أحدهما على لغة بنى الحارث بن كعب ، يجعلون الاثنين فى رفعهما ونصبهما وخفضهما بالألف ، وأنشدنى رجل من الأسد عنهم أى عن بنى الحارث :-**

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى مساغاً لناباه االشجاع لصمما

- **والوجه الآخر أن تقول : وجدت الألف من " هذا" دعامة وليست بلام فعل ، فلما ثنيت زدت عليها نوناً ، ثم تركت الألف ثابتة على حالها لا تزول على كل حال ، كما قالت العرب " الذى " ثم زادوا نوناً تدل على الجماع .**
- **فقالوا :" الذين" فى رفعهم ونصبهم وخفضهم ، كما تركوا هذان فى رفعه ونصبه وخفضه ، وكنانة يقولون " اللذون" أ.هـ (٢) .**

ولقد اختصرنا المثال المذكور ، مادام الهدف قد اتضح ، وظهر منهج الفراء الذى شرح المعنى القرآنى نحوياً ، وأسس لمدرسة الكوفة ، ووضح مصطلحات تميز الكوفيين عن أصحاب البصرة من علماء النحو ، حتى صار للنحو الكوفى أساس ومرجع يعودون إليه بجوار كتب الكسائى وأبى جعفر

١- الفراء- معانى القرآن- تحقيق محمد على النجار وآخرين ط عالم الكتب- بيروت- ١٩٨٣م حـ٢ نقلاً عن كتاب " دراسة فى النحو الكوفى "- سابق- صـ١١٧ وقد زدت فى نص الآيات الكريمة فذكرت الآية كاملة من النساء .

٢- السابق- صـ١١٨ وقد وردت " اللذون" فى شعر بنى تميم كقول شاعرهم : نحن اللذون صبحوا الصباحا انظر د/ابراهيم بركات- الجملة العربية-صـ١٩٢ .

الرؤاسى وثعلب ، بقى أن نشير إلى أن الفراء لم يترك باباً فى النحو إلا وتحدث عنه ، وكان حديثه من خلال تفسيره لكتاب الله الكريم [1] .

ـ دراسات غريب الحديث : ـ

إن كانت الدراسات القرآنية قد بدأت مبكراً بكتاب ابن عباس ، فإنَّ دراسات لغة الحديث النبوى قد تأخرت حتى بدايات القرن الثالث الهجرى ، فذكرت المصادر كتباً للنضر بن شميل ت ٢٠٣هـ ولأبى بكر الحسين بن عياش ت٢٠٤هـ ولأبى عبيدة معمر بن المثنى ت٢١٠هـ وأيضاً أبو عمر الشيبانى وقطرب والفراء والأصمعى غير أن أول ما ورد إلينا ـ نتلمسه بين أيدينا ـ من كتب الحديث فى هذا المجال اللغوى هو كتاب أبى عبيد القاسم بن سلام ٢٢٤هـ .

وقد وضع أبو عبيد كتابه فى أربعين سنة ، فجاء كتاباً موسوعياً جامعاً ، طبع فى أربعة أجزاء ضخمة فى حيدر أباد بتحقيق د.محمد عبد المعين خان فى الفترة من ١٩٦٤ ـ ١٩٦٧م .

وأبو عبيد يتناول اللفظة الغريبة من الحديث ، فيذكر أشهر دلالاتها إن كانت تدل على أكثر من معنى ، ثم يتعرض لاشتقاقها ، ثم يستشهد على تفسيرها بالقرآن الكريم وبالشعر وبالحديث نفسه . وقد استشهد أبو عبيد بشعر لزهير والأخطل وعجاج ومالك بن الريب وغيرهم حتى وقف عند حدود العباسيين ، حتى كان أشد حذراً من أصحابه الكوفيين الذين استشهدوا بالشعراء العباسيين ، حتى قال فيهم صاحب" الوساطة بين التنبى خصومه " :" ولأهل الكوفة رخص لا تكاد توجد لغيرهم من النحويين ، غير أنهم لا يبلغون بها الإهمال للقواعد الكلية " . [2]

ولم يكتف أبو عبيد بالحديث ، بل ضم أقوال الصحابة جميعاً مما عرف لهم أقوال فى مجال درسه ، ثم ختم الجزء الرابع بأقوال منسوبة لمن لا يعرف .

ولم يتخذ أى منهج لترتيب الحديث النبوى الشريف .

وقد مضت الأيام ، وتوقف ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) أمام كتاب أبى عبيد وكان يظنه جامعاً مانعاً ، فوجد .... " أن تركه نحواً مما ذكر أو أكثر ، فتتبعت ما أغفل وفسرته على نحو ما فسر ، بالإسناد لما عرفت إسناده والقطع لما لم أعرفه ..... " [3]

وقد استخدم ابن قتيبة نفس منهج أبى عبيد فى تقسيم الكتاب فى المساند ، فبدأ بأحاديث النبى فالصحابة والتابعين وتابعيهم وأفرد أحاديث النساء فى باب ، وختم الكتاب بأحاديث غير منسوبة .

ومن المهم النظر فى كتاب " إصلاح الغلط" ، والذى يصحح فيه " ابن قتيبة" ما رآه مغلوطاً عند أبى عبيد ، حيث توقف عند ثلاثة وخمسين حديثاً رأى أن أبا عبيد لم يفسرها تفسيراً صحيحاً .

---

١. انظر المدارس النحوية للدكتور شوقى ضيف دار المعارف مصر ١٩٦٨م ومدرسة الكوفة النحوية للدكتور مهدى المخزومى ـ سوريا ١٩٥٨ م.
٢. القاضى الجرجانى ـ الوساطة بين المتنبى وخصومه ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم المكتب العصرية لبنان د.ت صـ٤٦٦ .
٣. غريب الحديث لابن قتيبة حـ١ صـ٥ نقلاً عن : تطور الدراسات اللغوية ـ سابق ـ صـ١٥٨ .

ولكن ذلك لم يمنعه من الثناء على ابن عبيد قائلاً :- " ونذكر الأحاديث التى خالفنا الشيخ أبا عبيد رحمه الله فى تفسيرها ، على قلتها فى جنب صوابه ، وشكرنا ما نفعنا الله به من علمه " [1]

ويذكر الشيخ محمد حسين آل ياسين نموذجاً من خلافهما قائلاً :-

" فى حديثه عليه السلام :" إن قريشاً كانوا يقولون : إن محمداً صنبور قال أبو عبيد :" قال أبو عبيدة: الصنبور : النخلة تخرج من أصل النخلة الأخرى لم تغرس . وقال الأصمعى : الصنبور : النخلة تخرج من أصل النخلة الأخرى لم تغرس. وقال الأصمعى فى الصنبور أعجب إلى من قول أبى عبيدة . . . . "

ويرد ابن قتيبة قائلاً :" تدبرت هذا التفسير فلم أر النخلة إذا دق أسفلها ويبس سعفها أولى بأن تشبه بالفرد الذى لا ولد له ولا أخ ، من النخلة إذا غلظ أسفلها ورطب سعفها . . . إلخ

والواضح أن الصنبور كما ورد فى كتب غريب الحديث هو الأبتر الذى لا عقب له " [2]

وإذا انتقلنا إلى كتب أخرى ، فهناك غريب الحديث للحربى وغريب الحديث للمبرد ت ٢٨٥هـ ومحمد عبد السلام الخشبى ٢٨٦هـ وثعلب ٢٩١هـ وابن كيسان ٢٩٩هـ .

وهى كتب أسهمت فى تطوير الدرس اللغوى إسهاماً ظل أثره فيمن لحقوقهم ، وربما حتى يومنا هذا.

- **لمحات من الدراسات اللغوية العربية :-**

" وبعد فإن العلوم اللغوية صنيعة القرآن وربيته "

د. محمد حسن جبل

أشرنا فى الصفحات السابقة إلى نشأة علوم اللغة وإلى أصالة النحو العربى ثم نظر البحث فى نشأة علوم البلاغة العربية ، ثم عاد للبحث فى نشأة علوم اللغة المرتبطة بالقرآن الكريم والحديث الشريف .

ونتوقف فى لمحة سريعة مع الكتب اللغوية الخالصة عند العرب ، وتطوير وسائل النظر إلى اللغة .

وكما سبق ، فإن الدراسات اللغوية مدينة للقرآن الكريم ، حتى أن أشهر كتب النحو المبكرة ، ألا وهو كتاب " سيبويه" يضم ٤٤٧ آية ، وذلك لوضوح الهدف العام الذى من أجله يكتب ويبحث فخدمة النص القرآنى ومن بعده خدمة اللغة التى تحمل هذا النص الشريف هدف الدراسات اللغوية المبكرة . وقد جاء فى (الإتقان جـ١٧٥/٢) بإخراج البيهقى وغيره عن رسول الله ﷺ :" أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه "

١- الكتاب لم يطبع على حد علم الباحث ، ومنه نسخه مصورة بدار الكتب المصرية ونسخه أخرى فى المكتبة الظاهرية بدمشق ، ونحن ننقل عن " تطور الدراسات اللغوية- سابق- صـ١٦١-١٦٢ .

٢- انظر السابق- صـ١٦٢ .

وكما سبق وذكرنا نصيحة النبى " أرشدوا أخاكم " ويذكر عن الصديق أنه سأل رجلاً سؤالاً فأجاب قائلاً : لا عوفيت ، فقال له أبو بكر : قل لا وعوفيت.

أما باقى الصحابة فجهودهم معروفة مبسوطة فى مراتب النحويين والإتقان وغير ذلك .

وقد كانت رواية القرآن ومعرفة لغاته وأحرفه أول الجهود اللغوية ، حيث حفظ القرآن كله فى حياة النبى أكثر من عشرين صحابياً منهم الخلفاء الأربعة وزيد بن ثابت (٤٥هـ) وأبى بن كعب (٣٢هـ) وعبد الله بن مسعود (٣٢هـ) وأبو الدرداء (٣٢) وأبو موسى الأشعرى (٤٤هـ) وغيرهم وبانتقال القرآن عن هؤلاء الصحابة وتابعيهم ، بدأت إرهاصات العلوم اللغوية كما سبق .

وسنتوقف أمام اثنين من اللغويين العرب ، لنتمثل مناهجهم وتطور درسهم للغة وهدفهم من الدرس اللغوى .

- العين . . . ورجل من الذهب والمسك :-

" أكلت الدنيا بعلم الخليل وهو لا يُشْعر به "

النضر بن شميل

والخليل بن أحمد الفراهيدى علامة بارزة فى تاريخ العلوم اللغوية ، مثلما كان شخصاً فريداً فى سماحته ونقائه ، وعزة نفسه ، وسعيه للعلم ، وتعاليه عن الدنايا والصغائر ، كان يحج سنة ويغزو أخرى . وحينما دعاه سليمان بن على إلى زيارة الأهواز- حين كان واليها- أجابه شعراً :-

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعةٍ * * * وفى غنى غير أنى لست ذا مال

سخى بنفسى أنى لا أرى أحداً * * * يموت هزلا ولا يبقى على حال

والفقر فى النفس لا فى المال نعرفه * * * ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

وكان الخليل صاحب علم فى اللغة والنحو والعروض والموسيقى والرياضة ، وكان شيخاً لسيبويه وعلى بن حمزة الكسائى ومؤرج السدوسى والأصمعى ، وقد قال عنه تلميذه " النضر بن شميل ": " أكلت الدنيا بعلم الخليل وكتبه وهو فى خص لا يشعر به "

وقد عاش عمره (١٠٠-١٧٥هـ) فى سعى متواصل للعلم ، حيث لم ينل سوى طيب الذكر وتقدير التلاميذ ، حتى قال عنه سفيان بن عيينه :" من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك ، فلينظر إلى الخليل بن أحمد " على أى حال ، فالعلم العربى مدين للخليل بن أحمد بالكثير ، فإن اختلفوا حول نسبة كتاب العين إليه- كما سنبين- فإن أحداً لم يشك فى نسبة علم العروض إليه ، حيث نسبوا له مروره بسوق النحاسين وهو يترنم ببيت من الشعر ، فتوافقت حركاته وسكناته مع طرقات الحدادين فأدرك أن موسيقى البيت إنما جاءت من حركات وسكنات منتظمة ، وأخرى ذلك

فى بقية الأنواع ، حتى استوى له العلم كاملاً [1] .
وقد روى الليث بن مظفر الكتاب عن أستاذه الخليل ، لأنه " بارع الأدب ، بصير بالنحو والشعر والغريب " كما أشار ابن المعتز فى طبقاته ، وروى عن الليث ستة من أصحابه . وإنا فى حل من الاطالة فى ذكر شجرة الرواية التى انتهت بابن خير الأشبيلى ، وذلك لنفرغ قليلاً لدراسة نسبة الكتاب إلى مؤلفه . ولم نر مثل هذا الخلاف المخيف فى نسبة كتاب مثلما رأيناه فى " العين"

وسبب الخلاف كان تأخر ظهوره حتى سنة ٢٤٨ هـ أى بعد أكثر من سبعين عاماً من وفاة صاحبه سنة ١٧٥ هـ . وفى الفهرست يقول النديم نقلاً عن أبى بكر بن دريد :" وقع بالبصرة كتاب العين سنة ثمان وأربعين ومائتين ، قدم به وراق من خراسان "[2] .

ولكن الذين يكتفون بإيراد هذه العبارة ، لا يتأملون فى تاليتها :" وكان سمع بهذا الكتاب أنه بخراسان فى خزائن الطاهريين ، حتى قدم به هذا الوراق" أ .هـ .

ويسوقون أيضاً رأى أبى على القالى [ت ٣٥٦هـ] ، الذى أورد إنكار أبى حاتم السجستانى للكتاب لأن أصحاب الخليل أنكروه ، وزعموا عد معرفتهم به مثل النضر بن شميل ، ومؤرخ السدوسى ونصر بن على . . . . إلـــخ [3]

ومضت سنوات طويلة حتى بدأ العالمان الدكتور/مهدى المخزومى والدكتور إبراهيم السامرائى يقدمان الكتاب تباعاً من عام ١٩٨٠م
حتى صدر الجزء الثامن والأخير عام ١٩٨٥م ولم تزل الفهارس تبحث لها عمن يخرجها إلى النور . . . .

١- هذا الحدث من قبيل تفاحة نيوتن التى أوحت له بالجاذبية ، ورغم ذلك فهو حادث عرضى ، ويبدو أن الفكرة قد داهمت الخليل مداهمة ، حيث أعاد قراءة الشعر العربى جميعه فى إطار هذه الفكرة ، فضلاً عن وضعه للتفعيلات وألفاظ علم العروض ذاتها من أوتار وأسباب وفوصل ثم الزحافات والعلل وغير ذلك من المصطلحات العروضية ، فالعروض علم صعب ، حتى أن أديباً كبيراً كالأصمعى قد أيأس الخليل من فهمه للعروض ، حتى طلب الخليل منه أن يقطع قول الشاعر :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه *** وجاوزه إلى ما تستطيع .

وفى ترجمة الخليل تجد مئات الكتب منها " مراتب النحويين " لأبى الطيب اللغوى صـــ٥٤-٧٢ .
وتهذيب اللغة للأزهرى مجلد١ صـــ٤-٥ ، والفهرست لأبن النديم صـــ٦٣-٦٥ .
و" إنباه الرواه " للقفطى مجلد١ صـ٣٧٦ والنجوم الزاهرة لابن تفرى بردى م١ صـــ٣١١ .
وكذلك الصحابى وبغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة وكشف الظنون . . . . الـخ وبالنسبة لـ" العين" فقد طبع أول مرة عام ١٩١٣م بعناية الأب أنستاس الكرملى فى بيروت فى ١٤٤ صفحة منسوباً لليث بن سيار .
ومضت عقود حتى أعاد الدكتور عبد الله درويش هذه البضاعة وردها إلى أهلها ننشر الجزء الأول ١٩٦٧م منسوباً للخليل موضحاً فى المقدمة معالم قضية نسبة الكتاب .

٢- الفهرست- ٦٤ .

٣- راجع المزهر للسيوطى جـ١ صـ٨٤ .

فهو يعترض على " الليث بن المظفر بأنه " مجهول الحال ، غير مشهور فى العلم " وذلك لأنه راوى " العين" . ومن ينظر فى مراتب النحويين وإنباه الرواه ومعجم الأدباء ، سيرى شيئاً من ذكر الليث ، الذى يقول عنه الأزهرى " صاحب الخليل رجلاً صالحاً " ويقول عنه ابن المعتز ما سبق وأشرنا إليه من براعته وبصيرته بالشعر والنحو " [1] .

وقد سبق لباحثين كبار أن أوردوا آراء اللغويين العرب ، وردوا عليها ، وأنكروا على الباحثين القدامى إنكارهم لنسبة " العين" للخليل بن أحمد ، حتى أن لغوياً كبيراً كابن فارس ت ٣٩٥هـ اعتمد فى انكاره على عبارة الخليل فى نهاية المعجم قوله " هذا آخر كلام العرب" حيث رأى أن الخليل كان :" أروع وأتقى لله جل ثناؤه من أن يقول ذلك " [2]

وقد فسر الأزهرى " ت ٣٧٠هـ" مقصد الخليل وغايته من قوله حيث ذكر :-

" وإنما أراد الخليل رحمه الله أن حروف أ- ب- ت- ث عليها مدار جميع كلام العرب ، وإنه لا يخرج شئ منها عنها ، فأراد بما ألف منها معرفة جميع ما يتفرغ منها إلى آخره ، ولم يرد أنه حصل جميع ما لفظوا به من الألفاظ على إختلافها " [3]

فاذا تركنا هذا كله ، ونظرنا إلى علمه ، فكما سبق وقلنا أنه تتلمذ على أمثال أبى عمرو بن العلاء ، الذى قال عن نفسه :" لقد علمت من النحو ما لم يعلمه الأعشى ، وما كتب لما استطاع أن يحمله " [4] . وعلى هذا كان تلميذه الخليل " مفتاح العلوم ومصرفها "-

والعين- كما سنرى- جامع بين متن اللغة وعلوم قواعدها ، وقد صادف الخليل مشكلة أولى تتعلق بالكم وثانية تتعلق بالكيف ، إذا كيف يحصر كلمات اللغة ، ثم كيف يرتبها ، وقد اتخذ لحل الأولى أسلوباً حصرياً رياضياً هو الترتيب الصوتى للحروف ، ووضع قاعدة أن كلمات العربية فى أصولها إما ثنائية أو ثلاثية أو رباعية أو خماسية ، ثم كان حصر الكلمات الثنائية بأخذ الحرف الأول مع ما يليه ثم الحرف الأول مع الثالث ثم الرابع حتى النهاية ، بعدها بأخذ الحرف الثانى مع الثالث فالرابع . . . . . إلــخ .

١- من أعظم ما كتب حول نسبة " العين" للخليل- دراسة محمد حسين آل ياسين- الدراسات اللغوية عند العرب- سابق صـــ٢٢٧- صـ٢٤٤ .
٢- صـ ١٨ من الصاحبى .
٣- جـ١ من تهذيب اللغة صـ٥٣ وقد نقلناه عن " الدراسات اللغوية " سابق- صـــ٢٤١ .
٤- د. محمد حسن جبل- علم اللغة نظرة عربية- مصر عام ١٩٨٣م- صـــ١٦٠ .

ومجموع هذا كله نضربه فى اثنين لنرى المفردات الناتجة من قلب الحروف .

ثم إنه رتب الحروف ترتيباً جديداً هو [ع- ح- هـ- خ- غ]- [ق- ك]

[ج- ش- ض] [ص س ز] [ط د ت] [ظ ث ذ] [ر ل ن] [ف ب م] [و أ ى]- الهمزة (١).

وقد ابتدأ بالحروف الحلقية ثم الهوية ثم الشجرية ثم الأسلية [من أسلة اللسان أى مستدق طرفه] ثم النطعية من نطع الغار الأعلى ثم اللغوية ثم الذلقية ثم الشفوية ثم الهوائية .

ثم قرر الخليل أن كلام العرب مبنى على أربعة أصناف (ثنائى و ثلاثى و رباعى و وخماسى) ثم نظر فى الأبنية ، فقسمها إلى الثنائى الصحيح مثل زلْ وإن شدد ثانيهما فكانا زلّ (بتشديد اللاَّم) أو كررا فكانا زلزل ، حيث أن الأصل فى جميع هذه الصور حرفان هما الزاى واللاَّم . وهناك الثلاثى الصحيح والثلاثى المعتل والثلاثى اللفيف ، وهو ما كان من حرف صحيح واحد وحرف علة مثل روى .

وهناك الرباعى الصحيح والخماسى الصحيح ومثلهما المعتلان .

وقد التزم هذه الأبنية بهذا الترتيب فى الكتاب سوى الرباعى والخماسى المعتلين . ثم كانت فكرة التقليب ، فاكتشف أن الكلمات الثنائية تنصرف إلى وجهين مثل دق ، قد والكلمات الثلاثية تنصرف إلى ستة أوجهٍ مثل [ض- ر- ب] تكون [ضرب- برض- ربض- بضر- ضبر- رضب] .

أما الرباعى من الكلمات فينصرف إلى أربعة وعشرين وجهاً والخماسى إلى مائة وعشرين وجهاً . ومن كل ذلك القليل المستعمل والكثير المتروك (٢) .

وقد احتوى " العين" على آراء صوتية ونحوية وصرفية ، قل أن تجدها فى مؤلف معاصر له ولولا سعى البحث للاختصار لتحدثنا عن جوانب عبقرية دراسة الخليل ، ومدى بصيرته باللغة ، وإطالة النظر فيها ، ودقة الفهم ، وإخلاص الأمر .

وقد تبع كتاب العين سيلٌ من الكتب فى الرد عليه ، أو الاتباع له ، أولها لمؤرخ السدوسى ١٩٥هـ ثم لنصر بن على ثم للنضر بن شميل ت ٢٠٣هـ وهم من تلاميذه . وهناك " الاستدراك على الخليل" لأبى تراب اللغوى وكتاب " الرد على الخليل وإصلاح ما فى كتاب العين من الغلط والمحال " للمفضل بن سلمة ت ٣٠٠هـ .

٥- الترتيب ورد فى الجزء الأول المطبوع من العين صــ٥٢ وقد أورده أحمد أمين فى ضحاه صــ٢٦٧ فلم يذكر الهمزة . وفى المجموعة السادسة ذكر الذال قبل الثاء .

٦- ٨ أجزاء بتحقيق الدكتور مهدى المخزومى والدكتور إبراهيم السامرائى- دار الرشيد بالعراق- من عام ١٩٨٠م حتى ١٩٨٥م وقد اعتمدنا على نسخة بكلية الآداب جامعة النصورة- قسم الدراسات العليا ، وذلك لأسباب خاصة .

وهناك عشرات الكتب الأخرى ولم يصلنا منها محققاً سوى (مختصر العين) للزبيدى.

وقد اتبع نهج الخليل كثيرون كابن دريد فى " الجمهرة" وأبى على القالى فى " البارع" والأزهرى فى تهذيب اللغة وابن سيده فى " المحكم" والصاحب بن عباد فى " المحيط فى اللغة" .

وقد نظر الأستاذ أحمد أمين لجملة عيوب فى " العين" نجملها فى :-

صعوبة الأخذ منه لصعوبة ترتيبه ولاستخدامه نظام التقليب ولوقوع التصحيف فيه مثل " عسا الليل ، أظلم وصحتها غسا وأيضاً : ضبأت المرأة أى كثر ولدها والصواب ضنأت " (١) .

وهى كلها عيوب فى الاستخدام لا فى الوضع ، فجهد الخليل نادر أن يتكرر ، وسبقه واضح معروف للعيان، أليس هو رجل من الذهب والمسك ؟

١- ضحى الإسلام- سابق- صـ٢٧٠ .

خصائص ابن جنى بين الاعتزال والدرس اللغوى :-

كتاب " الخصائص" صورة مذهلة من صور التطور الذى أصاب الدرس اللغوى العربى ، ذلك أن الكتاب خرج فى عصر بتعبير " ابن خلدون" صار كل شئ فيه علماً وقد اقترن العلم الدينى بالدنيوى فى هذا العصر فى تلاحم مذهل ممتع ، فابن جنى على سبيل المثال كان معتزلياً ، وقد أثر ذلك فى عمله اللغوى كثيراً بل يبدأ كتابه فى المقدمة بقوله :- الحمد لله العدل القديم ، وصلى الله على صفوته محمد وآله المنتخبين . "[١]

والعدل صفة من الصفات التى يركز عليها المعتزلة ، حتى أنهم عرفوا بالعدلية ، فالعدل أحد أصولهم الخمسة . وقد ساهم المعتزليون فى تطور الفكر العربى ، وظهور الجدل والتفكير الفلسفى وقد ساهموا فى الفكر اللغوى ، فأشاروا إلى إشارات مضيئة ، منها إشارتهم للعلاقة بين الواقع الحى والمسمى اللفظى ، حيث رأوا أن "أهل اللغة سموا بالقول شئ كل ما أمكنهم أن يذكروه ويخبروا عنه ، وما سمى به الشيء للتفرقة بينه وبين أجناس أخر ، كالقول لون وما أشبه ، فهو مسمى بذلك قبل كونه " [٢] .

وقد كان ابن جنى أبو الفتح عثمان الرومى الأب الأزدى الولاء- كان كثير المشايخ ، لايخلو من إسناد عال وفقيه مذكور " كما يذكر المقدسى فى أحسن التقاسيم ، عاش عمراً مديداً زاد على الثمانيين ، منهم نصف عمره فى صحبة شيخه وأستاذه أبى على الفارس ، وقد صنع منه أحسن عالم لغة فى تاريخ العربية ، حتى أن ابن جنى نفسه يقرر بأنه " لولا أبو على لكان عن هذا الشأن بمعزل ، وبأمر سواه على شغل " [٣] .

وقد سبق وأشار أستاذنا الدكتور/ عبده الراجحى إلى تأثير مذهب الاعتزال على كتب ابن جنى- وله أكثر من خمسين كتاباً لم يطبع منهم إلا "الخصائص" و"المحتسب "وأقل القليل . ويورد الدكتور الراجحى نصاً طويلاً من كتاب كان مخطوطاً وقت تأليف الكتاب منذ أكثر من ربع قرن- يقول ابن جنى تعليقاً على القراءة الشاذة " قال عذابى أصيب به من أساء" يعلق " القراءة أشد إفصاحاً بالعدل من القراءة الفاشية [المشهورة والمنتشرة] التى هى " من أشاء " لأن العذاب فى القراءة

١- الخصائص- تحقيق محمد على النجار- دار الكتب- مصر- ١٩٥٢م- المقدمة .

٢- أنظر- مقالات الإسلاميين وإختلاف المصلين- لأبى الحسن على بن اسماعيل الأشعرى بتحقيق- هلموت ريتر- س الذخائر- مصر- عام ٢٠٠٠م- صـ١٦١

٣- انظر مقدمة الخصائص التى كتبها المحقق- صـ٦٠ .

الشاذة مذكور علة الاستحقاق له ، وهو الإساءة ، والقراءة الفاشية ، لا يتناول من ظاهرها علة إصابة العذاب له " [١] .

وقد عرج المعتزلة على قضايا جدلية فقهية لغوية ، تجد أثراً لها فى كتب الجاحظ وفى كتاب " الخصائص" . حيث ناقشوا طبيعة القراءة واختلافها عن الكلام حيث زعمت فرقة من المعتزلة أن القراءة كلام ؛ لأن القارىء يلحن فى قراءته وليس يجوز اللحن إلا فى الكلام . فى حين رأت فرقة أخرى أن القراءة صوت والكلام حروف ، والصوت غير الحروف .

وتوسعوا للنظر فى وجود الكلام مع الكتابة أم لا [٢] .

وقد نبه شيخنا محمد أبى زهرة إلى الأصول الخمسة لكى يستحق المؤمن لقب المعتزلى " التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإذا جمع هذه الأصول فهو معتزلى " [٣] .

وهم يعتمدون على منطق الفلاسفة- كما يشير المقريزى ، وهذا أمر واضح فى دراساتهم وجدلهم وأفكارهم .

ومثلما رأينا من خلاف المعتزلة فى الفرق بين الكلام والقول والقراءة ، نجد ابن جنى يعقد باباً عنوانه " هذا باب القول على الفصل بين الكلام والقول " وواضح مقدار الحكمة واستخدام منطق الفلاسفة الذى سبق الإشارة إليه عند المعتزلة ، فيقول :" إن معنى (ق و ل)- أين وجدت وكيف وقعت- من تقديم بعض حروفها على بعض ، وتأخره عنه ، إنما هو للخفوف والحركة، وجهات تراكيبها الست مستعمله كلها وهى (ق و ل)- (ق ل و) (و ق ل)- (و ل ق)- (ل ق و)- (ل و ق) .

فـ (ق ل و) هو حمار الوحش لخفته وإسراعه .

و (و ق ل) الوعل وذلك لحركته .

و (و ل ق) قالوا ولق تلق إذا أسرع .

و(ل و ق) جاء فى الحديث (لا آكل من الطعام إلا ما لوّق لى) أى خدم وعمل فيه بسرعة .

و(ل ق و) للعقاب لخفتها وسرعة طيرانها فهى (لقوة) .

١- د/ عبده الراجحى- فقه اللغة فى الكتب العربية- سابق- صـــ١٩٠ .

٢- مقالات الإسلاميين- سابق- صـــ١٩٤

٣- الإمام أبو زهرة- تاريخ المذاهب الإسلامية- دار الكاتب العربى- مصر- د.ت- صـــ١١٩ .

وبعد طول تعليق يقول " وعلى أنك إن أنعمت النظر ولا طفته ، وتركت الضجر وتحاميته ، لم تكد تعدم قرب بعض من بعض . . . . . " [١] .

ويستخدم أبو الفتح نفس الأسلوب مع (ك ل م) فيشير إلى خمسة أصول للحروف المكونة للفظ (كلم) .

الأولى كلم للجرح والثانى كمل أى صار غير ناقص والثالث (لكم) أى ضرب والرابع (مكل) أى قل ماؤه وهى صفة للبئر .

الخامس ملك : وملك العجين إذا نعمه فى عجنه .

ويشير إلى الغاية من هذا التأصيل الأيتمولوجى (اللغوى) للفظين .

" ليرى منه غور هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، ويعجب من وسيع مذاهبها ، وبديع ما أمد به واضعها ومبتدئها " [٢]

وتبدو ملامح الفكر المعتزلى فى تمكين سلطة العقل من الدرس اللغوى ، وربما لا تغادر الحقيقة إذا قلنا إن المبدأ قد أفاد الدرس اللغوى أكثر ما أفاد الدرس الدينى حيث أسلم الأمور الدينية إلى باب واسع فى الجدل الذى سبق ونهى الناس عنه ، لكنهم عابوا على " كلاسيكية" الفكر السلفى بتعبيرنا الحديث ، وبالغ الجاحظ- وهو من أئمة المعتزلة- فى الحرب على أهل الحديث ، فرأى أن " أصحاب الحديث هم العوام ، هم الذين يقلدون ، ولا يحصلون ولا يتغيرون ، والتقليد مرغوب عنه فى حجة العقل منهى عنه فى القرآن " [٣] .

ولا شك أن حكم الجاحظ كان قاسياً شديد اللهجة ، وربما كان تأثير الفلسفات اليونانية واضحاً فى المعتزلة الذين كانوا أسرع من " أسلم" الفلسفة اليونانية ، فصبغوا الفلسفة صبغة إسلامية بتعبير أحمد أمين [٤] الذى يبرر التحول فى أساليب الدعوة من بساطة الأسلوب إلى غيره بسبب أن " أهل الديانات الأخرى إنما يدعون إلى دينهم بالعقل والمنطق ، ويرد عليهم بالعقل والمنطق ، حيث جاء أرباب الديانات الأخرى فى العصر العباسى يريدون أدلة عقلية مؤسسة على منطق أرسطو ،فيها مقدمة صغرى وكبرى ، مستوفيان للشروط ٠

وتأثر تفسير القرآن وتفسير الحديث بهذا الأثر الفلسفى ، وهذه ظاهرة جديدة فى العصر العباسى

١- خصائص ابن جنى- ملحق كتاب فقه اللغة فى الكتب العربية- سابق- صـ١٩٦ بتصرف.

٢- السابق- صـ٢٠١ .

٣- الفصول المختارة للجاحظ- نقلاً عن تاريخ المذاهب الإسلامية- سابق- صـ١٢٨ .

٤- فجر الإسلام- سابق- صـ٢٩٩ .

وإن كانت نتيجة طبيعية لحياة الناس وسيرهم العقلى " [1] .

بقى أن نذكر اعتراف المعتزلة بسلطة العقل ، وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، وقد اعتبروا " العقل" أصل من الأصول المعتزلية ، ولا شك أن العقل قد طور الدرس اللغوى ، بل قربه من الدرس الحالى للغة .

فتعريف ابن جنى للغة بأنها" أصوات يعبر بها كل قوم عن أغرضهم " وتعليقه " هذا حدها " تعبير يشير لمعارفه المنطقية . . .

فقد نبه ابن جنى للمعيار الاجتماعي فى اللغة باعتبارها تخص كل قوم ، ومن هنا جاء ما سمى حديثاً " علم اللغة الإجتماعى " . كما عبر " ابن جنى " عن الطبيعة الصوتية للغة ، بل أفراد أول كتاب لدراسة الصوت اللغوى فى العربية هو " فى سر الصناعة" حدد فيه مخارج الحروف وصفاتها . وإن كان الخليل قد أفاض فى إظهار المخارج للحروف وكذلك تلميذه سيبويه فى نهاية " الكتاب" فإن ابن جنى قد التفت إلى جهاز النطق الذى شبهه بمزمار له ثقوب ، لكل ثقب صوت خاص.

كما أشار إلى الغاية من اللغة وهى " التعبير عن الأغراض" ولا شك أن هذا التعريف شديد الاختصار قد كان سباقاً وذكياً وعقلانياً فى جمعه بين كل جوانب اللغة كما جاء فى علم اللغة الحديث.

وكما سبق وأشرنا إلى تفصيل " ابن جنى " للعلاقة بين القول والكلام وهو قول أفاض فيه علم اللغة الحديث ، بل سربله برداء من الكلمات البراقة الصعبة ، رغم أن كل جهود " دى سوسير" و" تشومسكى" لم تزد عما جاء به " ابن جنى" فى هذه النقطة تحديداً ، وبين يدينا كتاب " رند شبلز- علم اللغة والدراسات الأدبية- نقل منه قوله :-

" لقد أصبح من المألوف فى علم اللغة الحديث توضيح اختلاف نظام اللغة عن الاستعمال اللغوى ، حيث يحشد نظام اللغة قوائم من الوحدات اللغوية والتراكيب ، وعناصر الثروة اللغوية بوظائفها الافتراضية ومعانيها من مستوى الكلام ، حيث يستعمل المتكلمون من القوائم ما يختارونه ثم يحققونه فى النشاط الفعلى (انظر دى سوسير وانظر تشومسكى) أ.هـ [2] .

١- ضحى الإسلام- جـ٢- سابق- صـ٨-٩ بتصرف يسير

٢- برند شبلز- علم اللغة والدراسات الأدبية- ترجمة د. محمود جاد الرب- الدار الفنية للطباعة- عام ١٩٨٧م-صـ٣٩ .

ولذلك فاعتبار " ابن جنى" أن الكلام" لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه ثم تعبيره الهام (وهو ما يسميه النحويون الجمل) . ثم ذكره أن القول فأصله كل لفظ مذل به اللسان تاماً أو ناقصاً .

هذا الكلام فيه إدراك جيد لماهية النحو وميدانه ، حيث هو دراسة للجملة ولذلك فتعريف " ابن جنى" للنحو جاء تعريفاً شاملاً لعلمى النحو والصرف ، حيث يعرف النحو بأنه " انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره ، كالتثنية ، والجمع والتحضير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ، ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها فى الفصاحة ، فينطق بها ، وإن لم يكن منهم ، وإن شذ بعضهم ردُّ به إليها " (٢) .

ورؤية " ابن جنى" رؤية واسعة ، وقد اختار اسماً دقيقاً لكتابه ، حيث لم يختر ما يشير إلى اللغة مثلاً مثلما فعل معاصرة ابن فارس أبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥هـ مختاراً لكتابه اسم " الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها " ورغم هذا العنوان الضخم ، فقد كان " ابن جنى" أقرب إلى وضع منهج لدرس اللغة من سابقيه ومعاصريه ، فاختار عنواناً يصلح لاعتبار ذلك قوانين عامة تنتظم العربية كما يرى الدكتور الراجحى (٣) .

وكما سبق، فإن ابن جنى قد استخدم الحكمة الفلسفية والفكر الثاقب المتغلغل فى ثنايا الواقع اللغوى الذى يبحثه ، وأشرنا إلى دور المذهب المعتزلى فى فكره ولعنا نشير إلى الموضوعات التى بحثها كما ذكرها أستاذنا الجليل عبده الراجحى :-

١- جوانب تتضمن قضايا عامة فى حياة اللغة وتطورها من نحو تعريف اللغة ونشأتها وتفرعها إلى لهجات وتطورها . . . . الـخ .
٢- جوانب تتضمن منهج البحث فى اللغة من مثل حجية اللغة ، وطريقة جمعها وتصنيفها ووضع التعاريف لها وتعليل الظواهر اللغوية . . . الـخ .
٣- جوانب تشمل مستويات الدراسة اللغوية من صوتية وصرفية ونحوية ودلالية ، وإن كان ابن جنى لا يقدم ربطاً واضحاً بين هذه المستويات " (٤) .

وعلى هذا فكتاب " ابن جنى" يقدم درساً متميزاً فى " علم اللغة" لأنه يدرس العربية بمنهج لا يصلح لسوى العربية ، وهو يتخذ منهجاً علمياً ليصل إلى قوانين عامة أو " خصائص" عامة للغة.

١- الخصائص ٣٤/١ .
٢- فقه اللغة فى الكتب العربية- سابق- صـ٤١ .
٣- السابق- صـ٥٣ .

ـ آراء ابن جنى فى ميزان غربى :-

يكفى أن نتوقف مع رأيين من آراء ابن جنى أولهما تعريفه للغة باعتبارها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "كما سبق وحللناه ، وإذا عدنا لتعريف " لغة" فى دائرة المعارف البريطانية مادة (Language) تقول " إن اللغة يمكن تحديدها بأنها نظام من الرموز الصوتية "

وفى دائرة المعارف الأمريكية " نظام من العلاقات الصوتية الاصطلاحية " ويقول يسرسن إن اللغة ينظر إليها " عن طريق الفم والأذن ، وليسعن طريق القلم والعين" (١) حيث اشترط يسبرسن إضافة قيد النطق الفعلى أى الناحية الصوتية .

ولا يخرج رأى دى سوسير ت ١٩١٣م عما عبر عنه ابن جنى وقد أخرج علماء اللغة الغربيين الكتابة عن حيز النطق واللغة ، حيث الكتابة " نظام من الاتصال ذو علاقة خاصة باللغة المنطوقة فى أنها تعتمد عليها " (٢)

ولسنا فى سباق بين علم عربى وعلم غربى ، فإن فضل العلم على البشرية واحدٌ سواء ذكره ابن جنى أو ذكره دى سوسير وفندريس .

غير أن منطق العدل يأبى أن يسلب من أهل أمتنا فضل أسلافهم ، غير كنون إلى الاستسلام للعلم الغربى والغناء الغربى والرداء الغربى ، حيث تمحى الهوية الإسلامية .

وقد ساهم العرب حقاً ، لا من باب الفخر باطلاً ، وإذا قدر القارئ أن يطلع على " الخصائص" ويتابع ما يكتب فى الغرب ، سيجد عجباً . . . . .

فقد بكرَّ " ابن جنى" فى اكتشاف الوجود الخالص للفظ بعيداً عن وجود ما يدل عليه ، فقد أشار لترميز اللغة بشكل واضح ، وهو ما عبر عنه بقوله أن اللفظ " يغنى بذكره عن إحضار (الشيء) إلى مرآة العين " (٣) .

وهذه الفكرة الرائدة هى نفسها ما أشار له الأستاذ فارتبورج من أن " كل مجموعة معينة من الأصوات يقابلها حالة وعى أو إدراك خاصة ، فسلسلة الأصوات التى تكون الكلمة الفرنسية arbreأى شجرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً فى مجال استعمالها باللغة الفرنسية بتمثيلها " arbre"

١ـ العبـــارات نقلها الدكتور عـــبده الراجحى عـــن دائرتى المعارف البريطانية والأمـــريكية وكتاب" اللغة" لـــ – jespersen فقه اللغة فى الكتب العربية- سابق- صـــ٦١ .

٢- كتاب John Caroll عنوانه " اللغة والفكر" وقد أوردنا ذلك عن السابق صـ٦٢ .

٣- ابن جنى- الخصائص- جـ١ صـــ٤٤ ويجب الإشارة أن ذلك فى معرض حديثه عن طبيعة اللغة وأصلها وهل إلهام أم اصطلاح ، وبدأ ما نقلناه بقوله :" قالوا . . . "

وهذا الارتباط قد يبدأ من الكلمة الى التمثيل ؛ وقد يبدأ العكس [1] .

وقد سبق وقلنا ما لأبى الفتح من سبق ، وقد أشار لقضية العلاقة بين اللفظ وما يدل عليه ، أى العلاقة بين الرمز وما يرمز له ، حيث آمن ابن جنى بتوفر علاقة أكيدة بين ألفاظ ومعانيها ، بل بين ألفاظ وأوزانها .

ووضع باباً كاملاً فى إمساس الألفاظ أشباه المعانى .

بدأه بالإشارة لسبق الخليل ثم سيبويه له فى هذا الأمر ، ثم تعبيره الهام " وتلقته الجماعة بالقبول له ، والاعتراف بصحته "

والفكر الدينى واضح فى عمل ابن جنى ، فقد اطمأن للأمر بعد حدوث " الإجماع" من أهل اللغة ، كما سبق وعطل رأيه فى توقيف اللغة أو عدمه حين وصله رأى مفاده أن الله علم آدم الأسماء بكل اللغات ، وبها تحدثوا هو وولده ، ثم تفرق ولده ، فعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات . . . .

ثم يعلق " ابن جنى" —" وإذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا ، وجب تلقيه باعتقاده والإنطواء على القول به "

ولذلك ينقل عن الخليل فى مسألة " إمساس الألفاظ أشباه المعانى "

قوله " قال الخليل : كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومداً فقالوا : صرَّ ، وتوهموا فى صوت البازى تقطيعاً فقالوا : صرصر " أ .هـ .

ثم ينقل عن سيبويه ، ثم يسير لأشياء كثيرة وجدها ، مثل المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير ، نحو الزعزعة والقلقلة والصلصلة .

ولذلك فإن مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث باب عظيم ، فمن ذلك قولهم : خضم وقضم . فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء ، وما كان نحوهما . والقضم للصلب اليابس ، فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب ، والقاف لصلابتها اليابس " أ.هـ .

وقد مضت قرون طويلة ، حتى يأتى اللغويون الغربيون ، فيقسمون الأصوات إلى " صوت احتكاكي" " FRICATIVE" وصوت انفجاري أو Plosive [2] .

١- انظر Wartbury عن الدكتور محمود السعران : علم اللغة- دارالمعارف- مصر- عام ١٩٦٢م- صـ٧٦-٧٧- هامش الصفحتين .

٢- د. محمود السعران- علم اللغة- سابق- صـ٩٢ .

وقد توسع ابن جنى وأفاض فى شرح العلاقة التى رآها بين اللفظ ومدلوله مما فتح باباً واسعاً- فيما بعد للمناقشة [1] .

١- يرى اللغويون- بوجه عام أن العلاقة بين اللفظ ومدلوله ليس لها أساس من التقارب ، فمثلاً كلمة The man أو L'homme أو der Mann أو " الرجل" هذه الكلمات بمعنى الرجل فى الإنجليزية والفرنسية والألمانية ليس بأصواتها ما يدل على تناسب . كذلك فتعبير مثل " أنا جائع" يكون بالانجليزية I am hungry والفرنسية J'ai fain وفى الألمانية Ep hungert mich وليس بهذه المفردات والأصوات ما يدل على الجوع . انظر

Edward Sapir- Language : newyork 1921

عن د. عبده الراجحى- سابق- صـ٦٨-٦٩ .

المبحث الثالث :-

كيف ننهض بالعربية [نطقاً وكتابة] ..محاولات للإجابة . . . . ؟!

" ونكاد نزعم أن دروس العربية- فى مظانها الأصلية لم

يتحقق فى عصرنا هذا على ما ينبغى "

د. عبده الراجحى

فى مسألة اللهجات :-

هل من أمل فى انحسار المد اللهجى فى الوطن العربى ؟

سؤال ليس من السهل الإجابة عليه ، ربما لأن النظر إلى مآسى الواقع يحجب الكثير من الآمال ، ولكن لابد من سعى للنهوض باللغة ، حتى وسط خرائب اللهجات المغرقة فى المحلية ، وبوسع أى منا أن يفتح قناة عربية ويحاول فهم اللهجة الليبية مثلاً أو العمانية أو العراقية أو غير ذلك . . . .

مع الأخذ فى الاعتبار أن الإعلاميين يحاولون استخدام لغة متوسطة بين الفصحى والعامية .

ورغم التاريخ المخزى للدعوات للعامية عبر المقتطف وولكسون وويلمور واسكندر المعلوف وعبد العزيز فهمى وغيرهم ، فإن الدعوة قد ازدادت شراسة كلما ازداد فشلها ، وقد أعد الدكتور فيصل القاسم حلقة عن العامية بين الأقطار العربية ، استضاف فيها الأديب السورى " نصر الدين البحرة" داعياً للفصحى والأديب اللبنانى رفيق روحانة متشنجاً للعامية ، ومن العجيب أن تجد لدى الأديب اللبنانى روحانة- سبعة عشر كتاباً ، لا أدرى فى أى موضوع هى ، ولكنها جميعاً بالفصحى كما أكد بنفسه ، غير أننى لم أسمع بهذا الأديب قبل أو بعد هذه الحلقة (1) .

فماذا يرى هذا الأديب . . . ؟!

أشار ضمن ما أشار- إلى ديانته المسيحية ، لكنه أردف ذلك بقوله " أحب كل مسلم فى الكون" وقبل أن يترك فرصة للسعادة لنا أكمل بثبات عجيب " وأحب كل كافر فى الكون " . . . . . وتخرج من هذه الصدمة الإنسانية الحضارية إلى صدمة أكثر خطورة ، حيث يصف العربية بأنها " لغة مهجورة تضر باللسان وتضر بالعقل " ، ثم يخاطب الأديب اللبنانى الأديب الضيف الآخر قائلاً له :" لا تخف من الزعماء العرب ، فلا أحد منهم يعرف العربية " .

ورغم التجنى الهائل على حكام الوطن العربى ، ومنهم رجال فصحاء بلغاء فإننا لا ننحدر إلى هذا

١ - الحلقة أذيعت يوم ٢٠٠١/٨/٢٨م بقناة الجزيرة القطرية من خلال برنامج " الاتجاه المعاكس"

والبرنامج مسجل على اسطوانات C.D وموجودة لمن أرادها .

المنحدر الساذج ، ولا نكمل آراءه فهى مجرد ترديد لأفكار قديمة يحاول الربط من خلالها بين سوء حال التعليم فى الوطن العربى وبين استخدام لغة غير مستخدمة فى الواقع ، ويدعو للتدريس عموماً بالعامية ، لكى يكسر الحاجز بين الواقع والدرس . . . .

ولم يشر سيادته إلى أى عامية يشير هل عامية مصر أم تونس أم الإمارات أم لبنان ؟ وإذا كانت عامية لبنان فهل هى العامية الزحلية أو الشويرية أو الكسروانية أو الطرابلسية أو غيرها من العاميات المنشرة فى مناطق لبنان . . . .

وقد ادَّعى الكاتب أن العامية اختصار شديد للوحدات الصوتية ، وكرر ما سبق أن قاله آخرون ، ينقله لنا الدكتور/ جبرائيل سليمان جبور عن سيدة لم يسمها ، قائلة له :- " إن العامية توفر نصف الوقت عادة على مستخدميها ، وقالت لنأخذ جملة عادية [١٢متراً] هى أربع مقاطع فى العامية اللبنانية وتمثل ثلث مل تمثله الكلمات نفسها بالفصحى ، وهذا يعنى أن كتاباً من مئة صفحة يكون من مئتى صفحة لو كتب بالفصحى . . . فكم نوفر على أنفسنا لو كتبنا بالعامية ولو اعتمدنا لغة حية " [١] .

ولو شئنا الرد على منطق هذه المرأة ومن سار فى دربها ، فلا يسعنا إلا اتهامها المباشر بالجهل ، بل بالجهل الفادح ، فالفصحى أحد مميزاتها الإيجاز ، بل قيل إن " البلاغة هى الإيجاز من غير عجز والإطناب فى غير خطل " واشترط ابن سنان الايجاز والاختصار لتحقق الفصاحة والبلاغة ، ورددوا بيت الحارث بن حلزة :-

والعيش خير فى ظلا *** ل النوك ممن عاش كداً

وآيات القرآن الكريم تمتلئ بالإيجاز البلاغي الرائع ، كقوله تعالى :" ولكم فى القصاص حياة" ١٧٩ البقرة .

وقوله تعالى " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " ١٩٩ الأعراف .

وأى ناظر للعربية يدرك طبيعتها وميلها للايجاز البلاغى ، وقد ذكر صاحب " المثل السائر" أن الإيجاز للخواص" أى لأهل اللغة العالمين بها . . . . [٢]

وقد ضرب الدكتور/ جبرائيل مثلاً عملياً ، فقال إن ترجمة سورة الفيل إلى الفارسية والإنجليزية والفرنسية قد نتج عنه الأتى عدد الكلمات فى العربية [٢٧ كلمة] فى الفارسية [٤٨كلمة] فى الفرنسية [٦١ كلمة] والإنجليزية ٦٧ كلمة أى ما يقارب ثلاثة أضعاف عدد الكلمات العربية . . . .

١- د. جبرائيل سليمان- كيف أفهم النقد- دار الآفاق الجديدة- بيروت- عام ١٩٨٣م- صـ٢٥٥ .

٢- راجع " علم المعانى" للدكتور عبد الرازق أبو زيد- سابق والبلاغة العالية- سابق باب الإيجاز.

وقد ذكر الكاتب ترجمة آية " يوم تبلى السرائر" فكانت بالإنجليزية :-

On the day when all secrets shall be searcbed out

وبالفرنسية تترجم إلى سبع كلمات هى

le jour ou lessecrets seront devoiles

وبالفارسية " روزيكه أسرار باطنى شخص آشكار شود " [١]

وقد روى الدكتور فاضل الجمالى فى كتابه " دفاعاً عن العربية " أن الشاه رضا بهلوى شاه إيران قد استقدم المستشرق دنيسون روس " لاستشارته فى استبدال الأحرف اللاتينية بالعربية فقال له :" إذا كان فى نية جلالتكم الاستغناء عن تراثكم وحضارتكم فلا بأس من ترك حروفكم " أ.هـ .

إن هذه الدعوات- لاشك- غير علمية- على أقل تقدير ، فقد خرجت ذات يوم دعوة لكتابة العربية بحروف لاتينية ، ورغم أنه إجراء شكلى تافه لما يرونه علاج لمشكلة تؤرقهم ، فإن الدراسة الصوتية للحروف العربية ترفض أن تنصاع لهذا الرأى ، فصوتيات العربية تختلف عن أى لغة أخرى ولذلك فالحروف اللاتينية لا يمكن أن تؤدى بحال من الأحوال إلى درس صحيح لحركة الأدب العربى . ومعنى ذلك أن علم اللغة المتخصص يرفض رفضاً قاطعاً استبدال الحروف اللاتينية بالعربية لاختلاف النظام الصوتى والإعرابي والدلالي بين اللغتين .

وأصحاب هذا الرأى ينكرون تراثاً أدبياً عمره يزيد عن أربعة عشر قرناً من الزمان ، ودرر لا يجود بمثلها المبدعون ، ولكن أصحاب الدعوة للعامية وللحروف اللاتينية لا يملكون انتماء من أى نوع تجاه تراث تتخاطفه الأمم .

ـ اللهجات والعاميات والفصحى :-

تختلف اللهجة فى الماضى عن معناها الحالى ، وبعبارة أدق فإن لفظ لهجة كما جاء فى المعاجم من لهج بالأمر بمعنى الولوع به واعتياده ، والمسارعة إليه . واللهجة كذلك جرس الكلام . وإذا انتقلنا إلى معناها الاصطلاحي ، وجدنا تناسباً بين المستويين فاللهجة تدل على استخدام معين للغة باستخدام أسلوب مميز فى منطقة مميزة [٢] .

واللهجة بهذا المعنى تحقق نفس المعنى لكلمة لغة عند العرب القدماء ، حيث لم يطلق العرب على الظواهر القبلية اسم لهجات ، بل عدوها لغات ، وذلك لأن هذه الظواهر من عنعنة وكشكشة وغير ذلك لا ينحدر لمستوى العاميات . . . .

١- د/ جبرائيل سليمان- كيف أفهم النقد- سابق- صـ٢٥٦ .

٢- انظر د/ محمد حسن جبل- علم اللغة (نظرة عربية)- سابق- صــ٧٦ .

وهى قضية غاية فى الخطورة . . وانظر مثلاً لتعبير " ابن جنى" حين سمى باباً " باب اختلاف اللغات ، وكلها حجة " [١] .

ولذلك يصف الدكتور/ عبد الكريم خليفة اللهجات بأنها :" ألوان من النطق فى مختلف الأقطار العربية ، ولا يتناقض اختلاف هذه اللهجات مطلقاً مع وحدة اللغة وسلامتها وفصاحتها . . فالإمالة مثلاً ، ولفظ الكاف قافاً أو همزة [كذا وأظن الدكتورخليفة يعنى لفظ القاف كافاً أو همزة والخطأ من الناسخ] ولفظ الجيم جيماً جامدة أو معطشة . . كل هذا ومثله ، يضفى على لغة التخاطب- أى اللغة المحكية رونقاً محبباً للنفس ، ولا يتناقض مع وحدة اللغة التى تتجسد فى هذه العربية السليمة أو الفصحى فى الكتابة والخطابة . . . " [٢] .

ـ اللحن . . وظهور العاميات :-

أما العاميات فقضية أخطر ، ولكننا نتوقف قبل الخوض فى طرح قضية الفصحى والعامية عند تطور ظهور اللحن ، ثم انتقال اللغة العربية إلى مرحلة العامية الحالية .

وبداية فإن اللغات- بالمعنى القديم- كانت شائعة قبل الإسلام ، وإن لم تشكل عائقاً أو حاجزاً بين قبائل العرب . . .

ولذلك أباح النبى ﷺ قراءة القرآن الكريم على سبعة أحرف كما جاء فى البخارى ، كنوع من التيسير ،و كشكل من أشكال القبول للهجات غير القرشية ، ولو شئنا الدقة لقلنا اللغات غير القرشية ، ذلك أن ابن جنى يقول " اختلاف اللغات" ويورد قول النبى " نزل القرآن بسبع لغات كلها كافٍ شافٍ " [٣] .

لقد كان ظهور اللحن عند العرب أشبه بجريمة لا تغتفر ، فلما حدث الالتقاء التاريخى المعروف بين الأمم والعرب كان لابد أن تتأثر اللغة ، وينتج موروثاً من الأخطاء ، تجعل المؤلفين يشمرون سواعدهم للحديث عن اللحن وظواهره ولعل من الكتب المبكرة ، كتاب ما تلحن فيه العوام مما وضعه على بن حمزة الكسائى للرشيد هارون . ولابد لأهل الفصاحة من معرفته " والكتاب مشهور باسم " ماتلحن فيه العوام " والكسائى توفى ١٨٩هـ وهو لم يلتزم بمنهج ، وإنما صحح مائة لفظة ولفظتين لم يبدأ بترتيب معين ، وإنما بدأ بــ (حرص- نقم- دع- نفد- عجز- . . .)

١- الخصائص ١١/٢ .

٢- أ.د / عبد الكريم خليفة- بحث مقدم للمجمع اللغوى بالقاهرة عنوانه- العربية الفصحى بين لهجاتها وعامياتها المختلفة- غير مطبوع . وقد حصلت عليه منسوخاً من المجمع .

٣- الخصائص ١١/٢ وانظر فتح البارى ٢١/٩ وكذلك تفسير الطبرى ٣٥/١ .

وهو كثيراً ما يذكر الشاهد على الخطأ ، ولا يذكر الخطأ نفسه ، وكأن الخطأ انتشر بما لا يوجب معه ذكره ، فيذكر :" وتقول : كسرت ظفر زيد ، بضم الظاء والفاء جميعاً . قال الله تعالى :" وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر " وأحياناً يهمل الاستشهاد ويذكر الصواب كقوله " وتقول دمعت عينى بفتح الميم .(١)

تلا ذلك كتاب " الحروف" لابن السكيت والذى حققه الدكتور رمضان عبد التواب عام ١٩٦٩م وهناك فارق زمنى أكثر من نصف قرن بينه وبين الكسائى إذ توفى ابن السكيت عام ٢٤٤هـ .

ولذلك يعالج اللحن من خلال تقسيم الكتاب- على صغره- إلى أربعة أبواب :-

- باب حروف تقع مستعارة .
- باب الحروف التى جوزتها العرب أو غلطت فيها .
- باب الاسمين يغلب أحدهما على صاحبه .
- باب ما جاء مجموعاً وإنما هو اثنان أو واحد فى الأصل

وما يهمنا فى مقامنا هو الباب الثانى . والملاحظ أن ابن السكيت قد تجاوز الخطأ اللغوى إلى الخطأ المعنوى أو قل المعلوماتى- بتعبير المحدثين-

فينبه ابن السكيت على خطأ الجعدى الشاعر :-

تقول النصارى قتلنا المسيح *** ولم يقتلوه ولم يصلب

وإنما يريد " اليهود" .(٢)

والواضح أن الشاعر يجهل المعلومة ، فليس الخطأ من باب الوزن فلو قال (تقول اليهود) لكانت فعولن فعولن أيضاً ولذلك فإن كتاب ابن السكيت كما ترى من فصوله كتاب بلاغة أكثر منه كتاب لغة.

ولنصل إلى " الفاخر فيما تلحن فيه العامة" لابن سلمة المتوفى سنة ٣٠٠هـ ، وقد حققه المستشرق ستورى فى ليدن عام ١٩١٥م وأعاد نشره وتحقيقه عبد العليم الطحاوى سنة ١٩٦٠م فى القاهرة . ويعتبر " الفاخر" خطوة متقدمة فى معالجة قضايا اللحن ، حيث نظر إلى اللحن باعتباره العدول عن معنى اللفظ إلى معنى غيره وفهمه على غير ما فسره به أئمة اللغة ، فمثلاً نقول العامة :" جاء يضرب بأصدريه " والعرب تقول " جاء يضرب أزدريه ، إذا جاء فارغاً " .

١-عن(الدراسات اللغوية عند العرب-سابق ص١٧١

٢- الحروف- لابن السكيت- تحقيق د. رمضان عبد التواب- القاهرة- ١٩٦٩م صـ٤٣ وانظر : دكتور رمضان عبد التواب- لحن العامة والتطور اللغوى- دار المعارف- مصر- ١٩٦٧م .

إذن فالكتاب يبحث فى " الجملة" بعد أن كان ابن السكيت يبحث فى الحروف ، ومعنى هذا أن الخطأ قد امتد من الحروف إلى الجمل ، ومن تسكين أواخر الكلمات إلى ما هو أصعب من ذلك ، ويروى الجاحظ أنه قال لخادم له : فى أى صناعة أسلم هذا الغلام ؟ قال : أصحاب سند نعال- يريد أصحاب النعال السندية " [١] .

وقد أخطأ الغلام- وانتبه إلى أنه فى بيت الجاحظ- فى ترتيب جملة بسيطة وقد تعدَّى اللحن إلى علماء أفذاذ فى علوم الشرع ، فقد لحن أبو حنيفة ولحن بشر المريسى وعمرو بن عبيد- كما ينقل أحمد أمين عن بيان الجاحظ- بل يروى فى أنباه الرواة للقفطى أن الفراء- أبو زكريا يحيى بن زياد- وهو عمدة النحو الكوفى ومصدره ، وصاحب ما يقارب من ثلاثين مؤلفاً فى النحو والقرآن وعلوم القراءات- دخل الفراء على الرشيد ، فتكلم بكلام فلحن فيه مرات . وكان جعفر بن يحيى- الوزير- حاضراً فقال : إنه لحن يا أمير المؤمنين فقال الرشيد للفراء : أتلحن؟ قال الفراء : يا أمير المؤمنين طباع أهل البدو الإعراب ، وطباع أهل الحضر اللحن ، فإن تحفظت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت ، فاستحسن الرشيد قوله " [٢] .

ولا يمر الأمر هكذا ، فالفراء نحوى وحين يلحن فهو دليل على انتشار اللحن ، والتساهل مع أهله- على أنه لا يجب الخلط بين العلم باللغة وبين اللحن فى آدائها ، حيث السليقة تحكم الناطق باللغة ، ولذلك فقد كانت طبيعة العصر العباسى ، وعلو شأن العنصر الفارسى أثر فى إيجاد اللغة التى أطلق عليها الجاحظ " لغة المولدين والبلديين" . وكن لحنهم فى أواخر الكلمات كما روى عن رجل قال لآخر : أحضرنيه قال : قد دعوته لكل ذلك يأبى (برفع كل) .

وكان اللحن أيضاً فى بناء الكلمة وفى تركيب الجملة . . . [٣] .

ومن العجيب أنك ترى فى كلام الجاحظ شبه إعجاب باللحن ، وتلذذ بنطقه ، " كذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام فإياك وأن نستعمل فيها الإعراب . . . . "

وتندروا بقول تاجر قبض عليه لأنه باع للجنود دواب رديئة فقال للحجاج حين استجوبه :-

" شريكاتنا فى هوازها ، وشريكاتنا فى مداينها وكما تجئ تكون " يريد أنه اشتراها هكذا من شركائه بالأهواز والمدينة . . . " [٤] .

١- عن أحمد أمين- ضحى الإسلام- سابق- صـ٣١٣ .

٢- انباه الرواه نقلاً عن المختار أحمد ديرة- دراسة فى النحو الكوفى- سابق- صـ٦٢ .

٣- عن ضحى الإسلام- سابق- صـ٣١٣ .

٤- عن د/ حسين نصار- الشعر الشعبى العربى- دار الرائد العربى- لبنان- ١٩٨٢م- صـ١٤٦ .

بل يستعذب الجاحظ اللحن من مواضع معينة ، فيقول :" واللحن من الجوارى الظراف ومن الكواعب النوهد . . . . . أيسر ، وربما استملح الرجل ذلك منهن ، ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف " أ.هـ

ومعنى هذا وجود لغتين :-

- لغة عامية يسميها الجاحظ لغة المولدين .
- لغة فصيحة : وهى لغة الكتابة ويستخدمها أهل الطبقة الراقية .

ويبدوا أن أهل اللغة قد سارعوا إلى الاحتماء فى كنف الأقدمين ، واستدفئوا بما تركوا من لغة صحيحة .

وإذا عبرنا قروناً حتى نصل إلى عصرنا- هذا- السعيد ، فنحن أمام انحدار- ربما بدأ- بعزل محمد على باشا من حكمه ، وانهيار مشروعه التعليمى العظيم وربما حاول الخديو اسماعيل تجديد الروح فى جسد المجتمع المصرى ، ولكن تكالبت الديون عليه ، وانتهى نهاية درامية مؤسفة ، انتهت معها الآمال المعقودة عليه فى تحويل مصر إلى " قطعة من أوربا" ، ولأن الحكم تركى فلم نجد حرصاً على التعليم العربى ، وانطلقت دعوات تدعو إلى ترك اللغة العربية والتدريس بالإنجليزية أو إلى استخدام حروف لاتينية فى الكلمات العربية ، وكما سبق وأشرنا إلى دعوة سلامة موسى ، غير أن سبقه من سبقه من القائلين بأن العربية عاجزة عن العلم الحديث ، وأنها دعوة للتخلف العلمى والتشبث بلغة بدوية من أحافير عصر الناقة ، لا تصلح لغير حداء الإبل والوقوف على الأطلال" [(١)]

واقترح الدكتور " سبيتا" أن نهجر الفصحى إلى العامية على أن نكتبها بحروف لاتينية .

ثم بدأت جهود عبد الله النديم عقب انبعاث الحس القومى من خلال الثورة العربية فحمل النديم على دعاة التفرنج حملة عظيمة من خلال " التنكيت والتبكيت" حيث اعتبر " إضاعة اللغة تسليم للذات" وجادله " أمين شميل" فرد عليه النديم وذلك عام ١٨٨١م كما ترويه د/ بنت الشاطئ .

تلى ذلك فرض الإنجليزية لغة للتعليم ، ثم جاء سعيد ، فأغلق المعاهد وبعض المدارس ومدرسة الألسن. .. وجاء رد الفعل المصرى شديداً ، فحمل عبدالله فكرى والنديم وغيرهما لواء الدفاع عن العربية ، وعملياً اجتمع فى دار السيد توفيق البكرى عدد من العلماء لدراسة مشروع إقامة مجمع " يحول بين اللغة وموتها ، ويضع اصطلاحات طبية هندسية وكيمياوية عربية تدرس بها تلك العلوم . . . . .

ولم يكتب للمجمع أن يرى النور ، واستمرت دعوات سبيتا وويلكوكس وويلمور ، فأما سبيتا واسمه

١- عن عائشة عبد الرحمن- لغتنا والحياة- دار المعارف- ١٩٧١م- صـ١٣٢ .

" **Wihelm spitta** " فقد كان مدير دارالكتب المصرية ، وقد أصدر كتاب " قواعد العامية فى مصر " سنة ١٨٨٠م ثم " العامية المصرية المعاصرة " وكتابه الثالث " العربية المحكية فى مصر" (١) .

ويقول " سبيتا" فى نهاية محاولاته :" وأخيراً سأجازف بالتصريح عن الأمل الذى يراودنى على الدوام طوال ، وهو أمل يتعلق بمصر نفسها ، فكل من عاش فترة طويلة فى بلاد تتكلم العربية ، يعرف ألى أى حد تتأثر كل نواحى النشاط فيها ، بسبب الاختلاف بين لغة الحديث ولغة الكتابة " أ.هـ

ولم يبتعد ويلمور عن نفس الهدف ، إذ أنه كان يناشد الحكومة المصرية أن تعترف بالعامية وتقرها ، ويناشد الإنجليز لتدعيم هذه العامية ليساعدوا الشعب على التقدم الروحى ، كما ساعدوا من قبل على تقدمه فى الحياة المادية " وهى دعوة- بلا شك- مضحكة ، وسوء النية حاضر فيها وباد ومظهر أنيابه بلا هوادة ، فمتى ساعد الانجليز أو الفرنسيون أو الأمريكيون المصريين ، بل قل متى أخلص الغرب نيته لأهل الشرق ؟ إن نقل التقانة " مع الاحتفاظ بأسرار هذه التقنيات هو أصدق دليل على رغبة الغرب فى دوام حالة التخلف الشديد فى المجتمعات الفقيرة سواء كانت مسلمة عربية أو غير ذلك ولنتوقف عند " ويلكوكس" ونقتطف شيئاً من محاضرة ألقاها عام ١٨٩٣م ونشرت بمجلة" الأزهر " يقول :" ولما أراد الله رفع هذه الأمة- يقصد الانجليز والأمريكان ، وإظهارها على الأمم وتأييد سلطانهم ، أيقظ أفرادها من نومهم ، ونبههم من غفلتهم ، وألهمهم أن الحجاب بينهم وبين ترقى معلوماتهم إنما هو تسطير أفكارهم بهذا اللسان المهجور (أى اللاتينية) فأخذت علماء انكلترا تبحث عن اللغة المشهورة الشائعة بين فلاحيهم . . . "

ويستطرد ، محاولاً تطبيق هذا الدرس الانجليزى العميق على المجتمع المصرى وكأن مسألة النهضة ستتحقق إذا نحن تحدثنا بالعافية وبها كتبنا .

وقد تصدى لدعوة " ولكوكس" أدباء ومفكرون كبار ، لعل على رأسهم جورجى زيدان ، حيث رأى أن هناك علاقة بين عقول المتكلمين وبين اللغة التى يتكلمون بها " فلغة العامة منحطة بنسبة انحطاط أفكار الناطقين بها ، وليس لها أن تقوم مقام الفصحى ، ولاسيما العربية لأنها أرقى لغات العالم ، وفيها من أساليب التعبير ما تعجز لغة العامة عن القيام بمثله "(مجلة الهلال- فبراير ١٨٩٣م)

١- صدر الكتاب الأول فى ألمانيا بعنوان .. . Vulgardia lectesvon . . Agypten grammatic والثانى بالانجليزية The modern Egyption dialect of Arabic والثالث " The spoken Arabic of egypt " والأخيران طبعان فى كامبردج ولندن . انظر د/ نفوسة زكريا- تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها فى مصر- عن كتاب د. هيثم الخياط- فى سبيل العربية- سابق- صـ٢٨ .

وقد حاول البعض التوفيق بين أهل الفصحى وأهل العامية ، فرأى الدكتور رشدى سعيد أن هذه الدعوة قد خفتت بعد أن تطورت لغتنا الكتابة والكلام ، وتقاربتا لتشكلا خليطاً مقبولاً وجميلاً ، لا يسبب إزعاجاً لأحد " [هلال أغسطس ٩٤- صـ٤٧]

ورأى الدكتور رشدى سعيد ، فإن علاقته بقضايا اللغة والتعبير لا تتيح له مناقشة هذه القضية الخطرة ، حيث رأى أن الدعوة للعامية قد خفتت ، وهو ما لم يحدث فى الواقع العملى ، ولكن انتشار العاميات صار طاغياً بشكل يجب الانتباه له .

أما عبد العزيز فهمى ، فربما يعود ذكره الآن بسبب المشروع الذى أعده لتحويل الحروف العربية إلى اللاتينية ، والكثيرون منا يغفلون أن عبد العزيز فهمى لم يقدم هذا المشروع إلا وهو عضو مجمع اللغة العربية ، حيث أعد مشروعاً متكاملاً بهذا الغرض ، اتباعاً لما فعلته تركيا الكمالية [نسبة إلى كمال أتاتورك] .

وأننا لو نظرنا إلى طبيعة الفترة العصيبة التى عاش فيها عبد العزيز فهمى ، وكذلك أسلوبه الفكرى والحياتى ؛ لاستطعنا تفسير دعوته ، والتماس بعض العذر له ، فعبد العزيز فهمى (المولود عام ١٨٧٠م بكفر مصيلحة بالمنوفية ، والحاصل على ليسانس الحقوق عام ١٨٩٠م) .

عمل بالنيابة ثم مستشاراً قضائياً بالأوقاف ثم فضل الاشتغال بالمحاماة ، وقد برز فى المحاماة ، لأنه كان- بتعبير الزعيم سعد زغلول :" له قدرة فى الجدل لا تعدلها قدرة ، فهو يستطيع أن يجادل ويناقش أربع وعشرين ساعة متواصلة ، وقد كان عقله أكبر من علمه . . . . " انظر الهلال عدد أكتوبر ١٩٩٤م- صــ٥٩ " .

وقد كان لعبد العزيز فهمى دور وطنى معروف سواء فى تشكيل الوفد أو رئاسة حزب الأحرار الدستوريين أو غير ذلك ، وكان من المؤمنين بضرورة استقلال هذا الوطن ولهذا جاءت دعوته للحروف اللاتينية جزء من شخصيته الجدلية الرافضة للواقع وعلى ذلك فكل جهوده وجهود أحمد لطفى السيد وغيرهما فى الدعوة للعامية ، لم تكتب سوى بالفصحى .

وقد وجدنا فى مجلتى " المقتطف ، الهلال" من يدافع عن هذا التفكير ، وقد ناقشنا أفكار سلامة موسى فى غير هذا الموضع بطريقة موضوعية أوصلت الباحث لفكرة مفادها أن الدعوة المضربة التى تبناها سلامة موسى لم تكن عن علم بحل حقيقى لقضية النهضة ، كما لم تكن نابعة من إيمان بجدوى هذه الحلول ، التى سرعان ما يتنازل عنها إلى غيرها ، فسرعة دعوته إلى العامية ، لا تدانيها سوى سرعة عدوله عن ذلك والدعوة للكتابة باللاتينية .

وقد تابع " لويس عوض " هذه المسيرة " النضالية" فى الدعوة للعامية ، بعد إبداع شعرى خطير فى تفرده وقيمته حتى يصل إلى أنه " لا قيمة له " .

كما رأى الناقد العظيم " فاروق عبد القادر " أن أعمال لويس جمعياً :" لا قيمة لها " فخذ شيئاً من شعره ، وتمتع بروعة قصائد لويس عوض :-

(قصة تقدمية)

وسار بين اللبخ والدردار

فأبصر الدرياد والزياد يلعبن

والأطيار فى الأفكار

دمثنى منى اللب والفؤاد

ولأن مستوى الفهم لدينا ضئيل ، فلنعد إلى تجربته بالعامية ، تطبيقاً لنظريته العبقرية ، حيث أخرج " مذكرات طالب بعثة " بالعامية فى أربعمائة صفحة من الثرثرة الفارغة " [١] .

إن الدعوة للعامية لم ولن تصمت ، وفى مقابلها ظلت الدعوات الرافضة للعامية تقاوم هذا المد المخيف للعاميات فى مختلف أقطار الوطن العربى .

واتضح من خلال بحوث وكتب أبدعها مخلصون للغتهم أنه من الضروري أن يكون للسلطة دورها ، وللتشريع دوره ، وخرجت قوانين لم تزد عن إلزام المحليات بتوقيع غرامة على من يكتب لافتة بالإنجليزية أو الفرنسية ، وحتى هذه اللحظة لم يطبق منها شئ .

إن العامية هى عربية فصحى دخلت عليها بعض مظاهر التخفيف والتبسيط فصارت عاميات كثيرة داخل البلد الواحد . . . .

وأول ما استغنت عنه العاميات هو الإعراب فكل الكلام العامى مسكن الأواخر وهو استسهال وتبسيط وخشية من الوقوع فى الخطأ .

ثم يأتى بعد ترك الإعراب تحول بعض الحروف فى النطق فالقاف تنطق همزة والثاء تنطق سيناً وتاءً والذال تنطق دالاً ، والضاد تخفف إلى الدال والظاء إلى ذين وهى مسألة متكررة فى العاميات العربية ، حيث توجد ظواهر صوتية خطيرة إلى درجة نفى وإلغاء حروف بعينها ، وشاهد قناة عربية واستمع إلى مقدار التشويه الحاصل للغة العريقة .

ولا شك أن قضية الفصحى والعامية قد نالت حظها من الحديث فى المجامع اللغوية ، وقد بحث أستاذنا الجليل العلامة/ شوقى ضيف- رحمه الله- مسألة تحريفات العامية عن الفصحى عبر دورتين متتاليتين للمجمع اللغوى بالقاهرة ، فأظهر إلى جوار ترك الإعراب جملة تحريفات أخرى مثل إلغاء الألف والنون فى صيغة المثنى والمد فى صيغتى " الثلاثاء" و" الأربعاء" كما غيرت العامية فى صيغ الفعل الماضى الثاثى الثلاث [فَعِل- فَعَل- فَعُل]

حيث حرفت صيغة فَعِل إلى فِعِل فى ألفاظ مثل تَعِبَ- سَهِر-خِجِل- عَلِم- عَمِلَ- وَرِثَ فتصير هذه الكلمات تِعِب- سِهِر- خَجِل. . . . الخ .

١- انظر فاروق عبد القادر- جريدة صوت الأمة- ٢٠٠١/١٠/١٠م- صـ١٢ .

والفعل الثلاثى المعتل لحقه التحريف كما لحق الصيغ الثلاث المذكورة ، وذلك فى مثل بَقِىَ- خَشِىَ- نَسِىَ ويشير الدكتور شوقى ضيف إلى أن قبيلة " طيىء"فى شمال الجزيرة كانت تحتم هذا النطق فتقول نَسَا- خشا- . . الخ .

وقد دخل من " طيىء" كثيرون لمصر ، ويبدو أنهم أشاعوا هذا النطق . . . وكذلك زيادة ياء فى الماضى بعد تاء المخاطبة فى نحو " كلمتيه وكتبتيه " إلخ

كذلك لا تميز العامية بين الجمع والمثنى فى إلحاق العلامة الدالة عليها ، حيث تقول حضروا الطالبين- حضروا البنات . . . الخ .

كذلك تسهيل الهمزة وحذفها فى الأفعال نحو توضيت فى توضأت . . . . الـــخ

كذلك يصيب التحريف اسم الفاعل واسم الآلة والصفة المشبهة وتحريف أسماء الاستفهام نحو متى تصير إمتى وأين تصير فين . . . الخ .

وتحذف للألف قصراً فى صيغ فاعل وفاعلة نحو فطمة فى فاطمة وندية فى نادية إلـخ .

ولا يغادر التحريف الحروف المتصلة والمنفصلة ، وهى تحريفات شكلية ، ولكنها لابد أن تعالج .

ولذلك يجب الانتباه إلى البعد الدينى لتعلم الفصحى ، فلا فقه للقرآن وأحكامه إلا بقدر من التعليم للفصحى ، ولعلنا مأمورون بتعلم الفصحى . . "إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون" يوسف (٢)

ولذلك فقد لاحظنا أن شعوباً مسلمة مثل " أندونيسيا وتركيا وأفغانستان وإيران هذه الدول مأهلة لتعلم العربية ، وأهلها أصحاب عقيدة قوية تحتاج إلى استزادة لن تتأتى إلا بالقراءة باللغة العربية الفصيحة ، فإذا كانت الدعوة لنشر العربية ستنطلق من داخل الوطن العربى ، فمن باب أولى أن يتعلم العرب لغتهم ، وأن يتفقوا على قواعدها وأسسها فإنه من العيب ألا تتفق الدول العربية حتى على أسماء الشهور تقول " آب" فى المشرق العربى و" أغسطس" فى مصر وآوت فى تونس و" غشت" فى المغرب ، وشاعت كلمة " رسكلة" فى تونس وهى مشتقة من " Recycling " الفرنسية (١) .

ولذلك فهناك بعد قومى بجوار البعد الدينى ، ذلك أن اللغة الفصحى تجمع شعوب وطن عربى

بأكمله ، واللغة الدارجة بلا شك تعزل هذه الشعوب وتقطع هذه الأواصر الطيبة ، وتضع حدوداً

تشارك الحدود السياسية المصطنعة بين بلدان يجمعها دين واحد ولغة واحدة وتاريخ وجوار وإنا

نشارك شاعرنا السورى العريق بدوى الجبل قوله :-

ليس بين العراق والشام حدٌ *** هدم الله ما بنوا من حدودِ .

١- دكتور فاضل الجمالى / دفاعاً عن العربية- سابق- صـ٨٢ .

وليعلم العرب أن تكريس اللغة الدارجة دسيسة استعمارية مفضوحة ، تأكيداً ودعماً لحالة التفرق السائدة بيننا كعرب ، وقد ربط الدكتور/ عبد الكريم خليفة- رئيس مجمع اللغة العربية الأردنى- بين انحراف الفصحى عن مسارها إلى العاميات وبين الغوص فى الجهل والتخلف ، والنتيجة " نشوء لغات عامية فى جميع الأقطار العربية " (١)

وليس أمامنا سوى اللجوء للمجامع العربية ، لنرى كيف تناقشت وكيف أصدرت قراراتها للقضاء على المد العامى اللهجى . ولكن يجب التنبيه على احترامنا البالغ للعامية وما فيها من بلاغة ، ذلك أن هناك من الباحثين من ينكر جملة وتفصيلاً أى جهد وفضل للعاميات ويحتقرون الآداب الشعبية المكتوبة بالعامية بأى شكل من أشكالها .

وقد أشار " ابن خلدون" للظروف التاريخية لنشأة العاميات فى قوله :-

" فلما فسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها وما زجها من العجمة ، نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر فى الإعراب ، وأكثر الأوضاع والتصاريف ، واختلفت هى نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق : فلأهل الشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره وتخالفهما أيضاً لغة أهل الأندلس وأمصاره " (٢) .

والمفهوم واضح تماماً ، إذ أن العاميات نتيجة فساد وضعف وإختلاط كما رأينا ، ولذلك تنازل أهل الأندلس عن موسيقى الشعر العروضية الخليلية وجاوروها بالموشحات ويورد لعبادة القزاز قوله :

بدر تم شمس ضحى * غصن نقا مسك شم * ما أتم ما أوضحا

ما أورقا ما أتم * لا جرم من لمحا * قد عشقا قد حرم .

فلم يتوقف الانقلاب على المستوى اللغوى ، بل تواصل إلى الموروث الموسيقى للشعر- باعتباره أخص الفنون العربية وأكثرها أصالة .

وبدأت مسيرة الانحدار فى العصر العباسى تزداد ، حين أخذ العباسيون فى إبعاد العرب وتقريب غيرهم خاصة الفرس ، فأخذ العرب الخلص يندرحون فى طوايا النسيان والظلام ، فغلبت العامية على الفصحى ، وحدث- للمرة الأولى- الازدواج اللغوى الحاد فى المجتمع بين لغة للكتابة ولغة للحديث ، حتى صار التحدث على طريقة البدو- أى بالمحافظة على جميع مظاهر الإعراب- نسجاً

١- د. عبد الكريم خليفة- العربية الفصحى بين لهجاتها وعامياتها المختلفة- بحث غير منشور ألقاه صاحبه فى مجمع القاهرة ، وحصل الباحث على نسخة بالحاسوب من المجمع . صــ٢ .

٢- المقدمة- سابق-صـ٤٢٨ بتصرف يسير .

لا يساير روح العصر ، بل صار الإلمام بالفصحى أمر غير مفهوم ولا مطلوب فى الأوساط الراقية فى المجتمع الإسلامي " [١] .

فإذا كانت الاختلافات بين لغات القبائل سائدة منذ العصر الجاهلى ، فلم تكن هذه الاختلافات سوى ظواهر صوتية يسيرة ، كما تحدث عنها البحث فى مواضع أخرى ، مع التسليم بوجود لغة تجمعهم هى لغة الشعر ، والتى يقول نيكلسون عنها فى " تاريخ العرب الأدبى " :-

" إن الأمر الجدير بالملاحظة أن لغة الشعر العربى واحدة متماثلة ، ولا يمكن الاعتداد بما بينها من إختلافات تافهة كل التفاهة فى اللهجات "[٢] .

ولذلك جاء الدين الإسلامى فوحد العرب على لغة نزل بها كتاب الله العظيم ، وجاء متبعوا هذا الدين فهجروا ألسنتهم ، واتجهوا للغة وحدتهم ، فالاسلام " رسالة قامت على اللغة أساساً ، واعتمدت فى أساسها وجوهرها على عبقرية هذه اللغة " [٣] .

ولذلك فلم ينكر الباحثون جهد اللهجات العامية وبلاغتها ، بل إننا أمام كنز بلاغى ومعرفى واجتماعي يقتبس منه علماء الاجتماع وبلغاء الأدب .

فهناك قصص إسلامي له قيمة فنية استخدام العامية المقبولة الذاهية نحو الفصحى ، الحافظة لمبادئ الدين ، واستمع للجارية والبواب فى حوار طويل لغزو تونس فى قصة " أبى زيد الهلالى" وانظر إلى حيل النساء ، وكيف تفوقن على حصان طروادة ، واستمتع بعذوبة العامية :

أنا أمدح محمد * أبو القاسم أحمد**

من زاره يسعد * وينال الفخارا**

- - - - - - - - - - -

قالت بنت سرحان * يقول فى أوزان**

تو الشعر ما بان * صر لى فيه إمارة**

- - - - - - - - - - - -

١- د/ حسين نصار- الشعر الشعبى العربى- صـ١٤٨- سابق .

٢- السابق- صـ٣٦ .

٣- فاروق خورشيد- عالم الأدب الشعبى العجيب- دار الشروق- مصر- ١٩٩٧م صــ١٧ .

يا بواب منصور *** افتح لنا الصور
نسر له بدستور *** ونبيع التجارة

- - - - - - - - - -

والله يا ظريفة *** خايف من خليفة
له حربة رهيفة *** تمرق م الحجارة

- - - - - - - - - - - - -

فتح الباب ساهل *** إلا القلب واجل [1]

إننا نعتز بتراثنا الشعبي وفنونه بشكل كبير ، غير أن اللغة الفصحى وتعلمها إنما هى فرض دينى وسياسي وتاريخي وقومي واجتماعي لا مفر منه فالفصحى هى درع حماية لنا من سطوة الآخرين ، وحفاظ على هوية تصارع بصعوبة من أجل البقاء ، وحماية لدين صار فى أشد الحاجة ليقظه أهله.

موقف المؤسسات التعليمية : المجامع والمدارس :-

ولنختم هذا المبحث بالحديث عن موقف مجامع اللغة العربية من قضية العاميات .

وقد كان مجمع دمشق العلمى صاحب أول مبادرة ، حين أصدر منشوراً فى سنة ١٩١٩م باللغتين العربية والفرنسية ، وأرسله إلى مجامع الشرق والغرب محدداً غرض المجمعاالاول فى :-

" النظر فى اللغة العربية وأوضاعها العصرية ، ونشر آدابها وإحياء مخطوطاتها ، وتعريب ما ينفعها من كتب العلوم والصناعات والفنون عن اللغات الأوروبية ، وتأليف ما تحتاج إليه من الكتب المختلفة المواضيع على خط جديد " [2] .

وقد راعى المجمع ظروف العصر- كما رأينا- "وأوضاعها العصرية "- ويبدو أنه وجد أن الحل لتجديد العربية لا يتحقق إلا بالمحورين معاً " التراث والمعاصرة"

ولهذا ركز المجمع منذ إنشائه على نشر الفصحى- كتابة وإنشاء ونطقاً ومحاورة . . . . .

وظل المجمع الدمشقى العريق يواصل دعوته ، حتى جاء عام ١٩٢٨م ، فأصدر القرار رقم ٩٠ الذى ينص على أن [1] غاية المجمع العلمى العربى بالبحث فى علوم اللغة .

١- عن د/ فؤاد حسنين- قصصنا الشعبى- مكتبة الدراسات الشعبية- رقم١- يناير ١٩٩٦م صـ٥٨ وانظر د/ مصطفى عبد الشافى- التراث القصصى عند العرب- ذاكرة الكتابة- عام ١٩٩٩م .

٢- عن أحمد الشيخ- تاريخ المجمع العلمى- دمشق ١٩٥٦م وننقله عن د/ عبد الكريم خليفة فى بحثه السايق الإشارة إليه- صـ٣ .

فهو ـ أى المجمع ـ جمعية علماء غايتها ومهمتها حفظ اللغة العربية وترقيتها " ولم يكن هذا الاهتمام حكراً على سوريا الشقيقة ، بل كان الهدف الأسمى لمجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ إنشائه عام ١٩٣٢م ، وفى كل التعديلات الموضحة لهوية المجمع ، كقرار رئيس الجمهورية المتحدة رقم ١١٤٤ سنة ١٩٦٠ تحت عنوان : " أغراض المجمع ووسائله "

أولاً الأغراض :ـ

أـ المحافظة على سلامة اللغة العربية والحرص على وفائها بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها وملاءمتها لحاجات الحياة فى العصر الحديث .

وفى حديث هذا القرار عن الوسائل ذكر ما نصه :ـ

" الدراسة العلمية للهجات العربية الحديثة فى الأقطار المختلفة ، وللكلمات والأعلام العربية فى اللغات الأجنبية ، وذلك لخدمة الفصحى والبحث العلمى " أ.هـ

والواضح أن الهدف من دراسة اللهجات هو خدمة الفصحى ، وتقريب الأبعاد بين العاميات واللغة الفصيحة .

مع تكرار الانتباه إلى الفرق بين اللهجات كصورة من التأثيرات والمؤثرات البيئية الصوتية للمكان ، وبين العامية كشكل من أشكال تبسيط اللغة بترك الإعراب والزوائد والحروف الثقيلة والاستعمالات المتعددة إلى استعمال واحد مثلما نجد جمع المذكر السالم والمثنى .

وقد يزيد إعجاب القارئ لمواد قانون المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٧٧م فى مواده ، وقد توقف الدكتور عبد الكريم خليفة عند الأسباب الموجهة لوضع هذا القانون من وجهة نظر المجمعيين العراقيين ، فقد لجأوا إلى وضع القانون :

" لما غلبت العامية على العربية الفصحى ، وهى أثر من أثار التخلف والجهل ، وسمة من سمات الأمية ، وعاملاً من عوامل الفرقة والتجزئة ، ومعوقاً من معوقات انتشار التعليم ، ويقظة الوعى القومى والجهود المنظمة نحو ثقافة الجماهير "

هذه الأسباب التى دعت المجمع العراقى لأن يقر قرارات قانونه الصارم حيث ألزم المؤسسات ـ كما جاء فى مادته الأولى بالمحافظة على سلامة اللغة العربية واعتمادها فى وثائقها ومعاملاتها ، وبذلك نجعل اللغة العربية وافية بأغراضها القومية والحضارية .

ثم يكلف قانون المجمع المؤسسات التعليمية بـ" اعتماد اللغة العربية لغة للتعليم ، وعليها أن تحرص على سلامتها ، لفظاً وكتابة ، وتنشئة الطلاب على حسن التعبير ، والتفكير بها ، وإدراك مزاياها والاعتزاز بها " أ.هـ

١ـ السابق والتعبير " نصت عن" يكررها الدكتور خليفة فى بحثه ـ صـ٤ .

وكما رأينا فى سياحتنا وطوافنا بمجامع اللغة العربية فى سوريا ومصر والعراق ، وأيضاً نفس المحتوى فى المجمع الأردنى المؤسس عام ١٩٧٦م نجد حرصاً على اعتماد الفصحى لغة أصلية أساسية .

وقد تواترت جهود المجامع ، ولكنها جوبهت بأمرين أولهما : الواقع العام الغير مؤهل للنهضة ، نتيجة تراكمات طويلة منذ عصور الاحتلال وعبر انكسارات وطنية وانهزامات نفسية وأساليب حكم أسلمت الشعوب إلى حالة من الرضا البغيض بالواقع على علاته ، بغير أمل فى حدوث تغير جذرى فى الواقع اللغوى ضمن الواقع العام .

وثانى ما جوبهت به أحلام المجامع اللغوية هو نظامها الداخلى، لأن قراراتها ليست قوانيناً واجبة التنفيذ ، فلا سلطان لها على المنشآت التعليمية ولا الوزارية ولا الإعلامية ، بالإضافة إلى الفقر المادى المعجز للمجامع عن طباعة كتبها ومجلاتها بشكل عاجل وواسع وقابل للانتشار . وذلك أن الحصول على نسخة من مجلة المجمع يحتاج طلباً وموافقة من رئيس المجمع شخصياً [١]

وكنا نأمل أن توزع هذه المجلة على جميع مدارس الإعدادي والثانوى وعلى الجامعات ، على أىِّ حالٍ ، فمازالت الازدواجية اللغوية التى نعيشها تشكل منعطفاً خطيراً فى تاريخ هذه اللغة ، وقد أصدر الدكتور حسام الخطيب كتاباً جيداً بعنوان " اللغة العربية : إضاءات عصرية " وأى فيه أن اللغة مثل الكائن الاجتماعي ، واشترط لرقى اللغة ترقى أهلها . . . .

" لغة كبيرة ، يسمح لها كبرها وعظمتها أن تتكيف بسرعة على النحو الذى يراد لها ، وخصوصاً فى المجال التقنى ، بشرط وحيد : أن يرقى أهلها إلى مستوى الإيقاع الحضارى للعصر ، وأن يستعيدوا الثقة فى النفس " [٢] .

ولننهى هذا المبحث بتوصيات مشفوعة بالأمل فى أن تجد من ينظر إليها ، ويهتم بها ، ويسعى لتنفيذها ، فهى وأفضل منها مطروح على قارعة الطريق تلوكه ألسن الباحثين منذ عقود ، ولكن من يستمع ومن ينفذ . . . . . ؟

أولاً :- ضرورة التطوير الفورى لمناهج التعليم فى المراحل الثلاث الإبتدائى والإعدادى والثانوى من حيث منهج اللغة العربية نفسه ومحاولة إغنائه من هذا الهزال الرهيب الذى يعانى منه ،

وبث قيم الإسلام والعروبة من خلال دروس الخطابة والنصوص الشعرية والنثرية ، وربط الطلاب ربطاً حقيقياً بتاريخهم الطويل ، وطرح نماذج تصلح قدوة للطلاب ، من خلال العرض الصادق لتاريخ العرب قديماً وحديثاً والتوسع فى شرح أشكال الاستعمار الحقيقى والمتخفى الذى ابتلى به الوطن العربى ، تمهيداً لإيقاظ الروح العربية .

١- يشير الباحث إلى تجربته الشخصية ، مع الاعتراف بروعة استقبال الدكتور شوقى ضيف ، ومدى مساعدته وتوجيهاته ، وعرضه بالمعاونة ولكن تصوروا أن أبحاث المؤتمر لا تطبع إلا بعد مرور سنوات من انتهائه ؟!

٢- د/ حسام الخطيب- اللغة العربية: إضاءات عصرية"- هيئة الكتاب- مصر- نقلاً عن عرض للكتاب للدكتور/ عبد الملك مرتاض بمجلة " نزوى"- عدد يناير ٩٧- صـــ٢٢٤ .

ثانياً : تغيير أسلوب التعليم الجامعى كلياً . وإلغاء نظام " الفصل الدراسى" المسمى بـ" التيرم" والذى يحول الطالب إلى برميل مليء بالمعلومات يتقيؤها فى أوراق الإجابة ، بدون دراسة حقيقية صادقة مغيرة للمفاهيم والعادات .

ثالثاً : التشديد على جميع القائمين بالعملية التعليمية باستخدام اللغة الفصحى الميسرة- كلّ بحسب قدرته- داخل الفصول التعليمية بالمدارس والجامعات ، وألا يقتصر ذلك على معلمى العربية وآدابها فى مراحل التعليم المختلفة ، بل فى كل أنواع العلوم .

رابعاً : مساعدة المجامع العربية فى نشر أبحاثها مع تبسيطها فى نشرة شهرية أو فصلية على الأقل- يتم توزيعها على المدارس والمعاهد والجامعات ، ويتم مناقشتها وطرح القضايا اللغوية ، من خلال الربط بين اللغة والدين ، وإظهار أهمية المعرفة اللغوية فى فهم الأحكام الدينية.

خامساً : إعادة الاهتمام بالمكتبة المدرسية ، والوسائط التعليمية اهتماماً حقيقياً ، وكذلك العودة بنظام التعليم فى الكليات النظرية إلى النظام المفتوح بعيداً عن قيود الكتاب المقرر ، وربط الطالب بمكتبة كليته ربطاً حقيقياً .

سادساً : إعادة النظر فى مناهج التعليم ، وخاصة مناهج اللغة العربية والتربية الدينية ، وتعديل هذه المناهج ، مع الاهتمام البالغ بحصة القراءة ، وجعلها حرة ومفيدة ، وإعادة تقديم الأدب العربى- على طول تاريخه- بصورة محببة ، وتنقية الكتب من الأخطاء اللغوية والطباعية ، وأخطاء المعلومات [1] .

١- من أمثلة هذه الأخطاء إصرار كتاب التربية الدينية للصف الأول الإعدادي صـ٩٠ على أن خلافة على بن أبى طالب استمرت سنتين وستة أشهر رغم أنها استمرت ما يقارب خمس سنوات ، وأيضاً فى موضوع " رفاعة الطهطاوى " صـ٣١ من كتاب " القراءة والنصوص" للصف الثالث الإعدادي يقول الكتاب :" غادر رفاعة طهطا ، وهو فى الثانية عشرة من عمره مع والده إلى القاهرة" صـ٣١ والحقيقة أن رفاعة جاءللقاهرة عام ١٨١٧م وهو مواليد ١٨٠١م أى وعمره ستة عشر عاماً وكان ؟أبوه قد مات فى هذا الوقت (انظر مقدمة تخليص الإبريز لمهدى علام وأنور لوقا وأحمد بدوى. وفى موضوع " العدل" لطه حسين صـ١٦ من الكتاب نفسه يقول : " القاعدة الأساسية التى يقوم عليها نظام الحكم السليم هو . . . . " وهو خطأ لا يقع فيه طه حسين بالقطع ، ولكن إهمال المراجعة يصنع الكثير ، وقصيدة شوقى فى الصف الثانى الإعدادى بعنوان " الكتاب خير جليس" تبدأ بقوله :- أنا من بدَّل بالكتب الصحابا . .

رغم أن الشاعر يقصد العكس ، لأن الباء- كما هو معروف- تدخل على المتروك كقوله تعالى فى سورة النساء " ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب" أية ٢١ فالباء تدخل على المرغوب عنه أو المتروك كما جاء فى المعجم الوسيط . . وكان من المفترض أن يشير الكتاب لذلك . أيضاً يصف كتاب القراءة (الصف الثالث الاعدادى) د/ ذكى نجيب محمود بأنه أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء وهذا غش وتدليس ، فصاحب اللقب- كما هو معروف- الفيلسوف العربى العظيم " أبو حيان التوحيدى" والدكتور زكى ليس فيلسوفاً ولكن مشتغل بالفلسفة هذه الأخطاء وغيرها كثير ، يشى بعدم اهتمام المؤلفين بالتدقيق اللغوى ، وهو ما يولد احساس للطالب بامتهان اللغة لديه .

" وإنى لأربأ بالأمة الإسلامية أن يقولوا كما قالت اليهود :" نحن أبناء الله وأحباؤه" وأن يناموا على آذانهم ؛ ثقة بأن الله جلت قدرته ضمن حفظ قرآنه . . . ومادام القرآن محفوظاً ، فالعربية محفوظة ألا فاعلموا يا قوم أن الله قادر أن يحفظ القرآن بغيركم ثم لا يكونوا أمثالكم .

د/ شكرى عيـــاد

ـ تماس مع العولمة :ـ

انفجرت ظاهرة العولمة فى نهاية حوادث عظمى ، أخطرها السقوط المريع المدوى الذى حدث للاتحاد السوفيتى ، وكذلك حرب الخليج الثانية- تحريرالكويت- التى وضعت راية السيطرة فى يد الولايات المتحدة الأمريكية . وقد أحدث انفجار العولمة ملايين الشظايا التى طالت- بكل تأكيد- العالم العربى الإسلامى ، ولعل أخطر آثارها هذه الظاهرة- العولمة- هو انهيار أى مشروع نهضوى إسلامى ، بل انهيار أى صوت معارض رافض للهيمنة الأمريكية بذراعها الصهيونية المعروفة فى المنطقة ، وبدا واضحاً حرص كافة مفاتيح القضايا العربية موجود- فقط- فى الخزانة الأمريكية ، ولذا رأينا عقب كل جريمة صهيونية بعض قيادات عربية تطالب الولايات المتحدة بالتدخل .

وفى كل مرة يأتى التدخل الأمريكى محبطاً لآمال المسلمين فى كل مكان ، ومن هنا يأتى دخولنا لقضيتنا الأساسية ، دور الإعلام فى نهضة اللغة العربية لأنه فى ظل هذه التبعية " العالمية" للولايات المتحدة ، وفى ظل الانكسار العربى الإسلامى كيف ينظر الإعلاميون لدورهم فى إحياء اللغة العربية ؟

للإعلام وسائله المتعددة والكثيرة أهمها وأكثرها تأثيراً هو التلفاز ثم الإذاعات وهناك الصحف والمجلات والكتب والوكالات والإنترنت والخطابة والندوات والنشرات هذه أهم وسائل الإعلام .

الواقع والمأمول " يقول : هل نحن متفقون فعلاً على ضرورة سيادة اللغة الفصحى وإعطائه المكانة اللائقة بها بوصفها لغة الدين والتراث والحضارة ؟ وبوصفها الرابط الوثيق بين أبناء هذه الأمة على اختلاف بلادهم ومذاهبهم ؟ وبعبارة أخرى . هل نحن مستعدون للتنازل عن ميزة للأمة العربية لم يعطها غيرها ؟! [1] .

وإذا حاولنا أن نجيب عن أسئلة الدكتور الضبيب ، فالإجابة مؤسفة ، فالعرب على أتم استعداد للتنازل عن تراثنا جميعه بما فيه من لغة وشعر وأدب وأخلاق وغيره لقد غرق العالم كله فى المستنقع الأمريكى ، وصب الأمريكيون عليهم أطنان من أدوات التجميل ، ليجعلوا الآخرين مقبولين لديهم . . . ولندخل إلى معتركنا .

الأجهزة الإعلامية العربية فى خطابها الإعلامى تعتمد اعتماداً كلياً على التوجه الرسمى للدولة ، وكما سبق وأشار البحث إلى حالة الرضوخ العربى ، والنتيجة إعلام ممسوخ ممجوج ، ليس فيه إعلام ولا وجهة نظر ولا توجه . . .

١- د/ أحمد الضبيب- اللغة العربية والإعلام- بحث مقدم لدورة مجمع القاهرة عام ٢٠٠١م

ويتضح ذلك- على سبيل المثال- فى استخدام العاميات المختلفة فى القنوات العربية جميعاً ، وقد كانت التلفزات اللبنانية- للأسف- رائدة المجال ، والرائد لأنه لا يكذب أهله ، فقد شاعت أقسى اللهجات اللبنانية على شاشاتهم الكثيرة ، حتى فى نشرات الأخبار التى تسللت لها العاميات وأيضاً الرسائل الإخبارية والتغطيات السياسية . . . وهى مناطق كانت حكراً على الفصحى . . .

ثم تأتى برامج المرأة فتخلو تماماً من الفصحى ، فضلاً عن خلوها من المضمون٠ وبرامج المرأة ليست مجرد كلمة يكتبها الباحث- فلغة المرأة هى لغة أبنائها ، والتأثر مباشر بينهما ، وقد حاول أحد التربويين فى الجزائر وضع المحادثة فى المدرسة الابتدائية على حسب الشائع الفصيح فى اللغة المحلية ، وإدراج ذلك ضمن المنظومة التعليمية ، وذلك لمساعدة الأطفال على التفصح ، بجوار مساعدة الأم بلغتها الرقيقة فى إكساب الطفل لغة سليمة " (١) ولكنها مجرد محاولة فردية.

ـ الاستعمار اللغوي الإنجليزي :

لقد صارت تبعية الإعلام العربى الإسلامى للنموذج الغربى شكلاً من أشكال قتل الذات ، وتقديس الآخر ، لذلك انتهى أو كاد أن ينتهى الدور المأمول للإعلام فى تحسين أوضاع اللغة العربية ، وصارت الإنجليزية هى المد القادم إلى العالم حتى تصور البعض أو قل تنبأوا بقضاء الإنجليزية على كافة اللغات ، وقد أصدر جوشوا فيشمان كتاب " هل تقضى الإنجليزية على اللغات الأخرى "

رصد فيه الكاتب ارتباط اللغة بالمصالح القومية- وهو ما لا يفكر فيه العرب ولا يعدونه شيئاً حتى فى أعز أوقات المد القومى فى الستينات لم يأخذ موضوع اللغة بجدية ولم يتعد مجرد شعارات للدعاية فقط .

ونعود لكتاب " فيشمان" والذى عرضته مجلة " وجهة نظر" (٢)

حيث يذكر الكاتب أن الإنجليزية تسهم كواسطة أو سبيل لكل شيء من الدبلوماسية إلى تنظيم المرور الجوى- مروراً بالإنترنت وأجهزة المحمول وغيره- كم تسهم البلاد المتحدثة بالإنجليزية بحوالى ٤٠% من إجمالى الناتج المحلى العالمى .

ـ مع ملاحظة أن الإنجليزية تتلو الصينية فى أعداد المستخدمين لها والناطقين بها- كما شاع الآن فى جميع دول العالم اشترط إجادة الإنجليزية للتعيين أو الترقية .

ويذكر المؤلف موقفاً غريباً حين التقى المستشار الألمانى جير هارد شرودر والرئيس الفرنسى جاك شيراك فى سبتمبر ٢٠٠٠م لم يتحدثا بالفرنسية ولا الألمانية بل بالإنجليزية .

---

١. انظر عرض الدكتور عبد الملك متاض لكتاب " اللغة العربية : إضاءات عصرية- سابق- صـ٢٢٦ . د

٢. مجلة " وجهات نظر" العدد أكتوبر ٢٠٠٠م- صـ٥٠

والإنجليزية لغة البنك المركزى الأوربى . . . وهناك مئات المظاهر لهذه العولمة اللغوية ، مبسوطة أمام الرائى ، لكنها لا تجد من يواجهها .

إن العالم كله يخطط ، ونحن نشاهد وعلى الأكثر . . . نصف ما نشاهده .

نحن مع الدكتور عبد العزيز المقالح فى قوله :

" إذا كانت اللغة العربية لغة المال ، فإن اللغة العربية لغة الروح والقلب " (١) .

والخطورة كل الخطورة فى شيوع تقديس كل ما هو غربى ، وشيوع فكرة هدم القوميات العربية والربط بينهما وبين أنظمة اشتراكية منهارة ، ثم تزامن فكرة " إعدام " العروبة مع إعلان الزحف الإسلامى على الحضارة الأوروبية بهدف تدميرها . . .

وقد تزعم جناح المبشرين بنهاية القومية العربية (ومعها اللغة الفصحى بالطبع) المستشرق اليهودى برنارد لويس ، وينقل المفكر الكبير الأستاذ / جميل مطر ما عاشه فى عواصم أوربا من اتجاه يقول " إنه لا وجود لشعوب عربية أو أمة عربية أو ثقافة عربية ، ويقولون أيضاً إن الخطر الإسلامي حقيقى وداهم ومدمر " (٢) .

ذلك لأنهم يربطون بين الاتجاه الإسلامي والمد القومى فى اتجاه الغرب ، وأصحاب الدعوة لنبذ القوميات- حتى من العرب أنفسهم- يسكتون عن اختلاف المفهوم القومى عند العرب عنه عند الأوربيين ، حيث يوجد فى الفكر القومى العربى مكون ثقافى إسلامى أساسى ، بينما ينكر الفكر القومى الغربى أو يهمل أى مكون دينى " (٣) .

وقد نجحت المخططات الغربية إلى حد كبير ، وعاونتها أنظمة الحكم العربية بدون قصد- فى تحجيم مكانة القومية العربية من جهة ووقف حركة التيار الدينى من جهة أخرى ، وقد ضرب العراق أكثر من مرة ، ودمرت أفغانستان الإسلامية ، وذبحت فلسطين وتذبح يومياً ، ولا يتحرك الشارع العربى فى أى عاصمة عربية ، بل ذكرت مجلة النيوزويك الأمريكية عدد ٢٧ نوفمبر ٢٠٠١م فى معرض رصدها لتوترات الشارع العربى عقب الحرب . الحقيرة الظالمة التى قادتها الولايات المتحدة ضد جبال أفغانستان وأطفالها وكهوفها ومشايخها ، والتى تزامن معها خروج الدبابات الإسرائيلية إلى شوارع المدن الفلسطينية- تحت الحكم الذاتى- فى فجور صارخ وتحد لكل إنسانى . . . فماذا كان رد الفعل العربى . . . "

١- د/ عبد العزيز المقالح- وسائل الإعلام والفصحى المعاصرة- مؤتمر اللغة العربية فى وسائل الإعلام- مجمع القاهرة- عام ٢٠٠١م- نسخة مصورة لدى الباحث .

٢- ٣- أ. جميل مطر- مستقبل العروبة- الهلال يوليو ١٩٩٣م- صـــ٦٤،٦٥ .

فى الأسبوع الذى ضربت فيه الطائرات الأمريكية أحد المستشفيات فى أفغانستان ، وعبرت فيه الدبابات الإسرائيلية للضفة الغربية ، كان عدد المظاهرات فى الوطن العربى صفراً . . نعم صفراً " [١] .

إن هذه الحالة لا تفسر إلا بانحسار المشاعر القومية والدينية . ومعنى ضياع الحس الدينى والقومى هى السماح بضياع اللغة العربية بمنتهى السهولة ، فى مقابل زهو النموذج الغربى ٠وقد شاع فى الصحافة العربية من ظواهر إهانة اللغة الكثير ، مثلما شاع ذلك فى بقية وسائل الإعلام .

، فإذا أمسكت مجلة أو جريدة ، فإن عملية انتهاك اللغة مستمرة ، تفاجئك مجلة الكويت بعنوان يقول :" إيقاع ووتيرة قويين فى ترسيخ هوية الثقافة العربية " عدد ٢١٨ صـ٢٠ .

وتترك الكويت لترى المجلات والجرائد المصرية ، مثلاً ملحق جريدة " صوت الأمة" واللغة العامية المبتذلة التى يستخدمها ، وغير ذلك الكثير ، مما دفع إعلامياً كبيراً مثل الدكتور / عبد القادر حاتم- وزير الإعلام السابق- لأن يصف الإعلام المصرى بأنه ذاتى ويخاطب نفسه ، ولن يصل إلى العالمية فى ظل غياب الكوادر المؤهلة " [٢] .

وقد لخصت المذيعة المغربية المتقاعدة " لطيفة الفاسى" حال المذيعات أو قل سوء حالهن من خلال معرفة وثيقة بهن ؛ تقول :- " المذيعات يلقين نشرات الأخبار ملحنة ، بمعنى أنها كثيرة

الأخطاء ، ومغناة فى نفس الوقت ، فلا نطقهن سليم ، ولا أسلوبهن مقبول ، ومن بينهن من لا تستطيع فتح فمها كما ينبغى ، والحروف تبدل ، فالظاء والضاد والدال والذال كلها

تصبح دالاً ، والموضوع ينطق المودوع ، و " أعضاء الحكومة" تنطق " أعداء

الحكومة والتاريخ ينطق " الطاريخ" وغيرها من الأخطاء الفاحشة التى نسمعها ، فالقناة المغربية قدمت استقالة من اللغة العربية التى تنتحر أمام أعينهم وهم صامتون ، وأعتقد

أنهم هم أيضاً لا يعرفون اللغة العربية ولا يحبونها وإلاً لما أصبحت مشوهة كما هى الآن " [٣] .

فإن كانت هذه شهادة مذيعة واعية ، فإن حالة الانتحار اللغوى- والتعبير للدكتور أحمد الضبيب- سوف تفضى بنا إلى تمزق لغوى فى المستقبل القريب ، إذا ظللنا على حالنا هذا .

١- نقلاً عن جريدة " صوت الأمة " ٢٠٠١/١٢/١٢م- صـ٩ .

٢- قال ذلك من خلال محاضرة بجامعة القاهرة وانظر " صوت الأمة" ٢٠٠١/١١/١٤م صـ٧ .

٣- عن جريدة " الشرق الأوسط"- عدد ٢٠٠٠/١٢/٨م صـ٢٣ .

وهم يجمعون بين الثقافة العالية والمقدرة اللغوية الواضحة ، وقد قررت الخبيرة الإعلامية نوال سرى أن " ٩٠ % من المذيعات ومقدمى البرامج لابد أن يعاد النظر فيهم " [١] .

ولا شك أن الإنترنت هو أحدث وأضخم وسيلة إعلامية ، لأسباب عديدة : أهمها سعة الانتشار عالمياً ، ثانياً كمية الحرية التى بلا حدود التى تتاح فيه وإذا نظرت للغة العربية على " الإنترنت" فيكفى أن تعلم أن هناك صفحة عربية فى مقابل ١٣ ألف صفحة إنجليزية [٢] .

مع العلم أن العربية لغة ثلاثمائة مليون عربى ، فى حين يوجد ملايين عديدة من العرب بدول أوربا جميعاً والأمريكتين .

الفضائيات ولغة المغتربين :-

وهؤلاء الذين يعيشون بعيداً عن الوطن العربى ، فى أشد الحاجة للغة العربية ، تلك التى تربطهم بهويتهم وتاريخهم ودينهم ، ولا شك أن المغترب يكون كالغريق المتعلق بأى شيء من وطنه ، وللروائى بهاء طاهر تعبير رائع قاله أثناء إقامته شبه الجبرية فى سويسرا ، قال :" أنا أعيش فى صوبة من عبير الوطن "

ولقد تابعنا بعض القنوات الفضائية العربية من خلال تعاملها مع اللغة ، فوجدنا قنوات مثل " اقرأ" تكاد تلتزم بالفصحى الميسرة ، بل تقدم برنامجاً لغوياً جيداً ، يطرح قضايا لغوية بسيطة ، ويشرحها عن طريق مشاهد تمثيلية وحوارات وبرامج كمبيوتر ، ويناقش قضايا تفيد الطلاب كما تفيد محبى اللغة ، كقضايا " الإعراب والبناء"- " التعدى واللزوم "- " أبواب المنصوبات" . . . . الـخ .

وفى تقديم البرامج الأخرى تكاد الفصحى تزدهر بها ، وهى صورة مثلى لتقديم ما التزمت به القناة فعلاً حين اتخذت شعار " نحو إعلام إسلامى هادف " وهو قريب من الجهد الذى يبذل فى قنوات أخرى مثل " المنار"- " السعودية"- قناة الأخبار العربية ، قناة النيل الثقافية المصرية . . . وغيرها .

بل أن قناة الأطفال" Spacestoon " لا تستخدم سوى الفصحى فى كل موادها على الإطلاق . هذه القنوات يميزها اتخاذها هدف ، وكذلك الفكر الذى يديرها ، وأيضاً نظرتهم لأهمية اللغة . وهى مسألة جوهرية بلا شك .

١- - راجع الدستور- عدد ١٩٩٧/٤/٢٠م- صـ١٠ .

٢- الإحصاء عن زهرة الخليج- ١٢ مايو ٢٠٠١م صـ٤٤ .

وقد ذكر الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز المقالح- الشاعر والمفكر اليمنى وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة- تجاربه مع الفضائية اليمنية وقناة الجزيرة وغيرها ، حيث يسجل ثلاث رسائل كاملة وصلته من ثلاث دول غربية ، ولنقتطف شيئاً من كل رسالة :-

[١] رسالة من كندا :-

" شاهدناك فى قناة الجزيرة فى برنامج " ضيف وقضية " أنا والأولاد ، الذين كانوا سعداء جداً لرؤيتك ، وبالمناسبة أصبحت القنوات العربية تمثل جسراً بين الوطن والمغترب ، ونحن هنا نشجع الأولاد على مشاهدة القنوات العربية فى الوقت المخصص لمشاهدة التليفزيون ، لأننا أحسسنا أن مشاهدة هذه القنوات يعمل على ردهم إلى لغتهم العربية . . . . "

[٢] رسالة من ألمانيا :-

" اسمحوا لى أن أحيطكم علماً بأن وصول الفضائيات العربية إلى الغرب قد مثل تواصلاً لكثير من من الأسر العربية المهاجرة ، بلغتهم وثقافتهم ، وقد كانت قاب قوسين أو أدنى من الانسلاخ من الهوية العربية نتيجة عدم ممارسة اللغة العربية فى أرض المهجر "

[٣] رسالة من فرنسا :-

" فالأفلام الكرتونية ، وغير ذلك من برامج الأطفال التى تذيعها كثير من الفضائيات العربية أفادت الأطفال ، حيث أصبح من المألوف اليوم سماع الأطفال يتنقلون بين الفرنسية والعربية ، بشكل ملفت للنظر ، ونأمل أن يأتى اليوم الذى يتحدث فيه الأطفال العربية دون صعوبة " (١)

ألا تشعر هذه الرسائل المسئولين عن الإعلام العربى بمدى خطورة دوره ؟

ألا تستأهل الهوية الإسلامية والعربية بذل المزيد من الجهد لتطوير إعلامنا ؟

إن خطورة التلفزة فى كونها تلقى سلبى ، لا يبذل فيه المتلقى جهداً يذكر ، بالإضافة لإغواء الصورة والصوت ، مما يشكل جهة جذب يفوق الإعلام المقروء كثيراً فى تأثيره وسرعة انتشاره .

ولهذا فإن الأخطاء الشائعة فى الإعلام لابد لها أن تختفى ، فالأخطاء اللغوية المتكررة ، تقلل من احترام المتلقى للغته ، فضلاً عن شيوع الخطأ المذاع ، ولذلك تستمع لكلمات مثل " كيان- خيار- عيان " تقرأ دائماً بفتح الحرف الأول ، وهو خطأ كما هو معروف .

وكذلك يحلو لكثير من الكاتبين والمذيعين ذكر تعبير " الأمتان العربية والإسلامية " وهو تعبير

١- دراسة الدكتور/ عبد العزيز المقالح- السابق الاشارة لها- صـ١٠-١١ .

خطير جداً ، فالعروبة- كما يرى الدكتور فاضل الجمالى- هى صلب الإسلامية وليست منفصلة عنها" (١)

قال تعالى :"إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون " كما يشير د/ فاضل لتعبير الأقمار الصناعية ، والأدق والأصح تعبير الأقمار الاصطناعية .

وكذلك والأخطر منه استعمال تعبير " قضية الشرق الأوسط " فى الإشارة لقضية فلسطين ، وهو نوع من تجهيل الملتقى ، وتهويمه ، وتمييع القضية حتى يعتاد الناس هذا اللفظ وينسون الواقع الحقيقى " الاحتلال الصهيونى" أو على الأقل " قضية احتلال فلسطين " .

ومثل ذلك تعبير " أكدت القدس . . . " .. " قالت القدس . . . " إشارة إلى رد الفعل الرسمى للحكومة الإسرائيلية ، وهو سلاح نفسى تستخدمه إسرائيل ببراعة حتى يصير اقتران القدس بإسرائيل أمر معتاد . . . .

وهو نفس الفكر الذى يشيع ألفاظ " جبل الهيكل" لتمكين واقع منتظر ، بدلاً من " الحرم الشريف" وكذلك تعبير " يهوذا والسامرة بدلاً من الضفة الغربية لنهر الأردن " وكذلك" أمن اسرائيل" و " معاداة السامية " . . . إلـخ .

إن هذه الألفاظ التى يقصدها الإعلام الغربى ، وينفذ ببراعة خططاً موضوعة ، ترمى إلى غايات أبعد ، ونحن فى غفلة عن كثير مما يدبر لنا . . . .

وهناك من يتهمنا- نحن العرب المسلمين- بالشعور بالمؤامرة علينا من كل الشعوب ، غير أن فكرة المؤمراة حقيقية بآلاف الدلائل ، آخرها ما يفعله الآن الإعلام الغربى ، والأمريكى على وجه خاص ، وقد ذكر الفنان جمعة فرحات أن قناة أمريكية اتصلت به لإجراء حوار معه ، باعتباره من أفضل رسامى الكاركاتير أصحاب الفكر ، وجاءوا واستمر الحديث معه نصف ساعة ، وكذلك مع الإعلامى حمدى قنديل ، وحين أذيع الرنامج تم اختصار هذه اللقاءات إلى أقل من دقيقة ، حيث اختصرت المحطة الحوار إلى كلمة واحدة هى " نعم" ووضعوا قبلها سؤالاً هو :" هل تحض على كراهية أمريكا ". وهذا الغش العلنى الذى قامت به محطة N .B.C الأمريكية صورة مصغرة للواقع الإعلامى الغربى الذى يكرس مفاهيمه ومبادئه وقيمه الخاصة ، ويلقيها علينا .

ـ الدراما وعوالمها :-

ثم لنتحدث عن لغة الدراما على سبيل المثال ، وهى فى مجملها لغة تساير

١- د/ فاضل الجمالى- دفاعاً عن العربية- سابق- صـ١٠١ .

الواقع ، فمعظم المسلسلات والسهرات والأفلام التليفزيونية والمسرحيات المذاعة تستخدم اللهجات المنتشرة فى البلاد العربية المختلفة ، وقد وجدت صعوبة شديدة فى متابعة لغة المسلسلات والدراما عموماً التى تمثل باللهجات ، ولذلك فإن انتشار اللهجة المصرية فى الدول العربية مرجعها إلى الإعلام بشكل عام ، وإلى تفوق الدراما المصرية الكمى وإلى ريادتها الزمنية ، بصرف النظر عن الرسالة الإعلامية المبثوثة من خلال العمل ، وأيضاً اللغة المستخدمة ومستواها ، والشكل البلاغى فى المستوى اللغوى المستخدم ، حتى أن الحديث من هذه الدراما ، هو المسئول مسئولية مباشرة عن شيوع ألفاظ شبابية تافهة ، تعبر عن انعدام أى حس داخل قلوب صناع هذه الأعمال الرديئة فى لغتها (مستوى ولفظاً)

وألفاظ مثل " طحن- روش- روشنة- ادينى ميساج " رسالة"- كده أو كيه- يللاَّ باى- داكور- مخمصاك (بدلا من مخصماك)- بيبى- بخ- كشكشها . . . . إلـــــخ صارت أمرا واقعا٠

بالإضافة لعشرات بل مئات الألفاظ التى صارت متبادلة فى أوساط الشباب فى مراحل التعليم المختلفة (إعدادى- ثانوى- جامعى) .

ورحم الله أيام المنتديات الفكرية ، والندوات الشعرية ، ومجلات الحائط ، والمطبوعات الجامعية ، إننا مهددون بالبوادر ، مهددون بالانهيار ، مهددون بالقطع من الجذور تماماً ، والذوبان فى مجتمع مختلف ، أثبت فى كل مراحله أنه لا يريد لنا خيراً ربما من قبل الاحتلالات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية ومروراً بمذابح دنشواى والإسماعيلية وجميلة بو حريد وملايين الشهداء فى معارك كثيرة ضد أعداء لم نسيء إليهم . . . . . .

نهاية الأمر- قبل أن نتحدث عن المستقبل- أن اللغة جزء من تكوين الذات ، والذات هى حاضرنا ، وإن لم نلحق هذا الحاضر ، فقل على المستقبل السلام .

هـــل مـــن أمـــل ؟!!

" حينما كنا فى لندن كانوا لا يتسامحون معنا فى الخطأ حين نتحدث الإنجليزية ، رغم أنها ليست لغتنا"

د. عبد العزيز المقالح

يبدوا الاحتياج للإعلام كعلاج مساعد لأمراض اللغة شديداً ، ومن المؤكد أن منهج العمل الإعلامى جزء من العمل السياسى العام ، ومعنى ذلك أن الدول فى سيعها للنهوض تستخدم كل إمكاناتها ، وإن كانت اللغة اللغة تبدو عاملاً مستتراً من عوامل النهوض ، فإن مسألة الهوية تأخذ حيزاً لأهم ، ومسألة الهروب من فخ العولمة تأخذ حيزاً أكبر وأكبر . . . . .

ذلك أن طبيعة العصر التى حولت علومه ومعارفه إلى مبدأ مادى يخضع لقانون العرض والطلب ، جعلت- والحديث للأستاذ/ عبد الله بن خميس- الطلب متجهاً كل الاتجاه إلى علوم العصر ومعارفه " [(١)] .

ولهذا صار الاهتمام بالقضايا اللغوية محصوراً على بعض دور العلم والمجامع اللغوية ولهذا فأول الحلول الصادقة هو أن يشعر الإعلاميون بالدور الرهيب الذى يجب أن يلعبوه فى سيادة لغة الأمة العربية فى بلادهم .

يجب على الإعلاميين الاعتزاز بلغتهم ، والسعى لتطويرها عبر الوسائل الآتية :-

(١) التخطيط الإعلامى :- وقد صار ضرورة لا مفر منها فى هذا الزمان الذى تحول فيه الإعلام لأداة ، بعد ما سقطت الأقنعة الزائفة المدعية للحرية ، واكتشفنا أن كل جهاز إعلامى يبثمادة مصنوعة بعناية لتوجيه الرأى العام ، ولهذا فإن التخطيط لأهدافنا العربية لابد أن يتم بأقصى سرعة ، بعيداً عن الصورة الساذجة القديمة فى فترات الاشتراكية والتى شهدت إعلاماً موجهاً على نحو مقبول فى وقتها .

(٢) ضرورة التدقيق الشديد فى اختيار المذيعين ، وكذلك المعدين المسئولين عن كتابة البرامج المبثوثة بالفصحى ، وذلك لتجنب الصياغة الرديئة التى لا تتكرر . وقد سجل الباحث رسالة صوتية لمراسلة التليفزيون المصرى فى أمريكا ، وأثبت فيها أكثر من عشرين خطأ كأن تقــول: " أكـــد مصـــدراً . وأشـــار إلـــى أن تحقيـــق بهـــذا الخصـــوص . . . إلـــخ . ولماذا لا يوجد مدقق ومراجع لغوى لكل قناة أو لكل برنامج ، مثلما نجد فى دور النشر . إن المذيع المثقف والمعد الواعى هما من أصحاب أخطر دور إعلامى . . . وقد فوجئ الباحث

١- عبد الله بن خميس- وسائل الإعلام والفصحى المعاصرة- مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ٢٠٠١م- نسخة مصورة من الدراسة لدى الباحث- صـ١ .

أثناء برنامج اسمه " المنار الصغير" على المنار الفضائية ، تمت إذاعته مساء الخميس ٢٠١٠/١٢/٢٧م بمقدمة البرنامج تحدث الأطفال عن قصة المسيح عليه السلام ، وتخبرهم أن القرآن الكريم فيما معناه يقول إن عيسى قال إنى أعبد الله لأنه جعلنى مباركاً مشيراً إلى قوله تعالى :" قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً وجعلنى مباركاً أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً " مريم (٣٠-٣١)

ولا شك أن القرآن حين يروى بالمعنى وبدون دقة فهذه مصيبة ، حين يكون هذا للأطفال فالمصيبة أكبر .

إن المذيع شخصية مؤثرة ، يتم تقليدها والتأثر بها فى النطق والألفاظ ولهذا يجب الاهتمام بلغة المذيع اهتماماً بالغاً .

(٣) تكثيف البرامج اللغوية ، والتى تتناول القضايا اللغوية ، وأشهر الأخطاء ، والتنبيه عليها : وذلك لأن حجم البرامج فى الإذاعة المصرية مثلاً لا يتجاوز " أبجد هوز" ومدته دقائق قليلة و " قطوف الأدب كلام العرب " و " شعر وموسيقى" و" قل ولا تقل" وهى برامج مقبولة ، لكنها لا تكفى ، ولا تشير للأخطاء الشائعة مثل نطق المذيعات والمذيعين الذين يخنقون حروف المد فى الكلمة فتسمع :" البرامج الأسسية " بدلاً من الأساسية و" البرنامج التعلمى " بدلاً من التعليمى كذلك الصيغ الخاطئة :" الزعيم . . . يصل أمس فجأة إلى القاهرة " [1] .

أو كاف التشبيه التى لا تفيد تشبيهاً ولا تعليلاً كقولهم :" أنا كأستاذ للمادة أرى . . ." . . فضلاً عن أخطاء أخرى لا تحصى ، وكذلك الاهتمام بشكل ومضمون البرامج التى تساهم فى تعليم اللغة ، وتطوير أسلوبها بحيث تكون على قدر من الجاذبية والوعى والفائدة .

(٤) الارتقاء بأسلوب الكتابة الصحفية ، مع الحرص على وضوحها ، واستخدام اللفظ العربى ، وتذكير الكتاب بهذه القضية بشكل دائم ، خاصة مع كثرة الألفاظ الغربية المستخدمة فى المقالات المقدمة لرجل الشارع المواطن البسيط ، وقد تلاحظ تكرار ألفاظ بعينها فى المقالات والدراسات من نوعية : (تكنواوجيا- جيولوجيا- سوسيولوجية- يوتوبيا- رومانسية- بلشفية- راديكالية- إمبريالية- كونفدرالية- أكاديمية- تكنوقراطية- ببليوغرافية- استاتيكية- فانتازيا- ميلودرامية- بورقراطية- كلاسيكية- مكياج- تورتة- بدروم- المينى والسوبر ماركت- المودرن- لوكس- ريموت-كربونات- باتيناج- فيزا- باسبورت- ترانزيت- كاريكاتور- جنرال . . . الخ

١- انظر د/ تمام حسان- اللغة العربية والحداثة- مجلة فصول- ابريل ١٩٨٤م- صـ١٢٩ .

ولم يسلم كتاب- يفترض أنهم أنهم شعبيون من استخدام الألفاظ اللاتينية والغربية ،على الرغم من كتابهم لمستويات شعبية عامة ، ورغم توجههم الاشتراكى- مثلاً- أوغير ذلك من التوجهات ، فإن مستوى الطرح يكون معقداً ، فضلاً عن استخدام المصطلحات السياسية الأجنبية ، وقد طالعنا كتباً كثيرة تستخدم هذا الأسلوب ، ففى كتاب الأستاذ/ صلاح عيسى " الكارثة التى تهددنا" ولنقرأ مثلاً :

" أن فهم الظاهرة البرجوازية هو أعقد مهام المستقبليين العرب برغم أن نصف قرن قد انقصت- كذا- على ظهور المادية الجدلية . . . .

فنحن أمام تأكيد جديد على ما سميناه الاختراق البرجوازى لصفوف الأيديولوجية الماركسية . . .

وربما لهذا السبب فإن الطبقات والأولجاركيات المسيطرة على العالم العربى...[١]

إذن الدعوة لتبسيط لغة الصحافة ، ليس معناها تتفيه المضمون ، وإنما الإقلال من كم المصطلحات الغربية ، ومراعاة الجانب الثقافى لدى المتلقى .

(٥) الدعوة لتطوير الخطاب الرسمى ، والاهتمام بلغته وصحة هذه اللغة ، مع الأخذ فى الاعتبار أمر هام جداً ألا وهو سيادة الفصحى العفوية فى الاستخدام العام للإعلام ، وفى الخطاب الرسمي بصفة خاصة .

ومسألة سيادة الفصحى العفوية أمر هام جداً بسبب كونه دعوة ضمنية لانتشار الفصحى الميسرة ، وقد استمعنا لكلمة الدكتور وزير التعليم فى افتتاح الدورة الحادية والستين لمؤتمر مجمع اللغة العربية قال فى بدايته :

" يوم أعز ، يوم لقائكم ، سدنة لغة القرآن الكريم ، ودوماً أسعد بلقياكم وأعتبر يوم اللقاء بكم يوماً مشهوداً وفى العقل مذكوراً وفى الفؤاد أثيراً . . كيف لا و . . . . . . "[٢] .

هذه اللغة المنمقة المجملة المصطنعة ، أتى بها قائلها كنوع من مراعاة مقتضى الحال ، لأنه يخطب فى " مجمع الخالدين الساهرين على حفظ اللغة "

ولذلك فهذه اللغة غير موفقة وغير مؤثرة . .

فى حين تأتى لغة الأمين العام للمجمع د/ شوقى ضيف- وفى مناسبة تأبين- لغة مباشرة وموضوعية :-

---

١- الكارثة التى تهددنا- مكتبة متبولى- مصر- ١٩٨٧م- صـ٨-١٠ .

٢- راجع الخطاب منشور بمجلة المجمع نوفمبر ٩٦ صـ٩ جـ١

" الدنيا ليست بدار قرار ، إنما هى دار كون وفساد ، وجسر ممتد إلى طريق الموت فكل حى إلى فناء مهما طال البقاء " [١] .

نقول هذا الكلام لأن الخطاب الرسمى له أهمية خطيرة جداً ، فالمسئول " مهما كانت صفته ورتبته يؤثر على سامعيه ومشاهديه بنطقه وصوته وفصاحته " [٢] .

ولسنا نعد الوزراء والقادة ومن فى مستواهم معلمين للغة ، ولكن القائد الذى لا يحترم لغته

، يعد أسوأ دعاية لاهمال اللغة ، ومن العجيب أن تجد القادة اليهود يستخدمون العبرية كثيراً وهى لغة لا تقارن بالعربية على أى مستوى ، فى الوقت الذى يقل استخدام القادة العرب للعربية ، خاصة فى المحافل الدولية .

إن معركة مثل أحداث سبتمبر ٢٠٠١م التى حدثت فى الولايات المتحدة ، يمكن النظر لها على أنها معركة لغوية بلاغية بشكل ما . لقد خرج الرئيس الأمريكى فى بداية الحدث وقال : إن حرباً تشن على أمريكا "

ثم يردف " إن الحرية تتعرض اليوم للاغتيال . . .

إن المعركة لغوية فى المقام الأول وبلاغية أيضاً ، ولذلك حرص " بوش" على موافقة العالم كله على حربه ، وكانت وسيلته هى اللغة التى قلبت الحقائق فى بلاغة متناهية ، وجاءت ردود " بن لادن" فى لغة أخاذة مؤثرة . . .

لذلك نأمل أن يقدر أهل الحكم فى الدول العربية المسئولية المزدوجة الملقاة على عواتقهم ، فظهور رئيس عربى يلحن فى لغته يعنى صعوبة اللغة من ناحية ، وعدم احترامه لها من ناحية أخرى ، وإذا كان رب البيت بالدف ضارب . . . . . .

ويشير أ.د/ أبو القاسم سعد الله إلى سيادة خطاب رسمى محترم ، يحترم لغته وأهله فى الوطن العربى ، لكننا نقصد إلى الوزراء وأعضاء مجالس الشعب والشورى وأساتذة الجامعة وغيرهم ممن يؤثرون فى مستمعيهم ، لذا وجب علينا التنبيه .

(٦) العمل على سرعة إنشاء قنوات عربية للعرب فى الخارج ، بحيث تكون معنية بهم وبهمومهم ، وبوصلهم بوطنهم ولغتهم ، خاصة الأطفال المعتربين .

١- راجع عدد نوفمبر ٩٦- جـ٢ .

٢- انظر د/ أبو القاسم سعد الله- بحث مقدم للمجمع ٢٠٠١م ، ولدى الباحث نسخة مصورة منه .

وقد كانت قناة " العالمية" التابعة لراديو وتليفزيون العرب واسطة عقد وجوهرة التاج فى هذا المضمار ، غير أن قضية اللغة الواحدة تظل عائقاً ، فلماذا يترجم التليفزيون المصرى برامج " NILE T.V " وهى محلية غارقة فى مشكلاتنا ، ولا نجد الانجليزية التى تخاطب الغرب حاملة الفكر العربى ، وقد شاهدنا من خلال بعض حلقات قناة " العالمية" بعض المغتربين الذين أبدوا كامل استعدادهم للمساهمة فى إقامة قناة إسلامية

عالمية تنطق بالعربية والإنجليزية والفرنسية والأمر يتوقف على دعم الحكومات .

(٧) مقاومة هجوم الإنجليزية والفرنسية : من خلال التصدى للتغلغل الرهيب للإنجليزية فى كل مناحى الحياة من دراسة وإعلام وبعثات وتقنية . . . الـخ .

والتصدى إلى الفرنكفونية ومخططاتها التى يغلفونها بأكاذيب التسامح الثقافى ، والتواصل وغيره .

إن رئيس المجلس الأعلى للغة العربية فى الجزائر- الدكتور : عبد الملك مرتاض يقرر بوضوح

كامل " إن الفرنكوفيلية " (*) نزعة أجنبية من غاياتها تدمير الثقافة العربية ، ومعها كل المقومات الحضارية الوطنية " (١) .

والفرنكوفونية تنتشر فى البلاد التى سبق لفرنسا أن احتلتها ، وقد عقدت بلبنان ما أسمته " القمة الفرنكوفونية" استضافت فيها تسع وعشرين دولة ، ولذلك فوجود ثلاثين رئيس دولة للدعوة إلى حضارة ما أمر مخيف ، لماذا لم يجتمع الرؤساء والملوك العرب للدعوة لحضارتنا نحن ؟

لماذا لم يجتمعوا للنهوض بلغتنا الملقاه على قارعة الطريق ، ومشارح الأخطاء القاتلة ؟

إن هؤلاء الذين ينادون بتعددية لغوية ** لم يفكروا فى الدعوة لإجازة العربية ذاتها ، فالفرنسية- رغم كل ما قيل عن التسامح الحضارى والحوار التاريخى- تظل لغة محتل ،

---

* الفرنكوفيلية مصطلح يدل على مجموعة قيم تعنى بحب فرنسا والتعلق بها ، كما تعنى الدفاع عن لغتها ، والتمسك بحضارتها وثقافتها ، والحرص على تبنى تقاليد عيشها " أ.هـ والفرنكوفيلى كما تدل المعاجم الفرنسية على معناه : هو كل متفان فى حب فرنسا ، معجب بتقاليد العيش لدى أهلها " أ.هـ .

انظر د/ عبد الملك مرتاض : مجلة العربى- عدد ٥١٥ أكتوبر ٢٠٠١م- صـ٦٨ .

١- السابق- صـ٦٧-٦٨ .

** انظر كلمة د/ بطرس غالى- مجلة العربى أكتوبر ٢٠٠١م صـ٨ .

وبتعبير الدكتور محيى الدين عميمور فإنه " رغم كل الادعاءات ، فقد كان تجهيل الجزائريين هو أهم أهداف الاستعمار الفرنسى [1] .

وقد كان الهدف هو محو العربية من وجدان المغرب العربى ، تمهيداً لقطع علاقتهم بدينهم ، للتسليم فى النهاية أن الجزائريين- مثلاً- قد انتسبوا للعروبة لأنهم مسلمون .

ولذلك فإن فرنسا المتسامحة- قلعة الحرية والاستنارة تمنع دراسة العربية فى مدارسها ، ولذلك فهناك ٣٤ ألف تلميذ يدرسون اللغة العربية فى المساجد ، وكما تقول صحيفة " لوموند" إن كل اللغات تتقدم فى فرنسا بينما العربية هى وحدها التى تتراجع ، نتيجة العراقيل التى تضعها فرنسا فى وجه تعليم العرب للغتهم . [2] .

خلاصة القضية فى سؤال : لماذا نتهاون فى لغتنا إلى هذه الدرجة .

(٨) زيادة الاهتمام بثقافة الطفل :-

يسود تعبير " التنشئة الثقافية للطفل " كثيراً من الدراسات الاجتماعية التى ترصد المؤثرات العامة فى الطفل ، وكيف يتلقى معلوماته الأولية، وكيف يتأثر بالأم ورياض للأطفال وأجهزة الإعلام على الترتيب .

ورغم الاهتمام " الشكلى " الرسمى بالطفل ، منذ أعلنت الأمم المتحدة عام ١٩٧٩م عاماً للطفولة، ثم إعلان عن عقد الطفولة فى مصر ، فإن النتاج على المستوى العالمى ليس بالشكل المقبول ، وينخفض رد الفعل فى مصر عن العالم المتحضر ، ونحن نقر بالدور الجيد الذى قامت به الدولة فى حماية صحة الأطفال ، ووقايتهم من الشلل ، ولكن الاهتمام بهم ثقافياً لا يزال يخضع للجهود الشخصية الفردية غير المنظمة أو المدعومة ، حتى إذا نظرنا إلى مجلات الأطفال فى مصر نجد أهمها :" سمير عن دار الهلال- ميكى عن دار الهلال- علاء الدين عن الأهرام- قطر الندى عن هيئة قصور الثقافة.

بالنسبة لمجلتى ميكى وسمير وتطوراتهما مثل ميكى جيب وكابتن سمير ، فالمشكلة الكبرى هو قلة التطوير ، وعدم بث رسالة إعلامية حقيقية ، بأسلوب يتعامل مع طفل أجبرته معطيات العصر على التعامل مع مرحلة ما بعد " أمنا الغولة" وحكاياتها . . . .

وربما تحقق هذا قليلاً فى " علاء الدين" ولكن يظل الجهد قليل ، رغم الإمكانات الخطيرة لمؤسسة الأهرام . و" قطر الندى" مفتوحة على مصراعيها للشعر العامى الركيك والحكايات الساذجة .

١- د/ محيى الدين عميمور- الجزائر: القنبلة اللغوية العنقودية- العربى- عدد٥١٥- أكتوبر ٢٠٠١م صـ٦٠ .

٢- السابق- صـ١٢ عن اللوموند عدد ٢٢ يناير ٢٠٠١م .

والجيد فيها قليل ، ثم جاءت مكتبة الأسرة بداية من عام ٢٠٠٠م وأصدرت " روائع الأدب العالمى للأطفال" بسعر زهيد (خمسون قرشاً) .

وقد أخرج بعضها علامة من عظماء مؤلفى الأطفال هو الأستاذ/ عبد التواب يوسف .

وبين أيدينا بعض الكتيبات مثل " القط والشيطان" لــ" جيمس جويس" وهى قصيرة جداً ، بل مجرد رسالة من جويس لصديقه " ستيفى " يبدأها بقوله :" أرسلت إليك قطاً مليئاً بالحلوى منذ أيام قليلة " [١] .

والحقيقة أن الباحث يقر أنه لم يفهم معنى عبارة " قطاً مليئاً بالحلوى" فلا تفسير لها فى أحداث القصة البسيطة التى تدور عن محاولة أهل " بوجينسى" بناء جسر ، ويعرض الشيطان على عمدة القرية أن يبنى لهم الجسر فى مقابل امتلاكه لأول شخص يعبر الجسر ، ويوافق العمدة ، وينفذ الشيطان وعده ، وفى الصباح دفع العمدة بقطة فى اتجاه الشيطان ، الذى غضب غضباً شيطانياً ...

ولغة المترجم صافية بسيطة أنيقة يقول " لم يكن هناك جسر (أو كوبرى) وأيضاً :" وأمسكت كل امرأة بلسانها (أى سكتت) [٢].

وهو اتجاه مقبول ، غير أن التراث العربى يحمل روائع لا تنتهى ، فلماذا سكت عنها المترجم ؟!

ولننتقل قبل " أسماء حكيم" فى قصتها " العنزة الجميلة ذات الكحيلة" [٣] .

وبصرف النظر عن إعادة روايتها للحكاية الشعبية الشهيرة عن الذئب والماعز فإن الخلط المشين بين الفصحى والعامية أفسد القصة، فضلاً عن عدم معرفتها للفرق بين " المعز" و" العنز" ظانة أن معناهما واحد .

رغم أن " معز" يدل على اسم جنس والمفرد منه ماعز والجمع مواعز وليس " معزات" كما ذكرت أما عناز فهى أنثى الماعز [٤] .

إن كتب الأطفال فى حاجة ماسة لمراجعة وتصفية وتنقية بلا شك .

وتثقيف الطفل من خلال التليفزيون والراديو وغيرهما من الوسائل السهلة فى التلقى لابد لها من تغيير الفكر المستورد الذى تبثه مع ضرورة زيادة نسبة برامج الأطفال ، ومراعاة الفروق العمرية بين طفل ما قبل المرحلة الابتدائية وطفل المرحلة ، ثم طفل المرحلة الابتدائية وطفل المرحلة

١- ٢- جيمس جويس- القط والشيطان- ترجمة عبد التواب يوسف- مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠م صــ١٩-٢٧ .

٢- انظر أسماء حكيم- بنورة الأمورة- كتاب الهلال- فبراير ٩٤ .

٤- السابق وانظر مقالات أ/ فؤاد حجازى فى الأهرام المسائى ١٩٩٦/٦/١٩م ومجمعة بكتاب أوراق نقدية الصادر عن إقليم شرق الدلتا عام ١٩٩٨م وانظر معاجم اللغة .

الابتدائية ، ثم طفل المرحلة الابتدائية المتقدمة ، ثم الطلائع .

فمن خلال إحصاءات اتحاد الإذاعة والتليفزيون ، فإن التليفزيون المصرى قدم عام ١٩٩٠م على قنواته الأربعة ٣٨ برنامجاً للأطفال تمثل حوالى ٨.٣١% من إجمالى ساعات إرسال التليفزيون المصرى فإذا تأملنا شهراً واحداً على قناة معينة ، فقد حمل شهر يوليه ١٩٩٢م فى ا لقناة الأولى برامج " كتاكيت- صباح الخير- عروستى- مساء الخير- كرتون- أغانى- القراءة للجميع- طفل القرية- الصيف والسياحة وحكاية من حكايات دباديبو- أوبريت للأطفال- سيرك- أغانى- أفلامكرتون- استعراضات- فوازير فطوطة- مسلسل بوجى وطمطم- حلقة من مسلسل كوكى كاك- مغامرات البطة دوناتة- مغامرات جى آى جو- مسلسل وازلز- فيلم يابانى . . .. . إلخ [1] .

وكما يبدو من خلال الإحصاءات والتحليل السابق ، فإن النظرة إلى التليفزيون وعلاقته بالطفل ، لا تزيد عن كونه وسيلة ترفيه ليس إلا . . . .

والمعروف أن الإعلام يكون إما رسالة توعية وتثقيف وإما للترفيه والتسلية وتمضية الوقت . . . وقليلة هى البرامج المقدمة للأطفال التى يعدها معدون يدركون طبيعة المرحلة السنية التى يتوجه لها ، ، والرسالة التى يحملها لهم . ولن نطيل غير أن الإعلام كوسيلة لعلاج القصور اللغوى ، لا يزال قاصراً جداً .

١- عن هناء السيد محمد- التليفزيون والتنشئة الثقافية لطفل الريف- العربى للنشر والتوزيع- مصر- عام ١٩٩٩م- صـ٦٩ .

ـ التعليم . . وتطوير الكتابة (مجرد إشارة)

يعانى التعليم فى كافة مراحله من أمراض خطيرة للغاية ، لعلَّ أخطرها ما يمكن أن نسميه " فلسفة التعليم " والمقصود منها المبادئ والأهداف المطلوب تحقيقها من العملية التعليمية [1] حيث يفتقد التعليم هذه السياسة ، فالتعليم- بجوار المنزل والمسجد والإعلام والشارع- عوامل بنائية أساسية تشخصية الطفل والانسان عموماً.

وقد أشار الباحث للموضوع فى أجزاء متعددة سابقة ، غير أننا لم نعط للتعليم حقه كوسيلة لتطوير اللغة : نطقاً وكتابة .

وقد تعلمنا ذات يوم على مربين أصحاب رسالة تربوية ، أعطونا من علمهم وقراءتهم ، وفتحوا مداركنا على المكتبات ، فانطلقنا نفهم ونناقش ونجادل ونتعلم . .

ولذلك فالمدارس- فى الاطار الوظيفى الذى وضع فيه- لا يستطيع إلا ترديد منهج فقير فى وقت فقير، لطالب فقير روحاً وجسداً .

والمحصلة تعليم فقير مهما تجمل بأردية مصنعة من الكمبيوتر والقنوات التعليمية ونظام التعليم عن بعد [فيديوكونفرانس] .

ولن تنهض العربية إلا بنهضة التعليم ، ولن ينهض التعليم إلا بتغير النظرة إلى المعلم والعملية التعليمية ذاتها . . . .

ورغم دخولنا لدوائر ومجازر ومجاهل العولمة ، فإن نسبة الأمية فى الوطن العربى مازالت رهيبة ، حيث يشير تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٩م إلى أن موقع الدول العربية فى التعليم فى الترتيب ما بين ٤١-١٢٠ من ترتيب دول عددها ١٧٤ دولة .

ونسبة الأمية فى الدول العربية ٥٣.٦% وهى نسبة مرعبة حقاً خاصة إذا علمنا أن معدل القيد فى مراحل التعليم الثلاث لا يتعدى ٥٤% والمخيف أكثر أن نسبة القيد فى التعليم للفئة من ١٨- ٢٣سنة لا يزيد عن ١٣% كمتوسط فى الأقطار العربية ، مع العلم بأن متوسط نسبة الحاصلين على تعليم جامعى عال من مجموع السكان لا يتجاوز ٦% [2] .

وقد أدى هذا التراجع الرهيب فى مستويات التعليم فى العالم العربى إلى انخلاع العرب عن منظومة التقدم فى العالم ، وظلت المشكلة فى استهلاكنا للتكنولوجيا وعدم انتاجها ، وانتشار النموذج الاستهلاكى الشره .

١- د/ سعيد اسماعيل على- محنة التعليم فى مصر- كتاب الأهالى- مصر- ١٩٨٤م .

٢- عن مقال الدكتور حامد عمار- نحو تعليم المستقبل- مجلة العربى- عدد يناير ٢٠٠٠م- صـ٥٣ . د

ولننقل بألفاظ شيخ التربويين حامد عمار- قوله " وهنا أذكره- يعنى القارئ- بما انتشر لدينا من سلع الكوكلة والبسبسة (شراباً) والكنتكة والمكننة (طعاماً) والكجولة (لبلساً) والجاكسونية (غناء) وأشرطة الكليبات (سماعاً) والمحمول (تواصلاً) ونزعات الفردية والعنف (سلوكاً) والقروض والمعونات (تمويلاً) [1] .

إن المنتظر من التعليم كثير ، وإسهاماً فى التنمية البشرية بشكل عام لا غنى عنه ، من خلال الأبعاد المعروفة :-

١- البعد الأفقى : بمعنى أن يستظل الجميع بمظلة التعليم .

٢- // الرأسى : أى إتاحة أطول مدة تعليمية للمواطن .

٣- العمق فى العملية التعليمية : وهى مسألة مضمونية سنعود لها .

٤- البعد الاجتماعى الثقافى .

وبالنسبة للعمق فى العملية التعليمية ، فيتأتى من خلال تكوين الإنسان الكلى وفى الشمول المعرفى وتنمية التفكير وتوظيف مختلف الأساليب والطرق ومصادر المعرفة .

ورغم كثرة الدراسات التربوية حول إصلاح التعليم ، فلا تزال سلطة التغيير فى أيدى أصحاب القرار ، الذين- إن أرادوا تغييراً- عهدوا به إلى من يريدونه ، وهؤلاء يغيرون تغييراً عميقاً حقاً مثل تغيير منهج النحو فى الصف الثالث الإعدادي ، فتم نقل محتوى الترم الثانى إلى الأول والعكس صحيح . يبدو أن هناك علاقة عكسية بين ضعف التعليم ، وبين عدد الدراسات التربوية .

ولأن إصلاح التعليم عموماً يأتى منه إصلاح شئون اللغة ، فان النظرة المقصودة والمطلوبة لإصلاح التعليم لابد أن نبدأ فيها على الفور ، لبعث عملية التعليم المكون لشخصية الفرد والباعث على التمسك بهويته .

ورغم محاولة إظهار التعليم المصرى بالمتطور من خلال بعض المظهريات المتمثلة فى :-

أ- زيادة مدة الدراسة من خلال تطبيق نظام اليوم الكامل .

ب- إدخال أجهزة الكمبيوتر والدش للمدارس .

جـ- الاهتمام بحصص الموسيقى والحاسب الآلى والتربية الرياضية .

ء- الاهتمام بتحويل المدراس إلى وحدات إنتاجية .

هـ- التشديد على المواعيد والتحضير والأمور الورقية بشكل عام .

١- السابق- صـ٥١ بختصار .

نقول رغم هذا وغيره ، فلا يزال التعليم المصرى متخلفاً عن نظم التعليم فى العالم أجمع .

فالتعليم المصرى يفتقد للديمقراطية فى جميع مراحله ، ويحرم الطالب من حقه فى التفكير الخالص فى كافة الأمور ، وقد نتج عن ذلك حرمان الطالب من ذكر رأيه فى اتحادات الطلاب فى المدارس والجامعات ، فكان النتاج شباب اليوم الذين لا تلهيهم تجارة ولا علم عن احتذاء النموذج الغربى فى أتفه ما فيه .

ولذلك لم تعد المدارس والجامعات معامل تفريخ لشباب يحب دينه أو وطنه أو تاريخه أو لغته .

بل صارت معاهد لتخريج العاطلين الفاسدين المسفدين ، واقرأ هذه الإحصائية المخيفة :" ثلث التلاميذ فى المدارس الثانوية (بنين) منحرفون ، وخمس الطلاب الجامعيين منحرفون " [1] .

وإن كانت هذه الإحصاءات تزيد عن عشر سنوات فما الحال الآن ؟

وحين يكون المتحدث هو الدكتور مصطفى سويف فإن السمع واجب . . يقول :-

" المدرسة مؤسسة اجتماعية ، وتعليم النشء وتربيته هما شقا الوظيفة الأصلية التى من أجلها أنشئت هذه المؤسسة " [2] .

ويبدو أن الكل تكاتف عليها (أى على المؤسسة التعليمية) فتم استغلال هذا الحشد سياسياً على مدى عقود طويلة ، أما الذى ضاع- والتعبير للدكتور سويف- فهو المدرسة كمؤسسة اجتماعية ، ومع ضياع الكل المتمثل فى المدرسة ، ضاعت الأجزاء (الامتحان- المواظبة- الاحترام- التقديس للرسالة- تقدير العلم والمعلم . . . . . . الـــخ .

والقضية الأخطر فى النظام التعليمى لدينا هو نسيان المضمون على حساب الشكل ، فمثلاً قضية الاهتمام باليوم الكامل نتيجتها ساعتان من الفراغ الحقيقى لدى الطالب كل يوم ، يتم تفريغها فى المعارك والجرى واللعب وتكسير الأثاث المدرسى ، بدون أى خدمة إضافية للطالب .

ممثلاً القنوات التعليمية والتى ينفقون عليها الملايين ثم تبث من خلال أجهزة استقبال رقمى غالية الثمن ، فلماذا لا تقدم هذه الخدمة من خلال المحطات الأرضية ؟

لقد استطاع التعليم الأزهرى قديماً أن يقود مسيرة ضخمة ، سار فى ركابها قادة ومفكرون ، وانتقل الأزهر من الدعوة الدينية للدولة الفاطمية إلى مركز علم وفقه وتعليم منذ شهر صفر عام ٣٦٥هـ فى أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمى . . . .

١-٢- د/ مصطفى سويف- انحرافات الطلاب لماذا- مجلة الهلال- ديسمبر ٩٣- ص٣٠-٣٧ .

ـ طبيعة التعليم الأزهرى :-

على يد القاضى أبى الحسن على بن النعمان بدأت الدراسة النظامية فى الأزهر الشريف حين قرأ مختصر أبيه فى فقه آل البيت ، ثم اعتمد الجامع الأزهر على أكابر علماء المغرب أمثال : القاضى ابن أبى عبد الله محمد بن النعمان وكذلك أبو حنيفة النعمان القاضى [1]. بن كلس وزير المعز لدين الله يجلس فى الجامع الأزهر ويقرأ على الناس كتاباً فى الفقه ، سمى بـ" الرسالة الوزيرية" وهو صاحب كتب فى آداب الرسول ﷺ وفى القراءات ، ويهمنا فى أمر الزير يعقوب أن استأذن الوزير الفاطمى (العزيز بالله) عام ٣٧٨هـ فى أن يعين بالأزهر جماعة من القراء الفقهاء للدرس ، يحضرون مجلسه ويلازمونه ، وكان عددهم سبعة وثلاثين فقيهاً . ورتب لهم أرزاقاً حسنة ، وأنشأ لهم داراً للسكن كان بداية لنظام الأورقة الشهير . ورغم أن هذه البداية الأزهرية جاءت بما يشبه المصادفة ، حين أتاحها وزير مستنير وأمير عاقل ، فإن الأزهر ظل بعدها قروناً مصدر علم وفقه وجهاد وتأثرت حركة العلم سلباً وإيجاباً مع حركة السياسة فى هذا العصر وما بعده ، حيث وجدنا فى عهد المستنصر بالله حالة من الغلاء والقحط ، مما أدى لعجز الدولة عن رعاية دور العلم ، فهلكت تلك الجذوة العلمية المشتعلة ، حتى عادت مع عودة الروح للحياة السياسية فى البلاد . [2]

وقد توزيع اهتمام الأزهر بين قسمين :- " علوم الدين" و" علوم اللغة" ، حيث أنشأت الدولة منصب " مراقبة لغة الإنشاء" وعينت له بعض رجال الأزهر الشريف ، وفى داخل الأزهر نفسه ، تميزت الدراسات اللغوية تميزاً واضحاً ، ويبدو ذلك جلياً فى قراءة أسماء مؤلفات مشايخ الأزهر وحتى فى عصور الفقر والقحط كان الاهتمام باقياً ، مثلما رأينا فى مؤلفات أبى الحسن طاهر بن أحمد المشهور باسم " ابن بابشاذ" تولى ديوان الإنشاء فى عهد " المستنصر بالله" وألف" المقدمة" فى النحو وكذلك المقدمة المحسينية فى فن العربية وأيضاً " شرح الجمل " الذى اختصر فيه كتاب النحو " للزجاجى" وله كتاب الأصول الذى يقال أن أصوله قاربت خمس عشرة مجلدة "[3].

١- انظر أ/ محمد محمد الحسينى- الأزهر وعلوم اللغة العربية- مجمع البحوث البحوث الإسلامية- عام٢٠٠١م- صـ١٨ .
٢- انظر خطط المقريزى جـ٢ صـ١٦٩ وتاريخ الجامع الأزهر صـ٨٣ والأزهر وعلوم اللغة العربية- صـ٣٤ .
٣- الأزهر وعلوم العربية- سابق- صـ٣٩/٣٨ .

إن أسلوب التعليم الأزهرى قديماً قد صقل الدارس نحوياً ولغوياً وهيئه لصقل غيره ، وإن كانت عيوب هذا الأسلوب معروفة الآن لدينا فى الاهتمام بالحفظ دون الفهم الخالص ، والنزوع للمتون القديمة والشروحات العتيقة ، واهمال التجديد فى الفنون النحوية واللغوية . فإن ذلك كله لا يلغى الدور الهام الذى لعبه التعليم الأزهرى فى المحافظة على اللغة وتراثها العتيق ، والإضافة إلى هذا التراث . كذلك لم نستفيد نحن من مزايا هذا التعليم ، وصارت مناهج اللغة العربية هشة ضعيفة ، لماذا ؟ لأنهم فصلوا أجزاء اللغة عن بعضها فالنحو لا يرتبط بالنص الأدبى ، والنص الأدبى لا يرتبط بالبلاغة العربية الأصيلة ولهذا صار حال المعلمين ليس أفضل كثيراً من أحوال المتعلمين .

فإن كان هناك أمل فى أن يقوم التعليم بتطوير أسلوب الكتابة ومعالجة مشاكل الإملاء ، فلا أقل من إعادة وضع منهج متكامل للإملاء العربية والتوقف عند مشكلات الهمزات ، والبحث عن سبل لتبسيطها ، وتسهيل استخدامها لطلاب العلم الذين فقدوا القدرة على الصبر فى تحصيل العلوم .

وليت المجمع العلمى العظيم يبحث لنا فى بعض مشكلات الكتابة وتعقيداتها ولنكتفى بطرح مثال واحد ألا وهو إثبات همزة " ابن" وحذفها حيث اشترطوا لإثباتها مواضع معينة عددها الشيخ ناصيف اليازجى فى " مجمع البحرين" قائلاً :-

قد أثبتوا ألف ابن فى مواضع من
كلامهم كابنة . خذها بتصوير
إذا أضيف لإضمار رضى ابنك
أو لجده مثل عمار ابن منصور
أو ذى مجاز كمقداد بن الأسود
أبوه بالحق " عمرو" غير منكور
أو أمه نحو عيسى ابن البتول سما
أو كان فى خبر يحيى ابن مشهور
أو كان مستفهما عنه كقولك هل
زيد ابن عمرو أم ابن القاسم الصورى
أو كان تثنية كالمرتضى وأبو
خديجة ابنا على مشرق النور
أو عكس ذلك بأن قدمت تثنية
كالخالدان ابن يسر وابن ميسور

أو جاء الابن بغير أسم تقدمة

نحو ابن موسى وزيد وابن مذكور

وقد اكتفينا ببعض المواضع ، وتركنا ثلاثة عشر موضعاً أخرى لاثبات همزة " ابن" أو بالأدق ألف ابن . . .

ولا أدرى سبباً لإصرارنا على هذا التعقيد فيما لا يحتمل التعقيد ، فلماذا لا ينظر مشايخ المجمع الأجلاء فى إباحة اثبات الألف مطلقاً

. . . .

إن إصلاح قضايا الكتابة من حروف مد وهمزات وضبط وغيره يحتاج لجهد كبير يبدأ من علماء اللغة حتى يصل إلى أبواب المدرسة .

تعريب العلوم

قراءة أعمق لظاهرة متداولة

[*إضاءات*]

- يروى الدكتور/ إسحق الفرحان عضو مجمع اللغة العربية الأردنى أنه كان بصحبة وزير التربية الأردني فى حفل للسفارة الكورية ، فسأل الوزير سفير كوبا فى الأردن قائلاً له :- بأى لغة تدرسون الطب الهندسة والعلوم فى بلادكم ؟

فلم يجبه السفير الكورى . فكرر الدكتور إسحق الفرحان السؤال عليه ، فرد السفير قائلاً : وهل هذا سؤال يسأل . . بالكورية طبعاً !! (عن مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزء ٧٩)

* * *

أليس غريباً أن يدعوا عربىٌ فى بلد عربى أمته إلى التعريب ؟!

د/ فاضل الجمالى عن كتاب " دفاعاً عن العربية "

* * *

" لم يبق إذن فى ساحات العمل المثمر- إلا هؤلاء الذين يؤمنون بلغتهم على أنها المعبر الوحيد للايمان بالوجود العربى والحفاظ عليه والدفاع عنه "

د . شكرى فيصل

عن كتاب " فى سبيل العربية " للدكتور محمد الخياط

تعريب العلوم . . نظريات جديدة :-

يكاد تاريخ العرب المسلمين كله أن يكون صورةً مثلى من صور التعامل مع الآخر، أخذاً ورداً ، تأثيراً وتأثراً.

بداية من أفكار بسيطة فى بدايات الدعوة ، كاستجابة النبي ﷺ لفكرة طرحها " سليمان الفارسى" بقوله " كنا نخندق حول أنفسنا " فأمر النبى المسلمين بحفر الخندق .

ثم دخول ألفاظ غير عربية فى الخطاب الدينى ، وحتى انتشار الفتوح الإسلامية وظهور عملية المزج بين الأمم . .

ونتج عن هذا تأثير بالغ الوضوح فى الأمور المعيشية للمسلمين بما وجدوه عند الفرس على سبيل المثال ونتج تأثر بالآداب اليونانية والسريانية والرومية والفارسية ، رصدها أحمد أمين باستفاضة فى فجر الإسلام

ولأن ما يعنينا هو حركة التعريب ، فقد جاء العصر العباسى ، فرأينا " العلوم الدنيوية تفيض فيضاً فى المملكة الإسلامية ، فتترجم الفلسفة اليونانية ، بجميع فروعها من طب ومنطق وطبيعة وكيمياء ونحو ورياضة ، وتترجم الرياضة الهندية ، والتنجيم الهندى ويترجم تاريخ الأمم من فرس ويونان ورومان غيرهم(١)

وأول ما يمكن أن نسميه نقلاً هو عمل حكيم آل مروان- خالد بن يزيد بن معاوية- الذى " أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ، ممن كان ينزل مدينة مصر ، وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة [الكيمياء] من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى " (٢)

ولم يكن خالد بن يزيد كيميائياً ، وإنما كان محباً للعلم ، فاضلاً فى نفسه ، وقد أجرى تجارب كيميائية

وكان أول من كتب شيئاً فيها من العرب ، فله كتاب الحرارات وكتاب الصحيفة الكبير والصغير ، حتى أنه صنع ديوان شعر فى الكيمياء ، كقوله :

هى الصنعة المضروب من دون نيلها
من الرمز أسوار تشيب النواصيا
ولكنها أدنى إذا كان عالماً
إلى المرء من حبل الوريد تدانياً

١- ضحى الإسلام جـ ٢ — صـ٨ .

٢- الفهرست للنديم صـ ٣٣٨ نقلاً عن دراسة الدكتور بدوى- طبانة " الترجمة والمترجمون فى كتاب الفهرست" المنشورة بمجلة مجمع اللغة العربية جـ ٧٩ نوفمبر ١٩٩٦م صـ٣٩ . مع الإشارة للقب الصحيح لصاحب الفهرست وهو النديم وليس ابن النديم كما أثبت د. طبانة ذلك

٣- وعلى العموم لم تقف اللغة حجر عثرة فى وجه ترجمات الكيمياء الأولى ، حتى وإن ظلت الكيمياء ترتبط بدايدتها بالسحر ، مما دعا " ابن خلدون" لأن ينكر ثمرتها ، ويعنون حديثه عنها بقوله : " فصل فى إنكار ثمرة الكيمياء ، واستحالة وجودها وما ينشأ من مفاسد عن انتحالها " (١)

ويبدو أن فكرة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة قد سيطرت على عقل الكيميائيين (٢) وهو ما جعل ابن خلدون يربط بين علم الكيمياء وبين النصابين والسحرة واللصوص .

ثم كانت جهود المأمون خلال خلافته من ١٩٨ هـ والذي كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات ، فكتب إليه يسأله الإذن فى إنقاذ ما تبقى من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم .

ولم يكن الملك متساهلاً ، فلم يجبه لطلبه إلاَّ بعد امتناع وتمنع ، وحين وافق ، أخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وغيرهم فجاءوا بطرائف الكتب ، وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثماطيقى والطب

. . . .

وقد قام العلماء بتشجيع نقله العلم والبذل لهم وقد ذكر النديم فى " الفهرست " أسماء من نقلوا هذه المترجمات وأهمهم ابن المقفع الذى ترجم " كليلة ودمنة " و" مزدك" الذى يتضمن سيرة مزدك الزعيم الدينى المشهور وكتاب " التاج فى سيرة أنوشروان " وغير ذلك

وكذلك ترجم جبلة بن سالم كتابين فى السير وكتاب " أفستا" لزرادشت . . . . .

ونحن فى حل من ذكر ما ذكره الدكتور أحمد أمين فى " ضحاه " جـ١ نقلاً عن الفارسية والرومية والهندية واليونانية ، بل والنبطية . . .

وإذا نظرت فى " تهذيب الحيوان" للجاحظ ، وجدته يعنون مقالته بـ" شرائط الترجمان" أوضح ضرورة تمكن المترجم من اللغتين معاً ، حتى يكون فيهما سواء وغاية (٣)

١- المقدمة- صـ٣٨٨ .

٢- وبسبب ذلك كان رأى " ابن خلدون " قاسياً على هذا العلم فهو يظن أن كل المشتغلين به من السحرة واللصوص والكاذبين والمتسولين لدى الأغنياء يوهموهم بقدرتهم على تحويل المعادن ذهباً .

وربما كان من المفيد إلى إمكانية تحقيق هذا الأمر علمياً حيث استطاع العالم الأمريكى " دمبستر" أن يحول الزئبق إلى ذهب ، بواسطة بعض التعاملات النووية ، والتى تتلخص فى إطلاق بروتونات ذات طاقة كبيرة ، لطرد بروتون من نواة الزئبق بشحنته [٨٠] منتجاً الذهب بشحنته [٧٩] ولكن التكلفة تزيد عن سعر الذهب الحقيقى ربما مئات المرات وقد ورد هذا الكلام فى كتاب مطبوع بلندن عام ١٩٣٩ عنوانه A short History of chemistry لمؤلفه بارتنجتون ونحن ننقله عن د / يمنى الخولى- بحوث فى تاريخ العلوم عند العرب- دار الثقافة- مصر- ١٩٩٨م .

٣- تهذيب الحيوان- تحقيق عبد السلام هارون- ط مكتبة الأسرة عام ١٩٩٩م صـ١٢ .

ولم يشر واحد من السابقين لصعوبة صادفت مترجماً فى نقل كتب أصحاب اللغات الأخرى ، مع اختلاف الفكر والطبائع والعلوم والاهتمامات ، بل مع طبيعة الزمن المنغلقة فى هذا الوقت المبكر .

إن جواً علمياً رائعاً قد سيطر على العالم الإسلامى فى هذا الوقت ، فكتاب " العبارة" أو " بادى ارمنياس" نقله حنين إلى السريانى ، ونقله إسحاق إلى العربى ، وفسره الإسكندر الأفروديسى ، وأيضاً اصطف وكذلك فسره يحيى النحوى وإمليخس وفرفريوس وجالينوس وأيضاً فسره متى بن يونس الفارابى .

وقد اختصره حنين وإسحاق وابن المقفع والكندى وابن بهريز وثابت بن قرة والرازى [1] .

فهل احتفت أمة بالكتب مثل احتفاء المسلمين بها ؟ !

إن حركة التعريب النشطة لم تتوقف فى العصر العباسى عن التقدم والاستمرار ، ولم تتوقف الترجمات على علم أو فكر معين يناسب الفكر الإسلامي مثلاً .

وقد كان للمأمون دوره البالغ الأهمية فى الدعوة للترجمة ، بل فى الأمر بها ، وليس بعيداً أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز- رضى الله عنه- قد أمر " ماسر جويه" بترجمة كتاب " أهرن القس " فى الطب ، وأيضاً جهود المنصور فى البحث عن أطباء من مدرسة جنديسابور حتى إهتدى إلى " بنى نخشيشوع" الذين كان لهم شأن فى نشأة الدراسات الطبية العربية ، وإسهام فى حركة الترجمة الكبرى . وكذلك قام- فى عصر المنصور- عبد الله بن المقفع بترجمة الكتب التى أشرنا إليها منذ قليل، وتبدوا بغداد هكذا تفور وتمور بحركة الترجمة ، يبدأون فينقلون من اليونانية عبر لغة وسيطة هى السريانية ويمر زمن قصير ، فيتأكدون من وجود فكرة أعظم وهى الترجمة من اليونانية مباشرة ، فيتجهون لها . . . . . .

ولم يكن المترجمون مجرد نقلة ، بل علماء أفذاذ . . . فعلى سبيل المثال كان يوحنا بن ماسويه طبيباً نابغة ، فعهد له هارون الرشيد بترجمة ما وجد فى كتب الطب القديمة فى أنقرة وعمورية وغيرهما، ثم جعل بين يديه كتاباً مهرة ، وجعله أميناً على الترجمة ، وبذلك تحولت الترجمة من مجرد هوى قد يصادف الخليفة وقد يعرض عنه إلى مؤسسة من مؤسسات الدولة وليس بعيداً ما سبق من تعريب للدواوين فى عهد ابن مروان وأيضاً نجد حنين بن إسحاق العبادى- شيخ المترجمين فى الإسلام- نجده طبيباً متمكناً من عمله ، متقناً للسريانية والفارسية ، بل يرحل إلى بلاد الروم ، ويقيم سنتين فى بيزنطة ، يتعلم اليونانية ويحفظ أدبها حتى يتم حفظ إلياذةهوميروس ، ثم ذهب إلى البصرة وإلى

١- الفهرست- عن بدوى طبانة- سابق- صــ٤٣ .

علم الأعلام الخليل بن أحمد فيأخذ عنه فنون العربية ، ويتصل- بعد ذلك بالمأمون- فيجعله رئيساً لديوان الترجمة ، وقد ترجم كتب بقراط وجالينوس.

وهناك ثابت بن قرة كان رياضياً وقسطا بن لوقا البعلبكى أحصى له النديم فى الفهرست خمسة وثلاثين كتاباً من اليونانية إلى العربية . . . . [١]

وذلك وغيره كثير- تحفل به بطون الكتب القديمة- يدل دلالة واضحة على صلاحية العربية فى التعبير عن العلوم أدق تعبير وبأيسر شكل ، طالما توفر لها عشاق ينافحون عنها ويدفعون أدران حاول الغرب لصقها بها .

١- فى هذا الموضوع كتب كثيرة وقد استفاد البحث على الخصوص من :-

ــ أحمد أمين- فجر الإسلام وضحى الإسلام فى جزئين- سابق .

ــ د.ابراهيم مدكور وآخرون- أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية- هيئة الكتاب- مصر- ١٩٩٧م .

ــ د. محمد هيثم الخياط- فى سبيل العربية- دار الوفاء- مصر- ١٩٩٧م .

ــ د.بدوى طبانة- الترجمة والمترجمون فى كتاب الفهرست- بحث منشور فى مجلة المجمع جـ٧٩ نوفمبر ١٩٩٦م .

العربية . . . لغة العلوم :-

من المحـاولات السـاذجة المدعيـة لتطوير العربيـة وتحويلهـا مـن لغـة علمية محاولة سلامة موسى .

وقبل أن نخوض مع الخائضين فى شرف هذه اللغة العظيمة ، نتوقف مع مسلَّمة بسيطة غايـة فـى البساطة وهى أن كل لغة طبيعية تصلح لكل استخدام . . .

ويبدو أنها جرأة غير مأمونة العواقب ، ولكن على الأقل هناك ثمانى لغات أساسية يستخدمها أكثر من نصف سكان الأرض وهى :-

١- الصينية :- مليار و ٢٠٠ مليون متكلم .

٢- الإنجليزية ٤٧٨ مليوناً

٣- الهندية ٤٣٧ مليوناً

٤- الأسبانية ٣٩٢ مليوناً

٥- الروسية ٢٨٤ مليوناً

٦- العربية ٢٢٥ مليوناً

٧- البرتغالية ١٨٤ مليوناً

٨- الفرنسية ١٢٥ مليوناً [١]

نقول أن أى لغة شائعة من مثيلات هذه اللغات قادرة على تطويـع بنيتها وتطوير ألفاظها لتكون وعاءً للعلوم فى أىِّ عصر من العصور .

بعبارة أخرى المشكلة فى مستخدمى اللغة وليس فى اللغـة ذاتهـا ، ولـو شئناً اتباعاً لكلمـة الإمـام محمد عبده " الإسلام محجوب بالمسلمين " لقلنا " العربية محجوبة بالعرب" .

وهذه الفكرة تراود الباحث منذ سنوات ، وقد ناقش فيها أستاذاً عبقرياً فى اللغة هو الدكتور شوقى ضيف أثنـاء لقاء بمكتبـه بمجمـع الخالـدين ، وحالـت ظروف العلامـة شوقى ضيف الصحية دون الاستفاضة فى الشرح والإفهام . . . .

ولكننى وجدت عبارة جامعة للدكتور عبد السلام المسدي بقوله : -

" ما من لغة من لغات البشر إلاَّ وهى فى ذاتها مهيأة بالطبع والجبلة لاستيعاب

١- انظر الموسوعة الإنجليزية Dorling Kindersley الصادرة عام ١٩٩٧م بلندن ونحن ننقل ذلك عن مجلة الفيصل- العدد٣٠٠ صفحة ٢٨ .

الصوغ الدلالى الجديد عن طريق التوليد الاصطلاحي المستحدث ، وإنما القدرة أو القصور فى أهل اللغة ، لا فى اللغة ذاتها " [١]

فإذا عدنا لسلامة موسى ، وهو ممن يختلف حوله كثيراً ، فأمامنا كتابه الصغير :" ما هى النهضة" وهو يربط بشكل مباشر بين النهضة بعمومها وبين اتخاذ الصناعة كأساسٍ للحياة العصرية ، ويصل بذلك الأساس إلى قضايا اللغة ، يقول :" وأنا أفهم شيئاً واحداً ، واحدٌ ليس له ثان ، هو أن الأوربيون [كذا] سادوا فى الماضى ، ويسودون فى الحاضر ، لأنهم قد أخذوا بالصناعات الأولية " [٢]

ثم يربط التقدم الحضارى بالثقافة ، فهى تسبق الحضارة وتؤدى إليها ، لأنها [أى الثقافة] بمثابة الفكرة والحضارة بمثابة الروح " .

ثم يشير إلى دور اللغة فى حركة النهوض الحضارى فاللغة هى التى يتفاهم بها الشعب ، فإذا استعصت على الفهم أو إذا صعب تعلمها ، أو إذا عجزت عن الأداء العصري ، فإن كل شئ بعد ذلك يستعصى على الأمة ما لم تنبذ لغتها ، وتتخذ لغة أخرى [٣] .

وقد عقد " موسى" فصلاً مضحكاً سماه " كلماتنا العربية الأوروبية " ظننت أنه سيبحث عن الكلمات العربية فى اللغات الأوروبية ، فوجدته يفعل العكس فيرى أن كلمة السيف يونانية وقد عدت لجميع الألفاظ اليونانية المعربة التى أوردها الخليل بن أحمد فى " العين " فلم تزد عن عشر ألفاظٍ هـــى : - " قالب- السندس- الملك- المصتطكى- النطورية- الهيول- قيطون- النطاسى- الشِّلق- قسطوس" [٤]

ويرى أن القنص [الصيد] كلمة يونانية بمعنى كلبة وأن كلمة " انكدر" بمعنى انقض هى " انكيديرا" اليونانية إلخ . ألم نقل فصلاً مضحكاً ؟! ألم يذكرنا بمقولة القائلين أن " شكسبير" عربى الأصل واسمه الحقيقى هو " الشيخ زبيرا" ؟! .

وفى حديثه وبحثه عن اللغة العلمية ، ألقى سلامة موسى تبعية تخلفنا العام إلى استخدام اللغة العربية ، وهى ـ كما يظهر فى مكان آخر من هذه الدراسة- دعوة متجددة واحدة بألسنة حداد يسلقون بها متحدثى هذه اللغة ، فيتحدث عن الرقى المأمول حين " نعيش العلمية حيث تستند الحقائق إلى لبيانات لا إلى العقائد [ما أخطر هذه العبارة]

١- د.عبد السلام المسدى- فى علاقة العلم بجهازه الاصطلاحي- مجلة سطور- سبتمبر٩٨- صـ٨٠ .

٢- سلامة موسى- ما هى النهضة- هيئة الكتاب- سلسلة المواجهة- مصر- عام ٩٣- صـ٩١ ويبدو الخطأ طباعياً، ذلك أن لغة سلامة موسى سليمة من مثل هذه الصغائر .

٣- السابق- صـ٩٧ .

٤- د.مصطفى إبراهيم- الألفاظ المعربة فى معجم العين- سابق- صـ٣٢٨ .

فيجب أن تكون لغتنا علمية وثقافتنا كوكبية ، وكتابتنا لاتينية " [1] .

ويبدو أن " سلامة موسى " قد خنقته اللاتينية خنقاً ، فلم تترك له سبيلاً حتى للتوازن ، والحقيقة المجردة تصلح لإعادة تقييم كتابات سلامة موسى وغيره حيث تجد فيها فخامة الفكرة مع تفاهة النتاج ، وتضارب الأفكار وسذاجة التشابه ، فأعط كتاباً لأحد المتحمسين لأمثاله ، ودعه يقرأه منزوع الغلاف بدون ذكر لاسم صاحبه ، وسيراها كما رآها أستاذنا العلامة محمود شاكر مجرد "أباطيل وأسمار" [2] .

ولنعد للغة العلمية التى يريدها :" إن كتب المطالعة فى المدرسة والبيت يجب أن تتناول موضوعات البيولوجيا والإجماع والتراجم والكيمياء والفلكيات والاقتصاد والصناعة ، بدلاً من مقطوعات أدبية من كتب العرب قبل ألف أو خمسمائة سنة " ويقترح نماذج من اللغة العلمية ، وكيفية كتابة العبارات من خلال البيان والبديع العلميين .

كأن تقول :-

- اللغة هى الجهاز العصبى للمجتمع .
- خوف الغارات قد نفذ إلى جميع مسام المجتمع .
- يمشى فى تثاقل روماتزمى .
- يعانى تخمة ذهنية .
- كان مذهب التطور من أعظم الخمائر الاجتماعية .
- الاستقلال هو بؤرة الاشتغال الوطنى .
- الطاقة الموطرية فى الكلمات . . . .الخ [3] .

ولا فائدة من الإطالة ، ويبدو أن التعصب حجاب وليست المعاصرة ، فقد عمى سلامة موسى عن تعبيرات تدور على ألسنة الكتاب بكثرة بالغة مثلى :" نبض المجتمع وحس العربية ، وغشية الدوار ، وأخذة المفاجأة ، وسراب الوهم والمناخ الفكرى وقطب الجماعة وإعصار التتار إلخ ، وقد ذكرت

هذه التعبيرات بذاتها العالمة الجليلة الراحلة عائشة عبد الرحمن فى معرض مناقشتها البديعة لأفكار موسى ، وقد نبهته لورود هذه اللغة [التى يسميها اللغة العلمية] فى كتاب الله عز وجل فى مثل قوله تعالى :- " أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم " محمد(٢٣)

١- سلامة موسى- البلاغة العصرية- المطبعة العصرية بالفجالة- صـ٢٣- نقلاً عن د/ بنت الشاطئ- لغتنا والحياة- دار المعارف- ١٩٧١م .

٢- ما أمتع قراءة " رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا " الصادرة للشيخ محمود شاكر- كتاب الهلال- عدد ٤٤٢- أكتوبر ١٩٨٧م " وأباطيل وأسمار" مطبعة المدنى عام ١٩٧٢م ففيهما فكر واضح ، وانتماء خالص وتصويب للمفاهيم .

٣- باب اللغة العصرية- صـ٧٥ .

" أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف " ابراهيم (١٨)

" أو كظلمات فى بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور " النور (٤٠)

" يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار " النور(٤٣)

وغير ذلك من الآيات المحكمات التى تلتمس تشبيهاً بأمر من أمور الكون الطبيعية ، وتعلق العالمة الجليلة قائلة :-" فأين من هذه الآيات المحكمات تجرثم الفكرة ، وقاطرة التاريخ ، والطاقة الموطرية ، هل قدم الأستاذ سلامة موسى حلاً لأزمة اللغة العربية واللغة العلمية ؟ [1]

. . . .

إن ما سنورده بعد قليل لهو الدليل الواضح البين على صلاحية اللغة العربية للتعبير عن العلوم نهياً إليها :-

---

١- لغتنا والحياة- دار المعارف- ١٩٧١م- صـ١٤٣ .

العربية لغة العلوم :-

بشـهادة علمـاء غربيين ، تسـتطيع وأنـت واثـق الـرأى ، مطمـئن البـال ، أن تنسب نهضة العرب العظيمة إلى الإسلام ومن ثم تستطيع أن تنسب نهضة الغرب إلى العرب .

وقد قال " جوستاف لوبون" فى كتابه الشهير " حضارة العرب" إن العرب قد بلغوا من المدينة درجة عظيمة لم تبلغها شعوب الأرض"

ويقول " همبولدت" :" إنه ينبغى علينا أن ننظر إلى العرب باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية"

ولنعد إلى " لوبون" وقوله :" ما من مؤلف أوربى حتى القرن الخامس عشر إلاَّ وعلمه منقول عن علوم العرب [1] .

ولنترك منهج النقل ، ونبحث فى طبيعة الكتب العربية فى عصر النهضة ، لنجيب عن سؤال :- " هل استطاعت العربية أن تكون لغة العلوم ، وأن تعبر عنها ، وأن تستوعبها على مدى عصورها ؟!

وقد انطلق العلماء العرب بعد عصر الترجمة وإبانه فى كل مجالات العلوم من القرن الثالث الهجرى ، فاحتملت العربية كل مجالات العلم بكل مصطلحاته وأفكاره . ولنبدأ مع جابر بن حيان الأزدى الطوسى المتوفى سنة ١٩٨هـ ، فهو الأمام الذى خرجت من رحابه كل كيمياء العرب ، بل إن برتيلو(١٨٢٧- ١٩٠٧م) وهو عالم فرنسى- يرى فى كتابه La chimie au moyenage أن " كل الكيميائيين من بعد جابر إما ناقلين عنه أو معلقين عليه " [2] .

وقد استخدم جابر- فى هذا الوقت المبكر- المنهج التجريبى القائم على الاستقراء والتجربة والعلم يقول فى كتابه " الخواص الكبير" إننا نذكر فى هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط دون ما سمعناه أو قيل لنا أو قرأناه ، بعد أن امتحناه وجربناه " أ.هـ

وهذا المنهج القائم على التجريب هو أسلوب جابر ، حيث اتخذ أسلوب الفقه الإسلامى فى علوم الحديث من حيث الجرح والتعديل فيقول " الجرح لك لازم إن فرطت فى طلبة " وإذا تأكدنا على استخدامه الرائع للاستدلال التجريبى منهاجاً وتطبيقاً ، ننتقل إلى تطويع اللغة للكيمياء ، وانظر مثلاً

١- مثل هذه الآراء وغيرها المئات أوردها زكريا هاشم فى كتابه آراء فلاسفة وعباقرة الغرب فى الإسلام- المكتبة الثقافية- رقم ٤٣٣ مصر عام ١٩٨٨م- صفحات مختلفة .

٢- عن " بحوث فى تاريخ العلوم عند العرب" سابق- صـ٧٩ وتنسب الدكتورة يمنى الخولى لابن خلدون تعبير" علم جابر" وللحق فالتعبير ورد فى المقدمة ضمن قصيدة شعر ليست لابن خلدون- راجع المقدمة فى حديثها عن الكيمياء أو السيمياء .

لتعريفه للكمية ،حيث يقول " الكمية هى الحاصرة المشتملة على قولنا الأعداد مثل عدد مساو لعدد ، أو عدد مخالف لعدد ، وسائر الأرطال والأعداد والأقدار من الأوزان والمكاييل وما شاكل ذلك " (١) . وعلى ذلك استخدم جابر اللغة استخداماً عبقرياً ، حيث رأى أن اللغة مسايرة لطبائع الأشياء ، ولذلك رأى أن يكون لكل حرف ما يقابله من هذه الطبائع ، فالحرارة أ.هـ والبرودة و ى . . . . الـخ وفى كتابه " التصريف" تفاصيل هذا التساوق بين الحروف والطبائع ، ولذلك يخص الدكتور عبد الأمير الأعسم ، جابراً بالريادة الزمانية فى وضع المصطلحات ، حيث كان كتابه " الحدود" لغة اصطلاحية ازدهرت وقامت بدور كبير فى نشأة المصطلحات عند العرب " (٢) .

ولذلك عرفت أوربا كتب جابر بالعربية ، حيث ترجمها إلى اللاتينية أ. ج- هولميارد عام ١٧٦٨م وطبعت بالألمانية ثم بالفرنسية عام ١٩٢٨م وكذلك بالإنجليزية ترجمها راسل فى لندن عام ١٩٢٨م ، ونشر له بول كراوس كتاب الحدود وغير ذلك وقد أحصى الدكتور محمود المقداد مئات من كتب العرب المترجمة إلى الفرنسية متناً وترجمة بأيدى كبار العلماء الفرنسيين .

أما البيرونى- أبو الريحان محمد بن أحمد (٣٦٢هـ - ٤٤٠هـ) فكان خوارزمياً صاحب عقلية علمية متألقة ، وهذه الأوصاف أطلقها عليه المستشرق الألمانى العلامة إدوارد ساخا فبعد أن حقق بعض كتب البيرونى عام ١٨٨٧م قال :" إنه أعظم العقول التى عرفها التاريخ كما وصفه أرثر بوب إنه " من أعظم العقول المفكرة وعلى مستوى كل العصور (٣) .

وفى مسألة اللغة عنده ، فقد عرف البيرونى الخوارزمية وهى لهجة من التركية ، وعرف العربية والفارسية والسنسكريتية واليونانية والسريانية والعبرية ولكن رأى العربية توءماً للدين الإسلامى وأشار قائلاً :" ديننا واللغة العربية توأمان ، يرفرف على أحدهما القوة الإلهية وعلى الآخر اليد السماوية " ثم ينهى هذا الكلام فى مقدمة كتابه " الصيدلة فى الطب"

قائلاً " والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية " (٤) .

فإذا أراد مريدٌ أن يتتبع الكتب العربية التى ترجمتها أوربا فى عصورها الأولى ، نذكر له القليل ونحيله فى الهامش للكتب التى فصلت ذكر المسألة بكاملها .

فعلى سبيل ، نقل جيرار كتاب الخوارزمى [أبو عبد الله محمد بن موسى المتوفى سنة ٢٣٦هـ — إلى اللاتينية فى أوائل القرن الثالث الهجرى وهو كتاب " الحساب والجبر والمقابلة" .

١- الاقتباسات من " بحوث فى تاريخ العلوم عند العرب"- سابق- صـ٧٥-٩٠ .

٢- د. عبد الأمير الأعسر- المصطلح الفلسفى عند العرب : دراسة وتحقيق- هيئة الكتاب- مصر- ١٩٨٩م- صـ١٦٤ .

٣- عن- بحوث فى تاريخ العلوم- سابق- صـ١٣٢ .

٤- السابق- صـ١٣٨ .

وجيرار الكريمونى نفسه هو الذى ترجم موسوعة " الحاوى لصناعة الطب" لأبى بكر الرازى المتوفى عام ٣١١هـ وتحمل أقدم نسخة عربية منه فى أوربا تاريخ عام ١٢٨٢ بمخطوطات المكتبة الوطنية فى باريس .

وترجم Vall] فال] إلى اللاتينية كتاب " الجدرى والحصبة " للرازى عام ١٤٩٨م كما ترجم للغات كثيرة .

وفى نفس هذا العقد ترجم كتاب " كامل الصناعة الطبية " لعلى بن العباس المتوفى سنة ٣٨٤ وطبع فى البندقية عام ١٤٩٢م .

وكتاب " الأدوية البسيطة " لابن الوافد ، ترجم اللاتينية نحو خمسين مرة ، وكتاب التصريف للزهراوى ت ٤١١ هـ وقانون ابن سينا ونزهة المشتاق للإدريسى ومفردات ابن البيطار والقائمة طويلة [1] فهل مازلنا فى حاجة إلى اثبات أن العربية لغة تصلح للعلوم ؟!!

١- لمن أراد تفصيلاً : راجع : لغتنا والحياة للدكتورة عائشة عبد الرحمن- العلم عند العرب لألدوميلى ترجمة د/ عبد الحليم النجار والدكتور محمد موسى / طبعة دار القلم- القاهرة ١٩٦٢م ود/ توفيق الطويل (العرب والعلم فى عصر الإسلام الذهبي- النهضة العربية- ١٩٦٨ ومن الكتب التى اهتمت بالمؤلفات العربية المترجمة إلى لغات الغرب أيضاً :-

- قدرى حافظ طوقان- تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك- لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة- ط٢ عام ١٩٥٤م .
- د/ توفيق الطويل- فى تراثنا العربي والإسلامي- سلسلة عالم المعرفة- الكويت- رقم (٨٧) عام ١٩٨٥م .
- د/ جلال محمد موسى- منهج البحث العلمى عند العرب- دار الكتاب اللبنانى- عام ١٩٧٢م
- د/ محمد عبد الرحمن- الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب- دار عويدات- بيروت- ط٢ سنة ١٩٨٨م .
- أ. ابراهيم مدكور وآخرون- أثر العرب والإسلام فى النهضة الأدبية- هيئة الكتاب- ١٩٨٧م
- د/ محمود المقداد: تاريخ الدراسات العربية فى فرنسا- عالم المعرفة عدد ١٦٧- نوفمبر

- وقفة عجلى مع المصطلح وتطور الاهتمام به :-

ونخص بذلك التاريخ الحديث ، لنتعرف من خلال هذا المبحث على طبيعة المشكلات القائمة أمام ترجمة وتعريب المصطلحات العلمية . بل الترجمة بشكل عام .

وبداية . . .لابد من الإشارة إلى أن الصعوبة الأولى التى تواجه المصطلح العلمى وهى انهيار الصرح العلمي العربي الإسلامي ، وتحول المسلمين من إنتاج العلم إلى استهلاك التقنية ، وعلى هذا فالنظر فى قضية المصطلح اللغوي ، بل قل فى انهيار اللغة بشكل عام لا يصح إلا من خلال النظر فى عوامل التخلف الحضاري المتحكم فى الأمة العربية المسلمة . . . . .

وتقف جهود محمد على باشا [١٧٦٩-١٨٤٩] منارة مشرقة فى مسيرة التعليم المصرى ، وربما نستطيع أن ننسب ذلك بثقة إلى عقلية " محمد على" النادرة الناظرة لما وراء حجب الأيام ، ونحن لا ندرس النوايا ، بل ندرس الأفعال مهما كان مقصوده ، ذلك أن البعض يرى فى محمد على مجرد " جندى ألبانى" والبعض يرى فيه صانع نهضة مصر ، وعلى أى حال فقد كانت الحملة الفرنسية صاحبة إضاءات علمية أخاذة ، فكما هو معروف أن نابليون بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١) قد اصطحب معه فى حملته الحربية إلى مصر طائفة من أهل الفنون والعلوم .

بلغ عددهم مائة وستة وأربعين عضواً . منهم علماء أفذاذ ، على سبيل" مونج" العالم الرياضى وأيضاً بورتليه Berthollet الكيميائى [١] وهما اللذان عهد إليهما نابليون باختيار باقى أفراد البعثة .

وقد أسس لهم نابليون " المجمع العلمى المصرى" على غرار المجمع العلمى الفرنسى الذى بدأ عام ١٧٩٥م ويهمنا فى هذا المقام فروع العلوم بهذا المعهد وأهمها الرياضة والهندسة والفلك والميكانيكا والكيمياء والنباتات والطب والصيدلة والاقتصاد السياسى ، والآثار وهندسة المعمار والتصوير والرسم والموسيقى والهندسة البحرية وهندسة الرى والطرق والجسور وعلماء الطباعة[٢] .

وقد اختار نابليون قصر أحد الشراكسة وما جاوره مقراً للمجمع العلمى ، وفى كتاب " رسائل عن مصر" يصف الميوجوفرداسان القصر الذى فيه المجمع بعبارة مدهشة وعجيبة ، إذ يقول : -

١- عبد الرحمن الرافعى- تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم- مكتبة الأسرة- ١٩٩٨م- صـ٧٩ و" بورتليه"هذا ليس هو مترجم كتب جابر إذ أن المترجم هذا- ويحمل نفس الاسم- ولد عام ١٨٢٧م أى بعد انتهاء الحملة الفرنسية بأكثر من ربع قرن .

٢- السابق- صـ١١٥.

" وفيها- يقصد القصور محل المجمع- من أسباب الفخامة مالا يقل عن اللوفر وإنا لنجد من أسباب الراحة أكثر ما فى اللوفر" (١)

وبعيداً عن الميول الاستعمارية ، فقد وجدنا علماء أسدوا خدمات جليلة للعلم ولمصر ولأهلها ، فالعالم لوبير- كبير مهندسى الرى والطرق- صاحب مشروع قناة السويس قدم ذلك المشروع فى أكثر من ثلاثمائة صفحة .

والمسيوجومار [١٧٧٧- ١٨٦٢] هو صاحب كتاب " تخطيط مصر"وهو من كبار علماء الجغرافيا ، والمعروف أنه رئيس أول بعثة مصرية لفرنسا ١٨٢٦م وليراجع من شاء أعمال هذا المجمع ، وليراجع ما قاله الجبرتى فيه ، حيث اختلط الاستعمار بالعلم ، ولكن لا شك أن عيون وقلوب المصريين قد تفتحت على شئ جديد يرونه ، وتخلصوا من سنوات من الجمود المخيف الذى حبسوا فيه عهوداً .

كل ذلك الجهد العلمى الخارق للفرنسيين ، أسلم الراية لمحمد على باشا ، راية خفاقة بيضاء ناضجة ، فاقتبس محمد على باشا نظم التعليم الغربي وأسلوبه فبدأ بتأسيس المدارس العالية ، أملاً فى تجهيز كتيبة من المتعلمين ، تستطيع نشر التعليم الابتدائي وقد رأى المؤرخ / عبد الرحمن الرافعى أن " الأمم إنما تنهض أولاً بالتعليم العالى الذى هو أساس النهضة العلمية " (٢) وقد أنشئت أول مدرسة للهندسة ١٨١٦م كما يرى الجبرتى ثم أنشأ المهندسخانة ببولاق عام ١٨٣٤م . وقبلها استجاب لطلب الدكتور كلوت بك وأنشأ مدرسة الطب سنة ١٨٢٧م وهو ما يهمنا ، حيث كانت لغة الدراسة بالعربية . . . .

وهنا تكمن المفارقة : مدرسة فرنسية بمدير فرنسى بأساتذة فرنسيين ، تستخدم اللغة العربية فى التدريس بواسطة مترجمين ينقلون علوم التشريح والجراحة والباطنة والطبيعة والنبات والصيدلة وغيره وصار للمدرسة مستشفى هو مستشفى "أبو زعبل" وكان به ٧٢٠ سريراً وبه حديقة تنبت العقاقير والنباتات النادرة .

الأهـــم أن أحــدا من الأساتذة أو المترجمين لم يشك صعوبة فى التدريس أو النقل ، رغم عدم وجود" سوابق" علمية ولا أجيال سابقة ثم كانت البعثات العلمية ، ولا مجال للتفصيل غير أننا نعلم أن جملة المرسلين كانوا ٣١٩ مبعوثاً . . . .

وكان رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١-١٩٧٣) إماماً للبعثة الأولى ولكنه صار عالماً جليلاً ،

١- السابق-صــ١١٩ .

٢- الرافعى- عصر محمد على- هيئة الكتاب- طبعة مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠- جـ٣- صـ٤٠١ .

وترجمته فى عشرات الكتب ، غير أننا نلفت النظر إلى تعريبه لاثنتى عشرة رسالة أثناء إقامته فى باريس ، ولم تكن هذه الرسائل فى الأدب والفقه ، بل كانت" قطعاً" علمية خالصة ، على سبيل المثال ترجم قطعة من كتاب العلامة" ملطبرون" فى الجغرافية ، وثلاث مقالات من كتاب " لجندر فى الهندسة ، و" قطعة من عمليات الضباط "و" نبذة فى علم سياسة الصحة ". . . . . الخ [١] .
وعملية التعريب التى قام بها رفاعة تأتى من اندماج الشرق والغرب فى روح رفاعة بشكل- ربما- لن نشهده من قبل ، حيث تميز بموضوعية تقدير مظاهر الرقى الغربى جنباً إلى جنب مع الانتماء الخالص الصادق للعروبة والإسلام . . . . .
لذلك فقد شخص مأساة العرب فى مرحلة مبكرة أثناء إقامته فى فرنسا [١٨٢٦-١٨٣١] حيث يذهب إلى تشخيص علة العرب فى التخلف العلمى عن الحضارة الأوروبية .
بقوله :-" كما أن البلاد الإسلامية ، قد برعت فى العلوم الشرعية والعمل بها ، وفى العلوم العقلية ، وأهملت العلوم الحكمية بجملتها ، فلذلك احتاجت إلى البلاد الغربية فى كسب ما لا تعرفه " [٢] .
ولقد كان الوضوح الأمور فى ذهن رفاعة سبباً فى خطواته التالية ، حيث كان يرى أن " العلوم لا تنتشر إلا بإعانة صاحب الدولة لأهله [أى أهل العصر] "[٣] .
ولهذا كان هو صاحب الاقتراح بإنشاء مدرسة الترجمة ، وقد قابل محمد على باشا اقتراح رفاعة بتقدير يليق بعقلية محمد على المبهرة ، فقامت مدرسة الألسن سنة ١٨٣٦م واختار لها محمد على سراى الألفي بالأزبكية بجوار قصر أبنته ، وتولى رفاعة التدريس بها بجانب كونه المدير المسئول عنها وعاونته طائفة من خيرة المصريين وكذلك بعض الأجانب . . . . .
والنظر فى مترجمات رفاعة يشى بعمق نظرته وسبقه للبحث فى قضية التعريب والمصطلح . فله كتاب " التعريبات الشاقة لمريد الجغرافية " مأخوذة من عدة كتب فرنسية ، طبعة محمد على باشا ببولاق سنة ١٨٣٨م .
وترجم " مبادىء الهندسة " عن لوجندر عام ١٨٤٣م وفى المعادن النافعة كتاب " تعريب المعلم فرادر" كما عرَّب " قا نون التجارة الفرنسي " والقانون المدني الفرنسي " كما ترجم كتاب " منتسكو" روح الشرائع . . . . .
وهذا يدل على مجموعة أشياء مجتمعة أهما هذا الوعى بعيوب الغرب وميزاته ، وإحتياجات الشرق ومساوئه ، وربما يدل ذلك على عشق التنويع والاختلاف فى المشارب فى نفس رفاعة ،

١- الرافعى- عصر محمد على- سابق- صـ٤٣٧ .
٢- تخليص الأبريز- طبعة خاصة لهيئة الكتاب فى ٣ أجزاء عام ٩٣- جـ١ صـ٦٨ من المقدمة التى كتبها رفاعة .
٣- السابق صـ٦٩ .

فيجمع بين الأدب والطب والاجتماع والقانون والهندسة والجغرافية وغير ذلك من مترجمات غاية فى الدقة والأناقة .

وكان أسلوب الطهطاوى فى الترجمة للمفردات الأجنبية هو أن يحدد اللفظ ومعناه فى ذهنه ، ثم يلجأ للمعجم العربى ، فيأخذ منه ما يصح معناه ليكون ترجمة للمعنى الأجنبى (١) .

ثم كانت مدرسة الطب التى رأسها " كلوت بك" تسايره هذه النزعة التعريبية الرائعة ، فترجمت ٨٦ كتاباً (ستة وثمانين) كتاباً أجنبياً فى عدة تخصصات لتعليم الطب والصيدلة ، وقد وجدت هذه الكتب طريقها- بعد نجاحها- إلى تركيا والجزائر وتونس ومراكش . . . . ثم بدأت البعوث تجنى ثمارها فظهرت مؤلفات عربية فى مجالات علمية جديدة عليهم جديدة عليهم ، مثل محمد على البقلى فى الجراحة ومحمد الشافعى فى الأمراض الباطنة ومحمد ندى فى الحيوان والنبات والفيزياء والجيولوجيا ، وعلى رياض فى الصيدلة والسموم ومحمود الفلكى فى الفلك وغيرهم (٢)

تجربة التعريب فى سوريا :-

بدأت فكرة تعريب العلوم فى سوريا بعد ما يقرب من تسعين سنة من نشأة التعريب بمصر عام ١٨٢٧م على يد الطبيب الفرنسى جنسيته- المصرى الهوى- كلوت بك كما سبق الحديث ، أما فى سوريا وفى عهد حكومة الأمير فيصل بن الحسين ، تم تأسيس المعهد الطبى العربى وهو الذى صار بعدها كلية الطب بالجامعة السورية التى تحولت فيما بعد إلى جامعة دمشق ، وكان ذلك عام ١٩١٩م ولقد ذكرنا وكررنا الحديث عن الطب فى مدرسة أبى زعبل لأن مترجماتها وكتبها الطبية كانت إحدى الوسائل المساعدة فى التعليم الطبى بسوريا ، وقد فشلت كافة محاولات الانتداب الفرنسى فى تحويل لغة الدراسة إلى الفرنسية ، وقد حظيت هذه المدرسة الطبية السورية بحظ وفير إذا توفر للدرس فيها أساتذة أخلصوا للغة إخلاصهم لعلوم الطب ، وقد كانت هناك معوقات أهمها :-

- عدم توفر المصطلحات العلمية .
- قلة المتمكنين من العربية .
- قلة الذخيرة التراثية التى يعتمدون عليها كأساس .

وقد سعت الأساتذة بإخلاص لمعالجة ذلك ، حيث ينقل الدكتور هيثم الخياط جهود رجلين – كمثالين- استطاعا أن يجمعا جهد العربية مع جهد الطب وفروعه ،

١- د/ محمود حافظ- الترجمة بين الماضى والحاضر- مجلة المجمع- جـ٧٨ عدد مايو٩٦ صـ٨٨ .

٢- السابق- صـ٨٩ .

والنظر فى سيرهما يفرز ويخرج إجابات وتفاسير لهذه المعوقات :-
وأولهما الدكتور : الجميل الخانى وهو أستاذ بكلية الطب غادر سوريا إلى فرنسا لدراسة الفيزياء وعاد فبذل جهداً جهيداً فى وضع معجم المصطلحات الفيزيائية .
والثانى هو الدكتور : الصلاح الكواكبى- المولود بحلب الشهباء عام ١٩٠١م الذى دخل ذات يوم المعهد الحلبى فى دمشق عام ١٩٢١م ونال الاجازة الرسمية فى الصيدلة ، ثم درس الصيدلة والفيزياء فى " السربون" وفى جامعات فرنسية غيرها ، ثم عاد لعمله بكلية الطب ، فألف سلسلة مجودة أسماها :" الدروس الكيمياوية لتلاميذ المدارس الثانوية " وكانت خمس أجزاء لأقسام الدراسات الثانوية الخمس ، فأفادت الطلاب وحببت لهم الكيمياء على مافيه من جهد وعنت ثم ألف- بالعربية- طبعاً كتاب" الحبابات الدوائية " ثم أتبعه بمؤلفاته " الحموضة والقلوية فى نظرية الشوارد" ثم " صناعة حمض الليمون" ثم " الكيمياء الحديثة" ثم أتبع ذلك بتطبيق صادق لأبحاثه ، فأنشأ يصنع مستحضرات صيدلانية هى حبابات دوائية تحوى أدوية نافعة ترزق المرضى علاجاً.
ثم تابع بعد ذلك وضع سلسلة من الكتب فى الكيمياء غير أننا مع كتابيه " مصطلحات علمية" و " معجم المصطلحات العلمية الكثير اللغات " .
حيث يتخذ القياس والنحت والتعريب طريقاً لإيجاد مصطلح علمى صحيح ، وكان يستصرخ النحاة الذين ضيقوا على أنفسهم وقد أوسع الله عليهم ، فيسأل :-
" لماذا نبقى محصورين فى حجرة ضيقة ، لا ندرى كيف النجاة منها وتكاد تقضى علينا لضيقها ، ولدينا ألوف الكلمات الأجنبية لعلوم ومكتشافات شتى ، تحتاج إلى ما يقابلها فى لغتنا الشريفة " أ.هـ .
وكان رأيه أن القياس بحر بلا شطئان ، فيقول : القياس : أوسع حدوده !! لماذا نكتفى ببضع كلمات على وزن فَعَل : (رمد ، كلب) ولا نحب توسيعها فنقول (فيل ، زرق) أو نكتفى بكلمتين على وزن مفعول (مكبود ، ممثون) ولا نقول (مزهور ، مشكور) [يعنى مصاب بالزهرى ومصاب بالسكر] أو بكلمتين على وزن فُعال (جذام ، بوال) فلا تقيس به (نُهَام- رُحَام) ؟ ألأنه لم يُسمع عن العرب أكثر من هاتين الكلمتين ، أم لأنه لم يدون فى المعاجم غيرهما ثم يضع الكواكبى حلولاً أربعة :-
١- القياس على الأوزان العربية إطلاقاً .
٢- القياس على بعض القواعد العربية .
٣- فى الأخذ بالنحت والاشتقاق .

٤- اختيار الأصح والأصلح بين المصطلحات الجديدة .
وقد طبق الصلاح الكواكبى أفكاره- هذى العظيمة- فى مجال المصطلح الكيميائى الذى استطاع أن يترك لنا مئات المصطلحات المتداولة [١] .

ويبدو أن التعليم بالعربية الآن هو حرب بين المستعمرين بكافة أشكالهم ووسائلهم وبين دول تأمل فى النهوض ، فتأتى الدول المستعمرة تطفأ أنوارها ، وربما كان هذا الأمر من قديم الزمان ، حتى أن الإمام محمد عبده يرى فى محاربة التعليم بالعربية وسيلة لإخراج المسلمين من دينهم ، حيث أكرهوا- يعنى الفرنسيين- سلطان المغرب على توقيع مرسوم يخول للحكومة الفرنسية الحامية له تنفيذ ذلك فى شعب البربر ، فأنشأت لهم قانوناً بعيداً عن الشريعة ومدارس تعلمهم النصرانية بالفرنسية وتعلمهم البربرية بالحروف اللاتينية ، وتحرم عليهم تعلم العربية والإسلام ، وأما إيطاليا فقد حاولت استئصال المسلمين من طرابلس وبرقة ، وجعل بقايا أطفالهم إيطاليين كاثوليكين وفى الجزائر وتونس فرضت اللغة الفرنسية على الأهالى ، وحرمت التعليم بالعربية ، واجتهدت علماء المسلمين ، حتى هاجر الكثيرون من بلادهم [٢] .

١- د/ محمد هيثم الخياط- فى سبيل العربية- بتصرف واختصار دار الوفاء صـ٧-٢٢ .
٢- الإمام محمد عبده- الإسلام بين العلم والمدنية- جـ٢ طبعة هيئة الكتاب- مصر عام ٩٣- هامش صفحة ١٩٢ .

عوائق فى طريق التعريب :-

" لم يبق من ذلك إلاَّ ذكريات"

(فرنسيس غايلز)

ذات يوم ، كان رئيس قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب جامعة المنصورة يحاضر لطلاب الليسانس ، حين قام طالب يسأل الأستاذ قائلاً : إذا سمحت يا دكتور السنابل ح تنزل إمتى ؟
والفجر المدرج بالدارسين ضحكاً صراخاً ، حيث كانت عادة بعض المعيدين عمل تبسيط للمناهج فى أيام الامتحانات ، وكانوايسمونه Simple ولأن الطالب السائل يريد جميع الملخصات فسأل عن السنابل على اعتبارها جمع Simple يومها صرخ فيه الأستاذ قائلاً : This is sinblawinic English (إنه إنجليزى سنبلاوينى) .
وقد ضحكنا عليها كثيراً أيامها ، غير أن لهذه القصة وغيرها دلالات لا تخفى ، فالملاحظ أن الدارس [وهو يدرس درساً بلاغياً متخصصاً فى اللغة الانجليزية وآدابها] يفكر بالعربية ، ونفسيته عربية ، ويعتبر الإنجليزية علماً طارئاً ينال به شهادة تمنحه وظيفة وإمكانية إعطاء درس خاص .
وإننا كعرب مسلمين- فى دعوتنا للتعريب لا ننظر من خلال حس تعصبى للغة أو كراهية للغة المستعمر وإنما القضية أخطر وأعقد من هذا التبسيط المخيف لمسألة ترتبط بحاضر ومستقبل أمة لقد تأكد للناظر فى أحوالنا مدى حرص الآخرين على تخلفنا ، إننا نتساءل ونكرر نفس السؤال المخزى المؤلم الذى سأله فرنسيس غايلز فى مقاله بمجلة " الطبيعة " Nature عام ١٩٨٣م قائلاً :-

What is wrong with Muslim science

ما الذى جرى لعلم المسلمين ؟ ويفضل رأيه قائلاً :-

" ما الذى أنضب رفدهم الهائل للحضارة الإنسانية فى ميدان العلم ولا سيما الطب والرياضيات ، يوم كان حكامهم فى أوج حضارتهم يحيطون أنفسهم بالعلماء والأدباء ، ويوم وفروا جواً من الحرية سمح للمسلمين والنصارى واليهود أن يعلموا جنباً إلى جنب فى إغناء هذه الحضـــارة

. . . لم يبق من ذلك كله اليوم إلا ذكريات " [1] .

هل طالت المقدمة ؟ وما بالها لا تطول وسوف نتحدث فى قضية ذابت بحثاً وأخذاً ورداً وأفرغت مداد الباحثين سنيناً عدداً ، وملئت قلوبهم حزناً وغماً . . . . .
لأنها تدور فى إطار سؤال خطير وهام هو : ماذا يراد بنا ؟! ومن يخطط لهذه الأمة ؟ ومن يتصدى لهذا التخطيط ؟

١- فى سبيل العربية- سابق- صـ٣٦ .

إن علماء العرب المسلمين- كما رأينا- لم يتركوا مجالاً لم يسلكوه ، وقد صادفت سؤالاً من المحاورات التى دارت بين أبى حيان التوحيدى ومسكويه ، حيث يسأل التوحيدى :-

هل يجوز لإنسان أن يعى العلوم كلها على افتنانها وطرقها واختلاف اللغات بها والعبارات عنها ؟ ويجيب مسكويه مفصلاً مشيراً إلى أن بحر كل علم بلا ضفاف ويضرب مثلاً بالطب حيث يكفى منه " تعلم أصوله وقوانينه التى بها يستخرج نوع المرض ونوع العلاج " ويشير لكتب جالينوس، ثم يشير إلى فكرة التخصص العلمى وإن المقصود من العلم هى نواتها [1] .

نعود لقضية العوائق الماثلة أمام تعريب العلوم فى الوطن العربى وأول ما يراه الداعون للتغريب فى مقابل التعريب هو أن الدعوة إلى التعريب هى دعوة رجعية مقصود بها أن يصير العلم متخلفاً فى البلاد العربية لأن لغتنا سوف تعزلنا عن علوم الغرب ، وتمنع إطلاع الطالب على آخر ما أخرجته العقول النابهة فى أوروبا وأمريكا ، وسنحرم من نعمة هذه المتابعة . . . . . الـخ .

ولنسأل أنفسنا بداية سؤالاً بسيطاً صادماً : أليس العلم فى بلادنا متخلفاً ؟ بعد عقود طويلة من دراسة الطب والصيدلة والهندسة وغير ذلك بالإنجليزية فى مصر وبالفرنسية فى أماكن أخرى : هل تقدم العلم العربى ؟

بكل اطمئنان وأسف : لم يتقدم العلم فى مضمونه خطوة واحدة . . تقدم فى الشكل ، حيث زادت الجامعات وكثرت أعداد الخريجين ، وزادت الدراسات الجامعية ولكن ما مردود ذلك على المجتمع ؟ للأسف لا شيء إن الحصار المفروض على التعليم بالعربية لا يعدو أكثر من تقييد للدارسين العرب بعلوم الغرب ، يدورون فى فلكها وينشغلون بحل طلاسم المفردات الأجنبية ، وفى حفظ المفردات والمصطلحات ، فينتج متعلم مشوه ، ليس ابناً لحضارته .

ولننقل شيئاً من تجربة أستاذ جامعى فى قيمة الدكتور/ محمد هيثم الخياط- وهو أستاذ جامعى بسوريا وعضو مجمع دمشق اللغوى- يقول أنه درس الفيزياء لمجموعتين : المجموعة الأولى درست العربية والأخرى بالإنجليزية ، وقد جاءت نتيجة الاختبارات فى صالح المجموعة الدارسة بالعربية بفرق ضخم جداً [2] .

ولنقترب أكثر من القضية من خلال ممارسة طويلة للدكتور عبد الحافظ حلمى- الأستاذ الجامعى وعضو المجمع اللغوى بالقاهرة- وقد أورد قصة بالغة الدلالة على طبيعة العلاقة بين الطلاب الدارسين بالانجليزية وبين هذه اللغة البعيدة عن متناولهم . . يقول :

١- التوحيدى ومسكويه- الهوامل والشوامل- تحقيق أحمد أمين والسيد صقر- طبع بالقاهرة عام ١٩٥١م ونقلتها سلسلة الذخائر مصورة عام ٢٠٠١م .

٢- د.هيثم الخياط- فى سبيل العربية-سابق-صـ٣٢ .

" فـى جامعـة عربيـة فـى الصـف الأول بـين نظائرهـا ، عرضـت أوراق إجابـة طـلاب درجـة البكالوريوس على أستاذ إنجليزى ، فكتب فى تقريره ما ترجمته : " إننى لم أستطع أن أتعرف الرءوس من الأذناب فيما كتبه هؤلاء الطلاب " ولكنه أردف قائلاً :-

" ولكننى ما أظن سوف أكون أكثر توفيقاً لو طلب إلى أن أكتب بالعربية " أ.هـ [١]

والموقف ليس بحاجة إلى تعليق ، فالطلاب فى السنة النهائية والمصحح لم يعرف مجرد السؤال عن الإجابة . . . وقد ناقش الباحث عدداً كبيراً من المدرسين والدارسين للطب والهندسة فى جامعة إقليمية عريقة ، فأكد بعض الأساتذة- خاصة أصحاب الاتجاه الدينى- أنهم يأملون فى اليوم الذى يعرب فيه التعليم ، وأشار آخرون أنهم لا يتصورون الدرس بغير الإنجليزية ، وأشار غيرهم إلى أن الموضوع لا يتعدى مادة مقررة تذاكر بأى شكل وبأى لغة والقضية الجديرة بلفت الأنظار هى تعليم العلوم فى الأصل بالعربية ، والتعليم بغيرها استثناء ، حيث أن قانون تنظيم الجامعات المصرية- مثلاً- ينص على أن " اللغة العربية هى لغة التعليم ، وذلك ما لم يقرر مجلس الجامعة فى أحوال خاصة استعمال لغة أخرى "

والواضح أن قدرة الطالب على استخدام الإنجليزية- مثالاً- كلغة دراسة مسألة شديدة الصعوبة ، فمعظم الطلاب أصبحوا بعيدين كل البعد عن هذه الإجادة ، ويعترف الأساتذة باضطرارهم إلى استخدام اللغة العربية بل العامية فى توصيل المعنى . . . .

وينفق الطلاب الساعات الطوال مع المعاجم فى البحث عن مفردة ، أو معنى آخر لمصطلح إلــخ .

هكذا فالإنجليزية- إذن- هى القيد الذى يحول بين الطالب وبين متابعة عملية البحث العلمى بجدية وتمكن .

على أننا لا ندعو إلى ترك تعليم اللغات ، بل على العكس تماماً ، يجب التوسع فى دراسة اللغة كلغة واستخدام وسائل حديثة فى تعليمها .

أما واقعنا العربى الحالى فهو مؤسف بحق ، وقد لخصه الدكتور دانيلز مدير المكتب الثقافى البريطانى بالقاهرة- سابقاً " حين قال للدكتور حلمى عبد الحافظ أنه مع تعريب الدراسة فى مصر ، وأشار له بلهجة صارمة " لاشك أن الحق معكم ، وأخبر زملاءك أننا غير راضين عما تفعلونه بلغتنا " [٢]

نعود للعوائق الراسية فى مصب التعريب ، ونأتي لقضية المصطلح . . وهى قضية مبالغ فيها ، فليس

١- انظر د/ عبد الحافظ حلمى- تعريب التعليم الجامعى- بحث منشور بمجلة المجمع- جـ٧٩- نوفمبر ١٩٩٦م- صــ٢٨ .

٢- السابق- صــ٢٨ .

التعريب مسألة مصطلح وكفى ، وكذلك فقد توافرت ألوف المصطلحات فى كل العلوم ، وبجانب المجامع اللغوية وجهودها والمنظمات العربية والدولية ، وهناك " لجنة توحيد المصطلحات العربية" وهناك " بيت الحكمة" بتونس وإننا نرى أن قضية المصطلح عارضة والأهم منها توحيد المصطلح داخل البلاد العربية نفسها ، وبين كافة الدول العربية . وقد صادف الدكتور فاضل الجمالى- وكان رئيساً لوزراء العراق وقد تولى عدة وزارات- صادف أن كُلف بترجمة كتاب " الكيمياء العضوية " ولما شرع فى الترجمة اكتشف وجود مصطلح له لفظ فى المعاهد العلمية ولفظ آخر فى وزارة الصحة ولفظ ثالث فى وزارة الاقتصاد ، فقامت لجنة عراقية بتجميع كل هذه المصطلحات [١] ويبقى من يحتج بغرابة المصطلحات ، وهى مسألة نفسية لا أكثر ، تعود للتكرار والاعتياد للفظ الأجنبي ، فمثلاً اعتدنا على لفظ " تليفون" وقلَّ أن نستخدم هاتف أو مسرة ولكن نقول الآن جوَّال أو محمول وقلما نذكر " موبايل" .

وانظر مثلاً لبعض المصطلحات العلمية : هل من الأسهل أن ننطق " مقاومة" أو أن نقول Resistance هل الأسهل أن نقول" ممانعة" أم reluctance بل هل الأسهل أن نقول " المد والجزر" أم نقول Lowtide and high tide هل نقول " كَمْ " أم Quantum . [٢]

إن الاستسهال والتعود- ليس أكثر- هما عوائق التعريب ، ولم يعد أمامنا سوى الحديث عن أهم الوسائل المساعدة فى تعريب العلوم .

١- د/ فاضل الجمالى- دفاعاً عن العربية- سابق- صـ٦٨-٦٩ .

٢- اقتبسنا هذه الألفاظ من كتيب- منهج وضع المصطلحات العربية المتخصصة " المجمع- ١٩٩٥م .

التعريب . . حلول وأمال :-

ما من كاتب فى هذا الأمر إلا وغادره بغصةٍ فى حلقه ، وألم يعتصر فؤاده ويلقى به على بحر يأس عميق المدى ، ولكننا

. . . .

ولعلنا تأخرنا فى تعريف التعريب ، بسبب صعوبة وضع تعريف كامل للتعريب ، فعلى سبيل المثال يرى الأستاذ/ابراهيم الترزى أمين مجمع اللغة العربية فى كلمته التى ألقاها فى جلسة افتتاح مؤتمر الدورة الستين للمجمع- يرى أن التعريب هو :-

" أن تؤلف العلوم بحوثها بالعربية ، مع تواصلها الدائم بالبحوث العلمية فى اللغات الأجنبية " (١) .

ومن هنا فالتعريب ليس مجرد ترجمة كتب من لغة إلى العربية فالترجمة ، تعنى نقل معانى الكلمات أو العبارات والنصوص الأجنبية والتعبير عنها بعبارات مقابلة لها فى اللغة " (٢)

والتعريب المقصود هنا- يختلف عن تعريب النصوص الأدبية الأجنبية- على غرار ما فعله المنفلوطى فى " ماجدولين" و" فى سبيل التاج" وغيرهما من نقل العمل إلى الأجواء العربية .

والتعريب أيضاً فى معنى ثالث " نقل الألفاظ الأجنبية بردِّها إلى الصور العربية صوتياً وصرفياً " (٣) .

والتعريب- إذن- بشكل عام يدور فى إطار تحويل لغة الدرس العلمي بالجامعات والمعاهد من لغة أجنبية إلى اللغة العربية ، سعياً لتحويل التفكير والبحث العلميين إلى التفكير والبحث العربيين . .

وقد أضاف الدكتور عبد الكريم خليفة- رئيس مجمع اللغة الأردني- حدوداً للتعريب بقوله :- التعريب يعنى" اعتماد اللغة العربية لغة التدريس الجامعي والبحث العلمي والتقنيات الحديثة " (٤)

. . . . . .والتعريب لاشك مطلب قومى إذ أن اللغة هى وعاء القومية ، وعنصر من عناصر الانتماء [أرض وأسرة وحضارة ولغة] وفى الحديث الشريف- حينما نال أحد المنافقين من عروبة الصحابى سلمان الفارسى ، قال : ﷺ :" يا أيها الناس : إن الربَّ ربٌ واحدٌ ، وإن الأب أب واحد وإن الدين واحد وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هى اللسان فمن تكلم العربية فهو عربى " (٥) .

---

١. مجلة المجمع- جـ٧٨ مايو ٩٦- صـ١٩-٢٠ .
٢. التعريف للدكتور كمال بشر- السابق- صـ٦٥ .
٣. السابق فى بحثه " التعريب بين التفكير والتعبير"- صـ٦٦ .
٤. بحث الدكتور خليفة قدم للمجمع فى عام ١٩٩٢م ونشر بمجلة المجمع ، وننقل له هذا الرأى عن د/كمال بشر .
٥. الجامع الكبير للسيوطى- ٩٥٨/١ .

ولذلك فنشر لغتنا هدف دينى ، لكننا نحقق الهدف الأقرب أولاً بالدعوة للتعريب .

وعلى هذا توصى هذه الدراسة بمجموعة توصيات نفرد لبعضها ونبحث ونوجز بعضاً آخر :-

أولاً : قرار سياسى . . . قرار سياسي حاسم وحازم وجرئ ، مثل قرار محمد على باشا بتدريس الطب بالعربية الذى أنتج فى فترة قصيرة كتباً مترجمة بلغت ستة ثمانين كتاباً فى الطب والصيدلة . فنحن فى حاجة إلى قرار عاجل لتحويل التعليم الطبى والهندسي وسواهما إلى العربية ، لأن ما تقره المجامع والجمعيات والهيئات والشخصيات الغيورة على لغتها يضيع فى مهب الريح إلاَّ أقله ، ولنبدأ- على الأقل- بالكليات الأزهرية التى تدرس بالإنجليزية ، مع التنبيه إلى دور السياسة أو القرار السياسى فى تدعيم الوجود اللغوى ، فلغة العلم فى إسرائيل هى العبرية ، وهى لغة خاصة بشرذمة قليلة لكنها سعت إلى الترجمة ، وفتحت بابها مع قرار سياسى .

وقد حدثت مظاهرات صاخبة فى الهند اعتراضاً على وجود الإنجليزية بجوار الهندية كلغة رسمية هناك ، كما استقالت الوزارة فى بلجيكا بسبب الفرنسية كلغة مقررة هناك ، وقد حدثت مظاهرات فى صيف ١٩٦٧م حين زار الرئيس شارل ديجول مدينة " كيبك" بكندا بسبب الضغط الأمريكى عليهم لترك فرنسيتهم [١] .

ألسنا أحق بلغتنا من كل هؤلاء ؟!

ثانياً : التوسع فى الترجمة :- وقد كانت مصر من الدول المبكرة فى اهتمامها بالترجمة ، حيث أنشئت لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩١٤م- فضلاً عما سبق الحديث عنه من جهود لرفاعة . ثم جاء مشروع الألف كتاب- وبالمناسبة- كان تتويجاً لجهود الإدارة الثقافية بوزارة التربية والتعليم نعم وزارة التربية والتعليم فى ١٦ أغسطس عام ١٩٥٥م وقد نجح المشروع نجاحاً مذهلاً . ولكنه توقف بعد الستينات بعدما أنتج ما يقرب من ألف عنوان .

وقد قام المجلس الأعلى للعلوم عام ١٩٥٦م- حين أنشئ- بوضع قائمة للمترجمات ، وقدم أكثر من ثلاثين كتاباً مرجعياً ، ثم اغتيل المشروع وتوقف عام ١٩٦١م وغير ذلك مما يضع جهد الترجمة الآن موضع النقد مع كل هذا العدد من الجامعيين وخريجى كليات الترجمة الفورية والألسن . . .

واستمع إلى أرقام اليونسكو :

فى عام ١٩٧٠م كان نصيب الوطن العربى من الكتب المترجمة ١١ فى الألف وهى نسبة ضئيلة جداً وفى عام ١٩٨٦م تراجع نصيب الوطن العربى [٢٢ دولة] إلى ٦ فى الألف محتلاً ذيل القائمة بين كل دول العالم فى عدد الكتب المترجمة .أليس هذا مؤسفاً ؟!

١- أنظر فى ذلك د/ فاضل الجمالى- دفاعاً عن العربية- سابق- صـــ١٨ .

٢- بل أعلم أن مجموع ما يترجم سنوياً فى الدول العربية [أكثر من ٢٠٠مليون نسمة و ٢٢ دولة] حوالى تسعة آلاف كتاب ومجموع ما يصدر فى اسرائيل (حوالى ٤ مليون نسمة) من مترجمات بالعبرية يصل إلى عشرة آلاف كتاب سنوياً . . . [١]

" ولله الأمر من قبل ومن بعد "

ثالثاً : الدعوة لتوحيد المصطلح بين كافة الدول الناطقة بالعربية ، من خلال هيئة علمية عربية موحدة ، تنبذ كل أنواع الخلاف ، وتسعى لإقرار مصطلح علمى مأهول ومأنوس ومقبول . .

رابعاً : اصدار قرارات عربية- ربما من خلال الجامعة العربية- بإنشاء هيئة علمية علياً للترجمة ، يكون لقراراتهم قوة القوانيين فى الأخذ بها .

خامساً : اثراء الدراسات حول تعريب المصطلحات ، والأخذ بالأيسر، والنظر فى أسلوب الأقدمين فى التعريب واتباع نهجهم مع الاستفادة من جهود كافة الدول التى سبقتنا فى استخدام لغتها القومية ، مع التوسع فى الاستفادة من الرخص التى رخصها القدماء واتبعوها فى تعريبهم لعلومهم [٢] .

سادساً : دعوة أهل العلم والإعلام والأئمة لتهيئة الأمة لتقبل لغتها فى تدريس العلوم وربط هذه اللغة الشريفة بتاريخها ودينها وتراثها الذى لا مثيل له .

١- الإحصاءات أوردها أستاذنا الدكتور / محمود حافظ فى دارسة " الترجمة بين الماضى والحاضر"- مجلة المجمع- جـ ٧٨- مايو٩٦- صــ٨٤-٩٥ .

٢- مما يجب الانتباه له والدعوة لتبنيه هو التوسع فى استخدام نظرية الضرورة العلمية ، حيث أن هناك صعوبات علمية شديدة تواجه واضعي المصطلحات ، وعن تجربة شخصية للدكتور هيثم الخياط يقول أنه وضع كتاب " الكيمياء السريرية" فى أربعمائة وثمانيين صفحة ، ولما بدأ فى إعادة القراءة استعجم عليه بعض ما كتب ، ولذلك فهو يشير إلى نظرية الضرورة العلمية والتى سبق واستخدمها كبار علماء العربية، لأن بنيان هذه اللغة " متفاعل حَرك" . والضرورات ثلاث :-

أ- ضرورة شرعية تريد وجه الخبر

ب- ضرورة شعرية تبتغى وجه الجمال .

ج - ضرورة علمية لوجه الحقيقة .

. . . .

وقد طفحت كتب القدماء بالاستجابة للضرورة ، وقد قال " سيبويه" : من كلامهم أن يجعلوا الشيء فى غير موضع على غير حاله من الكلام" وقوله أيضاً :- " وقد يشذ الشيء فى كلامهم عن نظائره" وينقل د/ هيثم عن السيد البطليوسى فى " الاقتضاب" :" إن الأصول قد ترفض حتى تصير غير مستعملة " صـــ٦٢ .

ولذلك تجد النبى ﷺ يسمى قبيلة عربية باسم " بنى رشدان " محاكياً اسمهم الأصلى " بنى غيان" .

قال " ابن سيده" :" وهذا واسع كثير فى كلام العرب، حيث يؤثرون المحاكاة والمناسبة بين الألفاظ كقوله صلى الله عليه وسلم " ارجعن مأزورات غير مأجورات " وكقولهم " حوراء عيناء" من الحير العين . . . إلـــخ .

إذن يصل د/ الخياط إلى استباحة التجاوز اللغوى لأجل الغاية الجمالية ، خاصة فى ضرورات الشعر . . . ولذلك فالأولى هو مراعاة الغاية العلمية حيث هى أهم من القصد للجمال .

ولذلك فقد أكثر العرب من النسب الخاطئ المقصود للتفريق بين نسبة متعارف عليها ونسبة خاصة ، فنسبوا المرئى بفتح الراء إلى امرئ القيس وصحتها مرْئى بسكون الراء .

وقالوا "ثوب حَرَمى " بفتح الحاء والراء أى نسبة إلى الحرم وصحتها "حِرْمى " (بكسر الحاء وسكون الراء)

حيث يصل إلى مقصده من مفهوم الضرورة العلمية حيث هى خروج على القياسى المطرد من الاستعمال ضماناً للدقة العلمية .

وليس كلام د/الخياط ببعيد عن فكر العبقرى أبى الفتح ابن جنى حيث رأى أن اللغات جميعاً حجة وإنما هناك صحيح واضح .

وقد رأى أبو هلال العسكرى أن الكلمة الأعجمية إذا عربت فهى عربية .

ولكن الخير- كما يرى د/الخياط وغيره- هو إلباس اللفظ عباءة عربية ، فالحاسوب يمكن أن يشتق منه " محوسب" و" حوسبة" وكذلك الفيروس من "فرس" بمعنى قتل ووزن فيعول منها فيروس ولذلك ليس بنا حاجة للمفردة الأعجمية إذا وجدنا لها لفظ عربى ، فلماذا مثلاً نقول رينسانس ولا نقول نهضة- كما ذكر الدكتور فاضل الجمالى صـــ٧٠ .

ولماذا سوسيولوجى ولدينا علم الاجتماع واستراتيجية ولدينا منهجية وديناميكية ولدينا حركة وانطولوجيا وعندنا مقتطفات . . . . إلـــخ .

كذلك وفى سبيل إسراء فكرة التعريب ، لابد من استخدام اللفظ الأسهل ، ويقترح مجمعيون أن ننطق " يورانيوم" بدلاً من " أورانيوم" وهيدروكسيد بدلاً من هايدروكسايد ، وقد بذل مجمع الخالدين النائم فى أحضان الزمالك بالقاهرة ، بذل جهداً خلاقاً فى وضع مبادئ أساسية تتمثل فى الإفادة من التراث العلمى العربى ، والوفاء بأغراض التعليم ومسايرة النهج العلمى العالمى فى وضع المصطلحات وحفز المشتغلين على وضع مصطلحات ذات أصل عربى لما يستحدثونه فى العلم .

وفى تنفيذ هذه المبادئ أخرج المجمع بعض التوصيات الدقيقة كالمبادرة إلى وضع مصطلح من أصل عربى دون التقيد بالمعنى اللفظى فالمصطلح " dead room " فى مقابلة لدينا " غرفة كاتمة" وليست " غرفة ميتة" وكذلك " coal measure " أى مكونات فحمية وليس مقاييس فحمية .

وهناك التجويد للفظ " weathering " بدلاً من التأثر بالعوامل الجوية ثم اعتبر المجمع اللفظ المعرب عربياً ، فأخضعوه لقواعد اللغة فاللفظ أيون (ion) اشتقوا منه الفعل " أيَّن " فيقولون " أينت الغاز فتأين " . . . . . إلـــخ

كذلك ألفاظ أكسدة وبسترة وغيرها . . . .

ولذلك دعا المعجميون إلى :

- التوسع فى المولد من الألفاظ
- إجازة استعمال بعض الألفاظ الأعجمية للضرورة .
- الاتفاق على قياسية عدد من الصيغ الاشتقاقية المهمة كصيغة فعالة وصيغة مفعلة . . . . إلـــخ
- إقرار المصاد الصناعية بأن يزداد على الكلمة ياء النسب والتاء .
- تفضيل العربى على المعرب القديم إلا إذا اشتهر القديم .
- جواز جمع المصدر عندما تختلف أنواعه

كما فتح المعجميون باباً واسعاً رائعاً من الأبواب المغلقة منذ قرون رغم الفارق فى الاهتمام باللغة قديماً وهذا الباب هو باب" النحت" ، والنحت هو عملية اختزال واختصار فى الكلمات ، وقد تحدث عند الخليل فى العين وابن السكيت فى إصلاح المنطق والجوهر فى الصحاح . . إلـخ .

وقد نشأ قديماً لإزالة الالتباس المتوهم فى حالة النسبة إلى الاعلام ، فقالوا : عبشمى ومرقسى كقول يغوث الجاهلى :-

. . . .

وتضحك منى شيخة عبشمية ***** كأن لم تر قبلى أسيراً يمانياً

وقد نسبوا إلى غير قياس كقولهم :-

دربخى إلى دار البطيخ ورسغى نسبة إلى رأس العين وعبدرى نسبة إلى " عبد الدار" ونستفيد من النحت فى ألفاظ العلم المشتركة .

كما يذكر د/ محمد يوسف حسن فى دراسته الرائعة- دور النحت فى تيسير الأداء العلمى بالعربية- مجلة المجمع- مايو ٩٦

فنقول مركب حديدوكى مقابل FERR OFERIC COMPOUND نحتاً من حديدوز وحديديك وكذلك غلاف نيحدى للأرض أى مكون من نيكل وحديد .

وهناك نوع آخر من النحت هو ضرب من الاختصار يتم بوزنه على وزن فعلل أو مفعلة لحروف كلمتين أو أكثر من كقولنا بسملة وحوقلة وحمدلة وقد ذكر الخليل :-

أقول لها ودمع العين جار *** ألم تحزنك حيعلة المنادى

ويمكن الاستفادة من ذلك – على سبيل المثال- نقول

" فعصب العينة " أى قام بتحليل الفضالة المستعصية على الذوبان فيها وكذلك (تحمك) أى حلله تحليلاً ميكانيكياً . . .

ونحيل المتهم إلى بعض الأبحاث الجيدة للاستفادة والاستزادة :-

١- سليم النعيمى- النحت- مجلة المجمع العراقى- بغداد ١٩٧٣م- مجلد ٢٣ .

٢- عبد الكريم خليفة- اللغة العربية والتعريب فى العصر الحديث- الأردن- ١٩٨٧م .

٣- جميل الملائكة- فى مستلزمات المصطلح العلمى- مجلة المجمع العراقى- بغداد- ١٩٧٤م .

٤- بحوث مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ابرايل ١٩٩٤م والمنشورة بالعددين جـ٧٨ ، ٧٩ فى مايو ٩٦ ونوفمبر ٩٦ .

٥- كتيب- منهج وضع المصطلحات العلمية- المجمع- ١٩٩٥م .

٦- د/ هيثم الخياط- فى سبيل العربية- دار الوفاء- المنصورة .

٧- دكتور فاضل الجمالى- دفاعاً عن العربية- تونس- ١٩٩٦م .

ـ خاتمة وتوصيـــات :-

فى خاتمة بحث طويل مرهق ، كثير المزالق ، لا أشعر سوى بالتقصير التقصير . . . . فمازال هناك الكثير مما لم نشر إليه وقد كانت مشكلات الحياة عائقاً بين ماأودعته هنا وبين ما كنت أطمح إليه ، غير أن اعتراف المرء بتقصيره ، ربما غفر له شيئاً من هذا ، وحسبى أننى درست مخلصاً آملاً فى ثواب الله قبل مثوبة البشر . . . .

وقد كنت أتوقف مع نماذج الاحترام والتقديس للغة ، فأذهل لما وصلنا إليه ، كان الأصمعى يقول : " أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا هو لم يعرف النحو أن يدخل فى جملة قول الرسول ﷺ :" من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " لأن الرسول لم يكن يلحن ، فإذا رويت عنه ولحنت ، فقد كذبت عليه " (معجم الأدباء جـ١ / ٩٠) .

إن اللغة ليست مجرد ألفاظ مستخدمة ، إنما هى روح أمة ، ووجدان وطن ، وحاملة تراث . اللغة إنتماء وجنسية .

والعربية- خاصة- هى حاملة كتاب الله عز وجل- النور المبين الذى أشرق على جزيرة العرب فأحالها ضياءً بعد حلكة دهر طويل من الجاهلية . . . .

ولهذا فتعلم اللغة واجب دينى وفرض على كل مسلم . أفإن علم المسلم أن اللحن يمكن أن يحوله من الإيمان على الكفر أفلا يدفعه ذلك لتعلم لغة كتاب الله ؟!

كان إعرابي قد سمع إماماً يقرأ " ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا " البقرة (٢) بفتح التاء من " تنكحوا" فاستعظم الأعرابي ذلك . فلما وضحت له صحة القراءة بضم التاء من " تنكحوا" قال : لا تجعلوه بعدها إماماً ، فإنه يحل ما حرَّم الله " (عيون الأخبار جـ٢/١٦٠)

ومن ذلك أن " سابقاً الأعمى " كان يقرأ " هو الله الخالق البارئ المصور " الحشر (٢٤) بفتح الواو فى المصور ، فكان إن لقيه ابن جابان يقول له :" يا سابق ما فعل الحرف الذى تشرك بالله فيه " (البيان والتبيين جـ٢/٣٢٢) .

وقد عالج البحث خصائص العربية محاولاً أن يجد زاوية ولو ضئيلة لم يسبقنا إليها أساتذتنا الرواد فلم نجد ، فاكتفى البحث بجمع خصائص العربية من بحوث كثيرة ، وقد قارن البحث بين العربية وغيرها من اللغات ، وناقش مسألة العلاقة بين المعنى والمبنى ، وذكر مآخذ العلماء على هذه الخصائص . . .

ومن ذلك ما ذكره البحث من عراقة اللغة مشيراً إلى أقدم نصوص الكتابة العربية المعروف بـ " نقش النمارة " حيث أشار الدكتور " جواد على " إلى أن كتابة " أم الجمال" أقدم من نقش

النمارة بأكثر من ثلاثمائة عام ولذلك فتعاملنا مع اللغة العربية كواقع أكثر فائدة من البحث بين ركام التاريخ ثم أن البحث قد طال الحديث عن تاريخ نشأة علوم اللغة " وإظهار الجهد العظيم الذى بذله رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله والبحث عن إعلاء لغة كتابة .

ثم جاءت محاولات الحل ، وأشرنا إلى بعض الحلول ، ونشير إلى غيرها وأهمها :-

١- لفت أذهان قادة الأمة العربية وحكامها إلى السعى لتوحيد اللهجات وتقريبها للغة العربية الفضيحة ، اقتداءً بما يفعله حكام الغرب من الاهتمام بلغتهم داخل بلادهم وخارجها ، وليس أول على ذلك من منظمة الدول الفرنكفونية ومؤتمراتها الفخمة التى تستضيف عشرات الرؤساء من قادة الدول . ولغتنا تحتاج إلى عناية أكبر من أولى أمرنا .

٢- الردُّ على دعاة العامية ، والنظر فى دعاوى الهدم القائمة دائماً فى كل أقطار العربية- خاصة لبنان ودول المغرب العربى ، ومناقشة أفكارهم .

٣- تنشيط وتفعيل دور المجامع اللغوية العربية ، وزيادة ميزانياتها ، وتحديث أسلوب عملها ، ونقل جلساتها بشكل علنى عبر أجهزة الإعلام خاصة مع انتشار مئات الفضائيات المتخصصة التى لا تجد ما تبثه .

٤- إعادة النظر فى كافة السياسات الإعلامية العربية ، والتخطيط الإعلامي الجاد ، من أجل تحويل الإعلام كأداة مساعدة للنهوض باللغة ، وإعادة صقل المذيعين والمذيعات ، والتشديد على احترام اللغة لدى الإعلاميين ، والدعوة لتغيير النظرة داخل الدراما العربية لمن يهتم بلغته .

٥- تكثيف البرامج اللغوية فى وسائل الإعلام المرئى والمسموع ، حتى يتحقق لها قدر مقبول من الشيوع .

٦- الارتقاء بأسلوب كتاب الصحف ، وعقد دورات تدريبية لشباب الصحفيين ، لتحسين لغة الكتابة لديهم .

٧- العمل على سرعة إنشاء قنوات عربية للمغتربين ، لربطهم فى الخارج بلغة وطنهم ودينهم .

٨- الاستمرار فى مقاومة هجوم الفرنكفونية ، وكذلك المد المزعج للإنجليزية فى كل مناحى الحياة.

٩- الاهتمام بثقافة الطفل ، والتدقيق فيما يقدم إليه فى كافة وسائل الإعلام .

١٠- إعادة النظر لمناهجنا الدراسية ، وربطها بمشكلاتنا اللغوية ، والتشديد على استخدام الفصحى الميسرة داخل المدارس والجامعات .

١١- الاهتمام بحصة المكتبة ، وتطوير أسلوب تدريسها ، وربطها بحصة القراءة ، والاهتمام بالقراءة الجهرية حتى تتحول اللغة من رموز مكتوبة إلى أصوات منطوقة ، ويعتاد الطفل على نطق الفصحى بسهولة .

١٢- إعادة الحياة إلى الأنشطة المدرسية ، والمسرح المدرسى على وجه الخصوص ، ومتابعة نشاطه فى تقديم الفصحى الميسرة المقبولة وإعادة الحياة إلى فن الخطابة من خلال طابور . الصباح .

١٣- تجديد أسلوب تدريس حصة القرآن الكريم " ضمن منهج التربية الدينية ، بحيث يتضمن قراءة القرآن وأيضاً فهم معانيه وألفاظه ودراسته بلاغياً والاهتمام بالقراءة السليمة له .

١٤- الوقوف أمام فن الكتابة العربية ، وإعادة الاهتمام بفن الخط العربى ، بعد أن اجتاح الكمبيوتر محلات الخطاطين ، وجعل منهم مجرد منفذين بعد أن كانوا فنانين .

١٥- الاهتمام بعملية الترجمة ، وتوسيع نطاقها ، ونقل الحديث من الكتب ، وتقدير المترجمين ، ومساعدتهم فى نشر مترجماتهم ، خاصة المترجمات العلمية ، حيث تخضع حركة الترجمة العربية لعوامل تتعلق بذوق المترجم ، وعلاقاته ، واتجاهاته ، وقدرته على طبع ما ترجمه .

١٦- تنشيط دور المجامع العربية فى التنسيق بينها من أجل خطة متكاملة لتوحيد الألفاظ التى تم تعريبها وإلزام المترجمين باستخدام الألفاظ التى نحتها المجمع أو وضعها قياسياً أو غير ذلك .

١٧- الاهتمام بالأئمة ، ومراقبة عملهم على منابرهم ، وتحسين مقدرتهم اللغوية ، وتجديد معرفتهم بالنحو العربى ، وعقد اختبارات دورية لهم لتثقيفهم فى شئون لغتهم ، فما أكثر ما تهان اللغة على المنابر .

١٨- تبسيط الكتب الكبيرة والقديمة ، لإعادة الناس إلى عادة القراءة .

١٩- الاستفادة من إمكانات هيئة قصور الثقافة ونوادى الشباب فى تطوير الاهتمام باللغة من خلال ندوات ومحاضرات دورية .

ولاشك أن تطبيق ما طرحناه جميعاً ، يعد من أحلامنا التى نحلم بها حلماً دائماً يرونه بعيدا. .و نراه قريباً .

وفى نهاية هذا العمل ، أرجو أن يتقبله الله منى ، محاولة لخدمة دينى ولغتى التى أفخر بها وأتيه . وأن يسامحني سبحانه على كل تقصير وعجز . . . . . . والله من وراء القصد .

المراجع والمصادر

- د. إبراهيم أنيس- الأصوات اللغوية- مطبعة لجنة البيان العربى- القاهرة- ١٩٦١م .
- د. إبراهيم عبد المجيد ضوة- اللغة- دار الثقافة العربية- مصر- ١٩٩٥م .
- د. إبراهيم مدكور وآخرون- أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية- هيئة الكتاب- مصر- ١٩٨٧م
- أبو حيان التوحيدى- المقابسات- طبعة مكتبة الأسرة- عام ٢٠٠٠م .
- أبو حيان التوحيدى ومسكويه- الهوامل والشوامل- تحقيق أحمد أمين والسيد صقر- طبعة سلسلة الذخائر- مصر- ٢٠٠١م .
- أبو الحسن الأشعرى- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين- تحقيق هلموت ريتر- سلسلة الذخائر- مصر- ٢٠٠٠م .
- دكتور أحمد شلبى- كيف تكتب بحثاً أو رسالة- مكتبة النهضة المصرية- ط٢٤ عام ١٩٩٧م
- د. أحمد زكريا الشلق- رؤية فى تحديث الفكر المصرى- س مصر النهضة- هيئة الكتاب عام ١٩٨٤ .
- أحمد أمين- فجر الإسلام- مكتبة الأسرة- ١٩٩٧م .

  - ضحى الإسلام- جزءان- مكتبة الأسرة عام ١٩٩٨م
- إدريس الناقورى- المصطلح النقدى فى " نقد الشعر"- المنشأة العامة للنشر- ليبيا- ط٢- ١٩٨٤م .
- ألكسندر ستيبتشفيتش- تاريخ الكتاب- ترجمة د/ محمد الأرناؤوط- س عالم المعرفة- الكويت- .
- الإسحاقى المنوفى- أخبار الأول- هيئة قصور الثقافة- مصر- عام ١٩٩٨م .
- برتيل مالمبرج- علم الأصوات- تعريب ودراسة د/ عبد الصبور شاهين- مكتبة الشباب- مصر.د.ت .
- برند شبلز- علم اللغة والدراسات الأدبية- ترجمة وتعليق د/ محمود جاد الرب- الدارالفنية- ١٩٨٧م .
- د/ توفيق الطويل- العرب والعلم فى عصر الإسلام الذهبى- مكتبة النهضة العربية- ١٩٦٨م .
- د/ توفيق الطويل- فى تراثنا العربى والإسلامى- س عالم المعرفة- الكويت- ١٩٨٥م .
- جلال الدين السيوطى- المزهر فى علوم اللغة- تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين- طبعة الحلبى- د.ت

  - فاكهة الصيف وأنيس الضيف- تحقيق محمد إبراهيم سليم- دار ابن سينا- ١٩٨٨م
- د/ جبرائيل سليمان- كيف أفهم النقد- دار الآفاق الجديدة- بيروت- ١٩٨٣م .
- د/ حسين نصار- الشعر الشعبى العربى- دار الرائد العربى- لبنان- ١٩٨٢م .
- د/ رضا محسن محمود- المواليا- هيئة قصور الثقافة- مصر- ط٢- ١٩٩٩م .
- د/ رمضان عبد التواب- لحن العامة والتطور اللغوى- دار المعارف- مصر- ١٩٦٧م .
- رفاعة الطهطاوى- تخليص الإبريز- طبعة خاصة ٣ أجزاء- سلسلة المواجهة- عام ١٩٩٣م .
- زكريا هاشم- آراء فلاسفة وعباقرة الغرب فى الإسلام- س المكتبة الثقافية- رقم ٤٣٣- مصر- ١٩٨٨م .

- د/ سعيد اسماعيل على- محنة التعليم فى مصر- كتاب الأهالى- مصر- ١٩٨٤م .

- سلامة موسى- ماهى النهضة- سلسلة المواجهة- مصر- ١٩٩٣م .
  - البلاغة العصرية- المطبعة العصرية بالفجالة- د.ت .
- د/ سليمان نسيم- صياغة التعليم المصرى الحديث- س مصر النهضة- مصر- ١٩٨٤م .
- شمس الدين النواجى- حلبة الكميت- س الذخائر- هيئة قصور الثقافة- مصر- ١٩٩٨م .
- د/ شكرى عياد- المذاهب الأدبية والنقدية- س عالم المعرفة عدد ١٧٧- الكويت عام ١٩٩٣م .
- د/ شوقى ضيف- المدارس النحوية- دار المعارف- مصر- ١٩٦٨م .
- صلاح عيسى- الكارثة التى تهددنا- مكتبة متبولى- مصر- ١٩٨٧م .
- د/ عائشة عبد الرحمن- لغتنا والحياة- دار المعارف- مصر- ١٩٧١م .
- د/ على عبد الواحد وافى- علم اللغة- دار نهضة مصر- القاهرة- ١٩٦٧م .
- د/ عبد الكريم الرعيض- ظاهرة الإعراب فى العربية- منشورات الدعوة الإسلامية .
- د/ عبده الراجحى- فقه اللغة فى الكتب العربية- دار النهضة- لبنان ١٩٧٢م٠
- عثمان بن الصلاح- أدب الفتوى- تحقيق د/ رفعت عبد المطلب- الهيئة مكتبة الأسرة ١٩٩٨م .
- عبد الرحمن بن خلدون- المقدمة- مطبعة دار بن خلدون بالإسكندرية- فى مجلد واحد- د.ت .
- عبد القاهر الجرجانى- دلائل الاعجاز- تحقيق الشيخ محمود شاكر- هيئة الكتاب- مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٠م .
- عبد المتعال الصعيدى- البلاغة العالية- مكتبة الآداب- مصر- ط ـــ عام ١٩٩١م .
- د/ عبد الرازق أبو زيد- علم البديع- المكتبة العلمية عام ١٩٨٧م .
- عمر بن عثمان [الجاحظ]- تهذيب الحيوان- ت عبد السلام هارون- ط مكتبة الأسرة عام ١٩٩٩م
- عبد الرحمن الرافعى- تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم- طبعة مكتبة الأسرة عام ١٩٩٨م
- عصر محمد على- هيئة الكتاب- طبعة مكتبة الأسرة- جـ٣-عام ٢٠٠٠م .
- عصر إسماعيل- هيئة الكتاب- طبعة مكتبة الأسرة- جـــ٣- عام ٢٠٠٠م .
- د/ فاضل الجمالى- دفاعاً عن العربية- تونس- ١٩٩٦م .
- فاروق خورشيد- عالم الأدب الشعبى العجيب- دار الشروق- مصر- ١٩٩٧م .
- فؤاد حسنين على- قصصنا الشعبى- مكتبةالدراسات الشعبية- يناير ١٩٩٦م .
- د/ فتحى محمد جمعه- من تاريخ العربية ولهجاتها- دار الثقافة العربية- مصر- ١٩٩٥م .
- محمد لطفى جمعة- الفلاكة والبوهيمية فى الأدب القديم والحديث- طـ دار الكتب مصر- ١٩٩٩/٩٨م
- د/ محمود السعران- علم اللغة- دار المعارف- مصر- ١٩٦٢م .
- د/ محمد حسين آل ياسين- الدراسات اللغوية عند العرب- منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت- ١٩٨١م .

- محمد بن سلام الجمحى- طبقات فحول الشعراء- تحقيق الشيخ محمود شاكر- هيئة قصور الثقافة- سلسلة الذخائر- عام ٢٠٠١م .
- د/ محمود فهمى حجازى- مدخل إلى علم اللغة- الهيئة- مصر- ١٩٧٦م .
- د/ مفيد قميحة- شرح المعلقات العشر- دار الهلال- بيروت عام ١٩٩٤م .
- الإمام محمد أبو زهرة- تاريخ المذاهب الإسلامية- دار الفكر العربى- مصر- د.ت .
- المختار أحمد ديره- دراسة فى النحو الكوفى- دار قتيبة- ليبيا- د.ت .
- مصطفى ابراهيم على- الألفاظ المعربة فى معجم العين- دار الوفاء- مصر- عام ١٩٨٨م .
- د/ مهدى المخزومى- عبقرى من البصرة- العراق- ١٩٧٢ .
- د/ محمود جاد الرب- اللغة العربية واللغات السامية- مصر- ١٩٩٢م .
- د/ محمد حسن جبل- علم اللغة " نظرة عربية"- مصر عام ١٩٨٣م .
- د/ مصطفى ناصف- اللغة والتغيير والتواصل- سلسلة عالم المعرفة- عدد١٩٣- الكويت- ١٩٩٥م .
- د/ مصطفى عبد الشافى- التراث القصصى عند العرب- سلسلة ذاكرة الكتابية- عام ١٩٩٩م .
- محمد محمد الحسينى- الأزهر وعلوم اللغة العربية- مجمع البحوث الإسلامية- عام ٢٠٠١م .
- د/ محمد هيثم الخياط- فى سبيل العربية- دار الوفاء- مصر- ١٩٩٧م .
- الشيخ محمود شاكر- رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا- كتاب الهلال عدد ٤٤٢- أكتوبر ١٩٨٧م .
  - أباطيل وأسحار- مطبعة المدنى- مصر- عام ١٩٧٢م
- محمود المقداد- تاريخ الدراسات العربية فى فرنسا- س عالم المعرفة عدد ١٦٧- نوفمبر١٩٩٢م .
- د/ محمد عبد الرحمن- الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب- دار عويدان- بيروت- ط٢- سنة ١٩٨٨ .
- الشيخ محمد عبده- الإسلام بين العلم والمدنية- جزءان- طبعة سر المواجهة- مصر- عام ١٩٩٣م .
- هناء السيد محمد- التليفزيون والتنشئة الثقافية لطفل الريف- العربى للنشر والتوزيع- مصر عام ١٩٩٩م
- د/ يمنى طريف الخولى- بحوث فى تاريخ العلوم عند العرب- دار الثقافة- مصر- ١٩٩٨م .

فضلاً عن عشرات المجلات والصحف والدوريات الأخرى والكتيبات وبرامج تليفزيونية تم بثها بأماكنها من البحث .

الفهـــــرس

ـ المبحث الأول :- * فى واقعنا وواقع اللغة .

العربية بين لغات العالم / العربية لغة إبراهيم/ العربية وغيرها .

*** خصائص العربية :-**

القدم والأصالة / أصالة المعنى اللغوى / تنوع مخارج ألفاظها / العلاقة بين المعنى والمبنى / سعة الاشتقاق / وفرة المفردات / مرونة العربية فى تعاملها مع غيرها / الإعراب .

ـ المبحث الثانى :- تاريخ من النور .

فى نشأة علوم اللغة / الجهود الأولى / نشأة النحو وأصالة العربية / نشأة العلوم الأخرى/ فى نشأة علم البديع / فى علم المعانى / تطور الدراسات اللغوية العربية/ الدراسات القرآنية / دراسات غريب الحديث / لمحات من الدراسات اللغوية العربية / العين ورجل من الذهب والمسك / خصائص " ابن جنى" بين الاعتزال والدرس اللغوى / آراء ابن جنى فى ميزان غربى .

ـ المبحث الثالث:- كيف ننهض بالعربية : محاولات للإجابة .

*** فى مسألة اللهجات : اللهجات والعاميات والفصحى / اللحن وظهور العاميات /** موقف المؤسسات التعليمية من قضية العامية .

*** الإعلام : من هنا تبدأ الحلول وهنا تنتهى :-**

تماس مع العولمة / الاستعمار اللغوى الانجليزى / الفضائيات ولغة المغتربين / الدراما وعوالمها / هل من أمل / التعليم وتطوير الكتابة .

*** تعريب العلوم :** قراءة أعمق لظاهرة متداولة / تعريب العلوم نظرات جديدة / العربية لغة العلوم / وقفة عجلى مع المصطلح / تجربة التعريب فى سوريا / عوائق فى طريـــق التعريب / التعريب حلول وآمال .

*** خاتمة وتوصيات**

*** المراجع**



سيرة ذاتية موجزة

ب ـ الاسم الثلاثى : إبراهيم محمد حمزة

ج ـ العنوان كاملا ورقم الهاتف : ١٩شارع الاستقلال – حى حوض الجنينة – السنبلاوين دقهلية

هاتف ٠٥٠٦٦٨٧٥٥٧

هاتف محمول : 01003790080

البريد الإلكترونى : FFE2004@GMAIL.COM

أعمال منشورة :

- " حكايات فاضحة " قصص قصيرة – ١٩٩٨م – س أدب الجماهير .
- لحظة بوح – شعر – طبعة محدودة عام ١٩٩٨م
- أحسن القصص "إبراهيم حمزة وآخرون . صادر عن مديرية ثقافة الدقهلية .
- "عبد الرحمن الخميسى .. البهلوان المدهش – ضمن كتاب " هوية الأدب فى عالم متغير –وزارة الثقافة –٢٠٠٤م
- جدلية السياسى والأديب عند هيكل – ضمن كتاب جذور الرواية العربية – وزارة الثقافة – عام ٢٠٠٧م
- صهيل المحارم وبنية الحكاية الشعبية – دراسة منشورة ضمن كتاب أقلام تحلق فى سماء الوطن – إبداع الحرية - ٢٠٠٧م
- أدباؤنا بين الغرق والورق - ضمن كتاب " أثر التغيير الاجتماعى على الإبداع – وزارة الثقافة - ٢٠٠٨م
- السرد المضنى – كتاب نقدى – وزارة الثقافة – إقليم شرق الدلتا – ٢٠١٢م
- كتاب " حياتى " لأحمد أمين – عرض وتلخيص – العدد الأول من سلسلة الأدب العربى للناشئين – وزارة الثقافة – مصر .
- أنشودة نورس وحيد (سيرة وتحية) – دار سندباد للنشر القاهرة – عام ٢٠١١م
- خليل الجيزاوى وعالمه الروائى – إعداد وتقديم – دار سندباد للنشر بالقاهرة .

أهم الجوائز :

جائزة القوات المسلحة فى القصة القصيرة عام ١٩٩٥م

جائزة المسابقة المركزية لهيئة قصور الثقافة فى النقد عام ٢٠٠١م

جائزة نجلاء محرم فى القصة القصيرة ٢٠٠٤م

جائزة إحسان عبد القدوس فى النقد ٢٠٠٥

جائزة نادى القصة عام ٢٠٠٨م

جائزة كتاب الجمهورية ". لعام ٢٠١٠م

جائزة ربيع مفتاح الأولى فى النقد الأدبى ٢٠١٥م

الجائزة الأولى عن المجموعة القصصية بمسابقة سلوى علوان ٢٠١٦م .